أوراق مهاجر

محمود عمارة

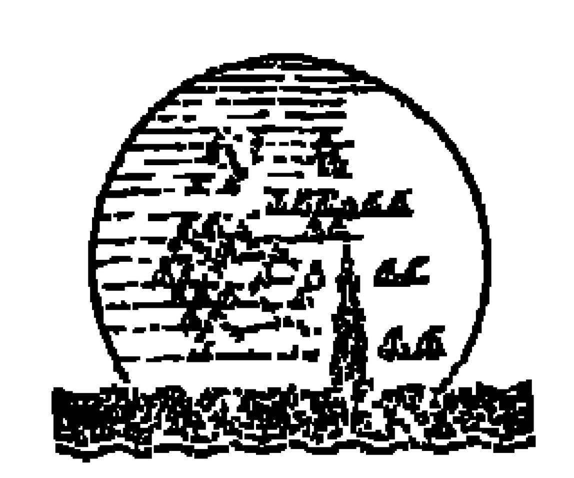


أوراق مهاجر

بقلم

محمود عمارة





General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الى كل روح شـــابة

الى كل المخلصين ، والأوفياء

الى روح والدى الذى مات وأنا فى الغربة •

الى أبناء قريتى الذين تعلمت منهم
ومعهم مبـــادىء الحياة •

الى روح كل مصرى استشهد من أجل أن نحيا •

أهـــدى هذه الصفحات •

تقديم

بقلم : موسى صبرى

الرحلة الصعبة .. والمعادلة الصعبة !

●● أشهد أننى التهمت هذه « الأوراق » بعد أن تسلمتها من « المهاجر » لقد شدتنى السطور منذ الصفحات الأولى حتى السطر الأخير .. وتصورت أن صاحبها الأستاذ محمود عمارة رئيس الجالية المصرية بفرنسا له سابق عهد باحتراف الكتابة أو له سابق تجربة مع الكلمة ودهشت عندما علمت منه أنها التجربة الأولى ، وبدى لى تماما ، أنه من محترفى النجاح مع التجربة الأولى .

والتجربة الأولى التى يعرضها فى هذا الكتاب ، هى قصة الرحلة الصعبة وفيها الحل للمعادلة الصعبة !

الرحلة الصعبة لشاب طموح من احدى قرى المنوفية ، يدرس القانون فى كلية الحقوق ولكنه يتطلع الى جامعة الحياة .. وقد دخل هذه الجامعة منتسبا خرج من مصر وفى جيبه ستة عشر جنيها استرلينيا ، وفى يمينه حقيبة من « القراقيش » وعلب الفول المحفوظ ، وفى صدره كل أحلام الوجود أن يقتحم العالم الجديد فى انجلترا .. وفى عقله لا شىء عن هذا العالم الجديد .

وبدأ يكتشف ..

وبدأ يتعلم ..

واندفع الى أعماق التجربة فى وقت قصير .

ووعى الدرس ، وتأقلم مع الأيام الجديدة بكل قسوتها ومشقاتها ومراراتها ولكنه كان يريد أن ينجح .. وكسب الجولة الأولى ..

انه يصف لنا هذه الأيام بكل الصدق وفى أدق الجزئيات، وكأن قلمه تحول الى عدسة تصوير دقيقة تكشف كل الزوايا وتلقى الأضواء على كل الظلام . ولم يكن مدعيا .. ولم يقل أنه نابليون الذى غزا العالم .. بل عبر عن نفسه بكل تواضع التلميذ المجد ، الذى قرر أن يقتحم الامتحان الصعب .. ونجح بدرجة التفوق .

وفى الرحلة الثانية الى فرنسا .. حقق المعادلة الصعبة التى بدت فى أول أيام الرحلة مستحيلة ! هـذا القروى المنوفى ، كيف يمكن أن يجرؤ على النزول الى ميدان التجارة ، وسوق البيع والشراء فى فرنسا .. ويعرف أسرار اللعبة ، ولا يقلق ولا ينام ، بل يعمل ويعمل ، ويعرف ويعرف ، وينهزم وينتصر ، وينتقل من معركة الى معركة ، ومن جبهة الى جبهة .. وتجرى الأيام ، ويصبح بعد سنوات قليلة رجل أعمال فى قمة النجاح ، يملك المطاعم ، والشركات ، ويستورد من أمريكا ويبيع فى فرنسا ، حتى أصبح من نجوم المتعاملين مع البنوك الكبرى ، فيرسلون له بطاقات التحية فى كل المناسبات ويحرصون عليه عميلا كبيرا ، حسن السمعة ، محترم الكلمة ، نعم هذه هى المعادلة الصعبة .. البالغة الصعوبة التى حققها ابن المنوفية فى مجتمع فرنسا !

والقصة هنا ، يرويها بأسلوب السيناريو السينمائى ، العامر بالمفاجآت الحريص على الخط الدرامى ، الذى يفتن من يقرأ ..

★★★

أكرر أن هذه « الأوراق » جديرة بأن يستوعب سطورها وأحداثها ، كل شاب في مصر ، فيعرف أن طريق النجاح ، هو طريق الكفاح .. ذهابا وايابا .. بالقيادة الهادفة ، والسرعة الخاطفة ، والدراية الخبيرة ، بكل الدروب ..

انها قصة تدعونا الى أن نفاخر بها ..

ولكن بطل القصة ، لا يكتفى بكل هذا النجاح انه يعرض لنا فى السطور ما بين السطور .. رؤاه المحصلة ، بالنسبة لبلده وأرضه مصر .. انه يتابع كل ما يجرى ، ويبدى بالرأى ، ويصارح بالنقد ، وهو ينشد الكمال .. ان «أوراق مهاجر » ــ هى أوراق غالية بكل ما تحمل من قيم .. وهى دعوة فقيه الى كل شباب مصر ، ألا يعبث بأوراقه فى الحياة .. بل عليه أن يجيد اللعب بها ، على مسرح الحياة ..

وما أحلى الحياة .. فى سطور من يحترمون ويحبون الحياة !

اوراق مهاجر مشاغب

بقلم : محمـد العزبى

●● آلاف الشباب يحلمون بالهجرة من مصر .. مئات يجربونها ، وعشرات يستمرون وأحاد ينجحون ..

ومع ذلك فهى حلم يراود كل شاب ذات يوم .. ولهؤلاء الحالمين .. ولتسجيل تجربة ناجحة نفخر بها .. أصدر « محمود عمارة » أوراق مهاجر .

يروى فيه تجربته منذ خرج من مصر بعشرين جنيها .. وعاد اليها رجل أعمال ناجح فى أوربا ، وأمريكا ، ويشارك فى مؤتمرات المغتربين .. ويشاغب من أجل مصر التى عشقها فى الغربة أكثر ولم تغفل عيونه عنها يوما منذ غسل الأطباق فى لندن وجمع الفاكهة فى جنوب فرنسا .

ويتساءل لماذا نقضى الأجازة فى مصر ـ وأحيانا الدراسة ـ فى لعب الكرة والكوتشينة ويتذكر نكتة خبير أجنبى رأى مصريا يصطاد بسنارة وهو فى قمة الكسل ، فلما اقترح عليه أن ينشط سأله الصياد وبعدين .. تشترى شبكة .. وبعدين قارب صيد وبعدين قارب ثانى وثالث .. ويبقى عندك أسطول وشركة تعليب أسماك .. وبعدين تبقى مليونير وترتاح .. نظر الصياد الى الخبير نظرته الى مجنون وقال فى هدوء « طيب ما أنا قاعد مرتاح أهو » .

ويروى قصة رجل أعمال أجنبي تقدم الى المكتب التجارى في باريس يطلب انشاء قرية سياحية فى مصر فلا يصله الرد ، وليس منتظرا أن يصل ما دامت الوزارات والمصالح متداخلة ومتشابكة ولابد من ألف موافقة وتصريح واذن ، وما دمتم تخافون على أرضكم من أن يسرقها الأجانب ويهربون بها ليلا !

وقصة المهاجر المصرى الذى أراد اقامة مشروع سياحي في الساحل الشمالى فكان عليه أن يحصل على موافقة السياحة والزراعة والكهرباء والرى والصرف والطرق والكبارى والآثار وهيئة الاستثمار و .. بعد باقي الاجراءات بعد الوساطات والاكراميات وما لا نسميه رشاوى عاد من حيث أتى وسط سخرية البعض من جنونه ومحاولة العودة الى مصر والاستثمار فيها .

ويطالب المهاجر المصرى المشاغب « محمود عمارة » بالتدقيق فى اختيار وزير الهجرة فلا يكون جاهلا بمشاكل المغتربين ولا يكون مجرد محام لأقارب المسئولين !

ويطالب بتمثيل المصريين بالخارج فى مجلس الشعب من خلال الأعضاء العشرة المعينين ..

أما الحكمة التى ينطق بها المهاجر الشاب على لسان الآخرين فهى : هل تدرى لماذا عجزت الديمقراطية الكاملة فى اثبات كيانها فى مصر ؟ لأن كل قادة المعارضة من العواجيز !

● ــــــــــــكتاب جديد عن الهجرة

● ــــــــــــ « أوراق مهاجر »

محمود عمارة ليس كاتبا محترفا ، لكنه حين يكتب عن تجربة هجرته الى أوربا ، ونجاحه مبلورا تلك اللحظات المكثفة في رحلته ، اللحظات التي فتحت له أبواب الحظ على مصراعيها .. بعد نضال وعمل شاق في لندن ، وباريس .. يتحول الى كاتب مبدع ومحمود الذى يرأس الجالية المصرية المهاجرة في فرنسا ، هذا الانسان الريفي خرج من مصر بعشرين جنيها فقط ! وصار الآن صاحب مؤسسات ومطاعم وحتى الانتاج السينمائى .. يحكى رحلته ببساطة ، وشجاعة .

بعد أن يحكي لنا عن تجربته الأولى في السفر الى انجلترا .. يذكر أن عدد المصريين في فرنسا لا يقل عن ٣٠ ألف مصرى ، يعملون في كافة المجالات الا أن البعض منهم يرتكب أفعالا ، وجرائم .. وأسباب هذا أن المهاجرين كانوا قد فقدوا الأمل في أن تكون قنصلياتهم وسفاراتهم وطنا يحنو عليهم ، ويحافظ على ترابطهم ، واتصالهم بالوطن الحقيقى عكس ما يحدث اليوم يستطيع كل مصرى دون ميعاد سابق أن يقابل القنصل العام أو حتى السفير بمكتبه أو منزله أيضا .. اذا كان الأمر يستدعى ذلك ، وهذا لم يحدث أبدا في الماضى .

ان مصر الآن كما يقول محمود عمارة فى حاجة الى ثورة على النظام الادارى وبدون هذه الثورة فسيظل حالنا « كمن ينفخ فى قربة مقطوعة » ٠

ومازلنا فى حاجة الى مزيد من المصارحة ــ يضيف ــ بين القيادة وبين الشعب ٠٠ حتى نصل الى أن يعيش الشعب قضاياه الوطنية ٠

محمود عمارة يضيف بكتابه هذا الى مكتبة « الهجرة العربية فى العالم ٠٠ » التى نعرف كم هى فى حاجة الى مثل هذه الكتب ، عصارة عمره ، وتجربته من أجل الأجيال القادمة لكى تتشبث هذه الأجيال لا بالأوطان الأخرى الزائفة فى المهجر ، وهى نصف وطن ٠٠ بل بالوطن الحقيقى ترابه وأهله وناسه ٠

مازلت أذكر هذا اليوم ·· عندما كنت أهبط درج كلية الحقوق المواجه لساعة جامعة القاهرة ، كنا فى امتحانات مايو سنة ٧٣ ، وكان الجو حارا يبعث على الضيق والملل ·· وشبح العطلة الصيفية يتراءى أمام عينى فيزيد نفسى قنوطا ·

سألنى زميل ، وكان يحمل فى يده مظروفا وأوراقا :

ترى هل ستسافر معنا الى ايطاليا أم الى أمريكا ؟

وقع السؤال على كالصاعقة ·· فلم أكن قد فكرت يوما فى السفر ، بل كنت أومن وقتئذ ان صوابا أو خطأ — أن السفر خارج مصر ليس الا نوعا من الهرب !

قلت لزميلى :

لم أفكر بعد ·· ولكن ربما لندن ·· وتركت الزميل الذى بدا مشغولا باعداد اجراءات السفر ·· وواصلت طريقى بخطوات ثقيلة باتجاه حديقة الأورمان ·· وكلمة السفر تحتل ذاكرتى كلها وتبهرها ··

بدأت أتذكر ونحن أطفال صغار كيف كنا نفرح بالسفر ، ونظل طول الليل لا ننام خوفا من أن يفوتنا القطار ·· أتذكر اليقظة المبكرة والفرحة ، والمحطة ، والذهول

الغريب المستولى على الناس •• ذهــول الســفر ، وانتظار القطار القادم من مكان بعيــد مجهــول ، ورائحــة خشبه . وعرباته وهى تختلط برائحة دخانه ، ورائحة الصباح المبكر مكونة رائحة السفر ، نستنشقها بشغف ، ونهم ، والقطار يمضى بنا سريعا ينقب الزمن والأفق •

منذ طفولتى كان للسفر فرحة كالعيد أرتدى له ملابس جديدة ، وحذاء جديدا ، ولا أنام من الفرح ، وأصحوا قبل آذان الفجر أو صياح الديوك • السفر كان فى ســيارة أو قطار وداخل حدود الدلتا ، كنا نتســابق للجلــوس بجــوار النافذة لنرى أعمدة السوارى والأشجار تجـرى الى الوراء بسرعة لا تلاحقها العين ، تملأنى بحركة الحياة وانطلاق نحو الهدف بأقصى سرعة .•

وعند محطة القطار يبــدو كل شىء مدهشــا • رصيف المحطة المرتفع ، والقضبان الحديدية المثبتــة عــلى ألــواح خشبية ! وأصوات الأجراس ، وصفارات القطارات والدخان الكثيف •• والناس تجرى فى كل اتجاه ، وبائع السميط ، وأمواس الحلاقة ، وماسح الأحذية ! وبائع الشــيكولاتة ، واللبان •• وآلاف الأشياء التى تغير طعمها فى أفواهنــا لما كبرنا • السفر وحده لم يتغير طعمه ، ولا تغيرت أبدا تلك الرغبة الملحة فى التنقل ، والتى ربما اكتسبناها من لجنــة الجوالة وفريق الرحلات ••

وتذكرت احدى مناقشاتنا يوما ، وتمنياتنا نحن الشباب لو يصبح فى استطاعة الانسان •• كل انسان أن يسافر متى أراد ، وكلما أراد ••

لو اختفت فجأة تلك الحواجز السخيفة بين الدول •• اختفت الجوازات ، والتأشيرات والجمارك والحدود•• حدود الدول ، وحدود الشــعوب والأفراد والطبقات ، وأصــبح العالم كله وطن أى انسان لمجــرد كونه انســانا ، وأصــبح

الناس في كل مكان اناسه ، وأى بلد يحل فيه بلده ، وأى لغة لغته ، وأى عملة عملته ، وأى جار أخاه •

★★★

آفقت على صوت طفلة صغيرة بين أشجار الحديقة •• وهى تداعب رجلا يناهز الثلاثين من عمره ، بينما جلست زوجته الى جذع شجرة ترقبها بعين الأم الحانية •

قفزت الى ذهنى معانى الحب والاستقرار ، فهذه الأسرة الوديعة كانت يوما هى حلم كل طالب منا فور انتهائه من دراسته •• اذ سرعان ما كان يتقدم من زميلته أو بنت الجيران ليعلن خطبتها ••

اما اليوم فليس أمامه سوى طريقة واحدة هى السفر للخارج كى يحقق هذا الحلم ! أو بمعنى آخر انه استبدل مرغما طريق الحب والاستقرار بطريق الاغتراب ومصارعة المجهول ، وبمجرد ورود كلمة المجهول ، فى ذهنى شعرت بقشعريرة تسرى فى كيانى ، كادت تصطك لها أسنانى وقلت فى نفسى مشجعا ولماذا لا أخوض هذه التجربة وأصارع المجهول وأقتل هذا الخوف ، وطمأنت نفسى بأننى من الأشخاص المحظوظين ! كما يقولون •! وابتسمت لنفسى مطمئنا وكأنى عقدت معها النية على وضع حد لهذه المخاوف، واتجهت الى محطة الأتوبيس المجاورة لحديقة الاورمان •

ثم ما بال الشباب يحلمون جميعا اليوم بالسفر والاغتراب ؟

نحن الذين اذا عمل أحدنا فى محافظة غير محافظته ، فاذا كان من الدلتا ويعيش فى الصعيد أو فى الاسماعيلية كان كل حديثه عن غربته ، وبين كل جملة وأخرى يحلف بغربته هذه ! وكان الناس بالقرى يخرجون لتوديع أبنائهم بالبكاء والدعوات لأنهم مسافرون الى القاهرة !

• ماذا جرى ؟

هل صحيح أن حرب ٦٧ وما تركته الهزيمة من بصمات علينا نحن شباب الثورة هى المسئولة عن غرس هذه الفكرة فى نفوسنا ؟ .

ثم هل يعنى فتح أبواب السفر للشباب اعترافا من الحكومة بهزيمتنا فى الداخل ؟ وعلى الشباب أن يبحث عن نجاح آخر فى الخارج ؟ أم انها خطوة على طريق الديمقراطية كما يقولون ؟!!

★★★

فى المساء تحدثت مع أخى الأكبر الذى أقيم معه بالقاهرة ، وكان محاميا بمصلحة الهجرة والجوازات والجنسية بمجمع التحرير وأخبرته بنيتى على السفر ، وهونت عليه الأمر بأننى سأحصل على عقد عمل بانجلترا لما أقدمه من أنشطة فى اتحاد طلاب الكلية .. وكنت أعرف ان شابا من قريتنا يعمل فى وظيفة هامة بأمانة الشباب ، فتوجهت اليه فى اليوم التالى ، وبصحبة أحد أقاربى المقيمين بالقاهرة تم عمل اللازم .. واستخرج لى أخى جواز سفر طلبة صالح لمدة ستة أشهر ولا يزيد عن ست صفحات ، صالح لجميع الدول العربية والأوروبية ودونت به عبارة شهيرة تقول « على حامله العودة قبل ٣١ أكتوبر » وكان يحمل رقم ٢ مما تسبب لى فيما بعد فى مشاكل كثيرة بادارة الهجرة فى انجلترا ! فكان من غير المفهوم لديهم أن يكون رقم جواز السفر مكون من عدد واحد !

كانت هناك دورات تدريبية لمدة ساعتين للتوعية بأهمية جواز السفر ، وأن كل شاب منا سيمثل مصر فى الدولة المسافر اليها ، فعليه أن يعطى انطباعا صادقا وأمينا عن نفسه ووطنه لكل من يراه أو يتعامل معه .

وبانتظار الأتوبيس هبطت على رأسى مجموعة ، كأنها سرب من طيور البرارى أعياها طول السفر « هل سأسافر حقا الى لندن كما أخبرت زميلى ؟ » وهل سأحمل المظروف وأقف فى الطوابير أمام القنصليات الأجنبية بانتظار التأشيرة ؟!

بوصول الأتوبيس انقطع سرب الأسئلة ، بينما ظللت شاردا لا أكاد أفكر فى شىء حتى أهرب منه الى شىء آخر .. يصعد الناس من حولى ويهبطون دون أن أشعر بهم ، وكأنى أستقل وحدى عربة الأتوبيس !

وعادت فكرة السفر تلح على خاطرى عندما صعدت الأتوبيس مجموعة من الطلاب يحمل كل منهم مظروفا .. نظرت خلسة الى وجوههم الشاحبة ربما من آثار الامتحانات والسهر ، سمعت أحدهم يقول للآخر :

لن أسافر معكم الى فرنسا مباشرة لأن تذكرة الطائرة ذهابا وعودة بثمانين جنيها ، ولذلك سأتجه أولا الى اليونان بالباخرة بتسعة وعشرون جنيها ، وأعمل هناك لفترة ، وبعدها أكمل الرحلة بالقطار حتى باريس .

فقال الآخر : اذن نسافر معا الى اليونان لأن أخى بعد أن وعدنى بسلفة خمسين جنيها عاد وحنث فى وعده ، متهما اياى بأننى أريد السفر الى أوربا بغرض اللهو والعبث !

وقال ثالث : على فكرة مسموح لكل طالب باستبدال عشرون جنيها مصريا بعملة أجنبية وهى تساوى ستة عشر جنيها استرلينيا أو ما يوازيها من دولارات وهى حوالى ثلاثون دولارا .. وهذا شرط للحصول على أية تأشيرة ثم أضاف أن هناك عقودا للعمل بانجلترا وفرنسا توزع فى أمانة الشباب بشارع حسن صبرى بالزمالك .

نزلت فى المحطة التى لا تبعد عن مسكننا كثيرا ، واذا بسرب آخر من الأسئلة ينهال على رأسى « ألا تعد ظاهرة

السفر الى خارج مصر ظاهرة جديدة على المجتمع المصرى الذى ارتبط منذ أقدم العصور بالأرض والنيل ؟! »

الآن افتقدنا بحق هذه الدورات التثقيفية ·· ربما لأن السفر الى الخارج ـ لم يعد حدثا هاما اليوم !

انتهينا من الامتحانات وكان حديث الطلبة جميعا هو السفر الى الخارج ·· اتفقنا نحن الشلة على السفر الى انجلترا بعد أن حصلنا على عقود عمل بنفس المزارع ·· كل بمعرفته أو بواسطته ! وفى الصباح توجهنا الى احدى وكالات السفر التى انتشرت كالطاعون فى ذلك الوقت ، وجدنا طابورا طويلا من شباب مصر طلابا وغير طلاب ··

آثرنا أن نحجز تذاكرنا على شركة الخطوط الجوية البريطانية ، ربما لأن مصر للطيران فى ذلك الوقت كانت تمتاز بسمعتها السيئة فى المواعيد الغير منتظمة وخدماتها السيئة ·

(بخلاف ما هى عليه اليوم من سمعة طيبة لدرجة اننا نتوسط لزملائنا من أبناء الجالية لدى مكتب باريس للحصول على مقعد فالزحام اليوم شديد على زيارة مصر) ·

أوربما مجاملة للانجليز حتى يزدادوا فى اكرامنا حينما نحل ضيوفا عليهم !

اتفقنا على اللقاء أمام القنصلية الانجليزية بجاردن سيتى صباح اليوم التالى وبعد الوقوف ست ساعات فى طابور طويل ، كان مطلوبا منا الاجابة على ورقتى أسئلة كانت من وجهة نظر أحدنا أصعب من امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق !

واتفقنا أن نلتقى جميعا بمطار القاهرة الدولى فى العاشرة من صباح يوم الخامس من يونية حزيران وكانت أول مرة نلتقى فيها بمطار القاهرة عدا زميلنا خالد ·· كنا

نراه فقط من خلال التليفزيون عند استقبال الملوك والرؤساء ، وهانحن اليوم من بين رواده ٠٠ كان في وداع كل منا عدد كبير من أهله وأصدقائه جاءوا جميعا لمساعدتنا في حمل الحقائب التي ملأناها بعلب الفول ، والبولوبيف ، والجبن ، والقراقيش ٠

ـ وقفنا خمستنا وسط المودعين كالحيارى رغم تظاهرنا بغير ذلك ، فالمجهول الذى ينتظرنا يبعث بأوهامه الى صدورنا ٠٠ مرت دقائق معدودات وكأنها دهر بانتظار الدخول الى صالة السفر ٠٠ ، ودعناهم بعقول شاردة ، وبكى أحدنا بصوت مسموع فانتزعناه من أحضان والده ، وسرنا بأقدام مثقلة ٠٠ لم أجرؤ على الالتفات ورائى لألقى بنظرة ربما تكون الأخيرة ٠٠ وتحجرت الدموع ٠٠ !

وانحبست أصواتنا ولم نعد نقوى على شيء غير أن نجر سيقاننا باتجاه ضابط الجوازات ٠٠ هوى بخاتمه على احدى صفحات جواز السفر ، أحسست وكأنه يصفعنى لأننى سأترك مصر ملأ صدرى شعور بالذنب من نفسى وعليها ـ فكيف أترك مصر التي عشت فيها وأصبحت من جسدى بمثابة الروح ـ قال زميل لى وكأنه قرأ أفكارى ـ « لا تندم فالحياة هنا في الداخل باتت أكثر غموضا من الحياة خارجها ! »

نزلت بصحبة رفاقى الخمسة من أتوبيس المطار لأجدنى وجها لوجه أمام الطائرة بجسمها الضخم الجاثم على الأرض ٠٠ وكيف كنا نراها في سماء قريتنا بحجم العصفورة !

دفعنى زميل في كتفى لينبهنى أن أصعد السلم الى باب الطائرة ٠٠ استقبلتنا المضيفة الانجليزية الشقراء التي يجرى الدم في وجهها فيضفى على وجنتيها حمرة محببة ٠٠ نظرت اليها محملقا وتذكرت مدرس التاريخ عندما كان يشرح لنا حادثة دنشواى فيقول « لقد مات أحد الجنود الانجليز بضربة شمس أثناء قيامه بصيد الحمام في أجران قرية دنشواى والتي لا تبعد كثيرا عن قريتنا » ٠

ــ ناولتها تذكرتى فقادتنى الى مكانى بمؤخرة الطائرة فرميت بجسدى وكأنه المتاع الذى أعيانى حمله !

لحظات تلفت من حولى لأطمئن على زملائى فقد كنا قد اتفقنا على أن نجلس بجوار بعضنا البعض ــ وفجأة سمعنا صوتا يدعونا لاطفاء السجائر ، وربط الأحزمة ، قرأنا الفاتحة داعين الله أن يوفقنا فى رحلتنا الى مدينة الضباب .

ومع تحرك عجلات الطائرة للاقلاع شعرت بوخزة شديدة فى قلبى ، لم أعرف لها سببا غير خوفى الذى بددته بعض النكات الباهته التى تطوع أحدنا بالقائها .

النافذة بجوارى صغيرة مستديرة مغلقة بزجاج مزدوج ، السماء زرقاء ثابته لاتتحرك ، والسحب البيضاء ثابته أيضا ، لا أشجار ولا أعمدة التليفونات تتحرك ..

وحزام المقعد يلتف حول جسدى ومغلق بقفل معدنى .. نظرت ناحية الأرض لأرى السيارات فى حجم علب الكبريت ، والعمارات متلاصقة .. والنيل ، والأهرامات تبدو أصغر مما تصورت !

جناح الطائرة يشق السحاب ، فى نهايته لمبة حمراء تومض كنجم يظهر ويختفى ثم يظهر .

أى خطأ صغير فى ذلك الجناح قادر على هلاكى .. تذكرت قصة اكتشاف الطائرات .. قصة أول رجل فى التاريخ فكر فى الطيران هو عباس بن فرناس الذى أراد أن يقلد الطيور ، فصنع لنفسه جناحين من الريش ، ومن مكان عال استطاع أن يطير ، لكنه سرعان ما سقط على الأرض ، ليكتشف أنه نسى أن يصنع لنفسه ذيلا .

ــ مرت الدقائق الاولى بطيئة متثاقلة ، لم أكن أفكر فى شىء فاغمضت عينى واستسلمت للدوار ... ولم أفق الا

على صوت يدعونا الى فك الأحزمة ، فارتبكنا جميعا اذ حاولنا عبثا أن نفك قيودنا فلم نستطع ، وكان حالنا كمن غرق فى شبر ماء !

لمحتنا المضيفة بعيونها الزرقاء فادركت ما نحن فيه فاقتربت منا وأعادت الى قلوبنا الراحة بابتسامتها ، والى أجسادنا الحرية بمساعدتنا فى فك أحزمتنا ٠

لا أعرف لماذا تحدثنا عما حملناه فى حقائبنا فهذا يذكر لنا عدد علب السردين والجبن الدمياطي والفول والآخر يقول ان والدته أصرت على أن يحمل معه كمية من القرص والبيض المسلوق ٠٠ ظللنا نعدد هذه الأشياء حتى احتدم النقاش بيننا جميعا عندما أصر أحدنا وكان طالبا بكلية الآداب ومدرسا خصوصى للغة الانجليزية بقريته أصر على أن حقيبة اليد تسمى « الباج هاند » وليس « الهاند باج » كما ذكر أحدنا !

وارتفعت أصواتنا بعد أن انقسمنا الى فريقين ، فريق يرى أن الاسم الصحيح بالانجليزية هو «الباج هاند» وفريق آخر يزعم ان الاسم الصحيح هو « الهاند باج » !

ـ لم يحسم هذا الخلاف الذى بدأ يتحول الى صراع غير شاب مصرى كان يجلس بالقرب منا وكانت نظراته تدل على ثقة بالنفس وهو يسخر منا قائلا انه قد سبق له السفر الى انجلترا فى العام الماضى ، واليونان فى العام الأسبق ٠٠ تحولت أنظارنا جميعا اليه ، ونسينا المضيفة بعيونها الزرقاء ووجهها الأحمر ، كما نسينا قضية « الهاند » و « الباج » وأيهما أسبق ٠٠ أخذنا نلقى عليه باستفساراتنا وأسئلتنا دون استئذان ٠٠ واستمعنا الى اجاباته ٠٠٠ وبدا فى نظرنا كما لو كان خبيرا فى شئون السفر بل والهجرة !

تعلقت قلوبنا بكل حرف كان ينطق به ، وفجأة شعرنا بأن أحلامنا العملاقة التى ترقبنا تحقيقها فى مدينة الضباب قد تضاءلت رويدا رويدا ـ فها هو يؤكد لنا أن عقود العمل

فى مزارع الفواكه والتى حصلنا عليها ليست الا حبرا على ورق !! فالمزارع لمدة أسبوعين فقط ... وهى تبعد عن لندن ثلاثمائة ميل ، وثمن تذكرة القطار ذهابا وعودة الى لندن تعادل تقريبا ما سنحصل عليه من عمل ــ وأيضا والأهم أننا سوف نعود من المزارع لنجد لندن مكدسة بالمصريين .. ونصحنا بأن نبحث فورا عن عمل بأحد مطاعم لندن قبل أن يصل آلاف المصريين اليها .

بدأ الخوف يدب فى أوصالنا ونحن نتلفت الى بعضنا البعض فى حسرة وندم ... وتشجع أحدنا وطلب منه بعض العناوين لهذه المطاعم .. فجاءت اجابته لتجهز على البقية الباقية من مطامحنا ، فقد ذكر لنا أن رجال الجوازات الانجليز قد أعادوا فى العام الماضى أمام عينيه مجموعات كبيرة من الشباب المصرى بعد أن اكتشفوا أن فى حوزتهم عناوين للعمل فى انجلترا فلم يسمحوا لهم بدخولها وأعادوهم على الفور الى القاهرة وعلى نفس الطائرة !! ثم أضاف يحذرنا من المقلب الذى حدث فى العام الماضى أيضا فقد طلبت السلطات الانجليزية بمطار هيثرو من الشباب المصرى وبمجرد وصولهم أن يقسموا أنفسهم الى قسمين من يرغب العمل يمينا ومن لا يرغب يسارا ... واتجه الجميع الى اليمين مسرورين بهذه الفرصة التى هبطت عليهم من السماء ... وبعد ساعتين من الانتظار يمينا .. كانت اجراءات عودتهم قد انتهت وحملتهم الطائرة الى القاهرة فى نفس الليلة !

ثم بدأ يؤكد لنا أن بريطانيا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا تعتبر تأشيرة الدخول التى تحصل عليها من قنصليتها فى أى مكان نهائية ، لذلك فأنت حين تصل الى مطار لندن سوف تخضع الى استجواب جديد من ضابط الجوازات فى المطار يسألك عن غرضك من الزيارة ومدة الاقامة ، والنقود التى تحملها ، وفى نفس الوقت يملك الحق

فى أن يلغى تأشيرة دخولك ، ويحتجزك فى المطار حتى يعيدك الى بلدك على أول طائرة وهذا ما حدث مع المصريين فى العام الماضى .

نظرت الى زملائى فاذا هم واجمون والجزع يملأ تقاطيع وجوههم الشاحبة ، وقد امتلأت نفوسهم بمرارة الخيبة التى لحقت بهم قبل أن تطأ أقدامهم أرض الأحلام الوردية !

حاولت أن أطمئنهم بأن العقد الذى حصلنا عليه سوف يحمينا من هذه المقالب وسيشفع لنا فى الحصول على الاقامة والدخول الى العاصمة الانجليزية .. ولكن دون جدوى .

فألقيت برأسى الى الوراء وبدأ شريط مشوش يمر أمام عينى .. وكان النوم هو أجمل أمنية فى هـذه اللحظة .. ليس من باب الوجاهة كما عرفت فيما بعد وربما تتساءل ماذا أقصد هنا من أن النوم فى الطائرة من علامات الوجاهة ؟

... لقد عرفت منذ زمن ليس ببعيد أن النوم فى الطائـرة يعنى أن الشخص معتاد على السفر والتنقـل بالطائرات ، وأنه مسئول هام مشغول بأعمال هامة ... وهو يعتبر أن رحلة الطائرة اجازة قصيرة من المتاعب والانشغالات تنتهى بوصول الطائرة الى أرض المطار ، ثم خروجه لممارسة أعماله الهامة جدا مرة أخرى ... أى يسـتغل رحلة الطائرة فى اراحة جسمه وعقله بعيدا عن المسئوليات الجسـام ، كمـا يقول الصـديق الأستاذ / عبـد الوهاب مطاوع فى كتـابه « يوميات طالب بعثة » هكذا يصبح النـوم فى الطائرة من علامات الوجاهة تماما كما كان « الباسبور المقطع » علامة من علامات الوجاهة والنفوذ ، ففى الوقت الذى كان السفر فيه الى الخارج مقيدا ، وصداقة ضابط بالجوازات تعـد مفخرة وشرفا . كان المعتاد ألا يسافر الا أصحاب النفوذ ، وأهل الثقة ، وبالتالى فحصولك على جواز سفر أصلا فضلا عن جواز مشحون بتأشيرات الخروج والدخول ومشغولة كل

صفحاته وشكله مبهدل من كثرة الاستعمال ، كان يعنى عند اخراجه فى النادى أو وسط شلة من الأصدقاء انك رجل مهم « واصل » تسمح لك الدولة بالسفر الى الخارج كثيرا ، ولأن الدنيا تتطور فلم يعد الجواز المبهدل اليوم من علامات النفوذ ... فأنت تراه اليوم فى كل يد !

مرت لحظات أو ساعات لا ندرى ـ فنحن لم نفق الا على وجبات الطعام وهى توضع أمامنا . وكان علينا أن نأكل كمن حولنا على الرغم من أن شهيتنا للطعام كحال شهيتنا للحديث قد افتقدناها ...

يبدو أن صديقنا « الخبير فى شئون السفر » قد شعر بوقع الصدمة علينا فبادر بمحادثتنا ومد يده نحونا وأعطانى ورقة بها مجموعة عناوين للعمل وأماكن للنوم بأسعار رخيصة . لحظات وأمرنا الصوت بربط الأحزمة مرة ثانية .. وها هو صوت المضيفة يعلن أننا فوق مطار هيثرو بلندن !

أطللنا من النافذة لنرى صورتها لأول مرة وكانت تبدو كأحد اللوحات المرسومة بدقة وعناية ، لا نرى سوى اللون الأخضر وهو لون الحدائق والمزارع والأشجار ثم اللون الأحمر وهو لون سقوف البيوت المصنوعة من القرميد الاحمر .

هبطت الطائرة فى سلام لكن قلوبنا ظلت مهشمة ـ ومشينا فى ممرات المطار واكتشفت بمساعدة صديقنا « الخبير فى شئون السفر » أن هناك ممرات للخروج من دائرة الجوازات ، ممر للمواطنين الانجليز وهؤلاء يستقبلهم ضابط الجوازات بابتسامة ونظرة على الجواز وهو مغلق وممر للقادمين من دول الكومنولث ولا تستغرق اجراءاتهم لحظات ، ثم ممر ثالث مكتوب عليه «جوازات السفر الأخرى» وقفنا فى هذا الطابور الطويل وسرنا فى طريقنا الى رجل الجوازات كما لو كنا سكارى !

وما أن هوى بخاتمه على جواز السفر حتى تنفسنا الصعداء ، وأفقنا من غيبوبتنا ولم يسألنا رجل الجوازات عن أى شيء !!

وها نحن نقف على أبواب هذه المدينة العريقة ، تتنفس ضبابها الذى طالما طمس حياتنا فى مصر فى عهد الاحتلال الانجليزى ، فأجد له طعما غريبا فى نفسى لم أهتز له بقدر اهتزازى لمظاهر العمران والمدنية التى ملأت الأرجاء من حولنا ...

ـ ولا أدرى لماذا قفزت الى ذهنى صورة مدينة «الباجور» عندما رأيت الشوارع الواسعة النظيفة ... والمبانى المتناسقة الشكل والارتفاع ، والمدهونة كلها بلون واحد فقط ! حتى البلكونات والشبابيك كلها أيضا بلون واحد !!

كانت الساعة تشير الى الخامسة والنصف مساء والشمس تملأ فضاء المدينة ، وقد علمنا أن الشمس لا تغرب قبل العاشرة مساء فى أشهر الصيف !!

كان الناس يجرون فى كل اتجاه ـ وسيارات التاكسى السوداء والتى تشبه سيارات حمل الموتى عندنا تقف بانتظام فى المكان المخصص لها على جانب الطريق . سألنا عن أقرب محطة للمترو شابا بدا من ملامحه انه من أصل عربى ولكنه لا يتحدث العربية فأشار باصبعه فى تثاقل نحوالمحطة وكانت تقع على بعد أمتار منا ...

وجدنا سلالم ميكانيكية ، يكفى أن تقف على أول درجة لتتكفل هى بالنزول الى جوف الأرض حيث يوجد عالم آخر ، يفوق فى نظامه ونظافته العالم الأرضى... وبكلمات انجليزية ركيكة استطعنا الحصول على خريطة توضح كل خطوط المترو فى مدينة لندن بل وضواحيها ... استطعنا نحن الخمسة مجتمعين أن نحدد موقع المكان الذى أوصانا به زميلنا « الخبير فى شئون السفر » للمبيت ركبنا المترو الذى

يختلف كثيرا عن مترو الميرغني ، فضلا عن السراديب العملاقة التي يسير فيها تحت الأرض .

وهنا حاول أحدنا أن يزيل الرهبة التي ارتسمت على وجوهنا فقال متندرا على زميلنا مدرس اللغة الانجليزي « هل يا ترى الانجليز يسمونه « الاندر جراوند » أو « الجراوند أندر » ضحكنا من قلوبنا كالأطفال ... عدا زميلنا عبد الله صاحب القضية ...

في حوالى التاسعة كنا قد وصلنا الى عنوان المبيت ، وكان عبارة عن حديقة واسعة انتشرت فيها عشرات المخيمات فاتجهنا مباشرة الى المكتب المختص ، وعلمنا أنه معسكر فاستأجرنا خيمة كبيرة تتسع لخمسة أشخاص بجنيه استرليني واحد لليلة ...

وفي الطريق الى هذه الخيمة كنا نمر بخيام صغيرة تتسع لزوجين فقط ... واعتقدنا انها مخصصة للمتزوجين كما كانت تصور لنا سذاجتنا أن كل شاب يسكن مع فتاة فهو لابد أن يكون زوجها !!

كانت غالبيتهم من جماعات الهيبز والتي انتشرت وكانت موضة في ذلك الوقت كان هؤلاء الشباب يطلقون لحاهم وشعورهم ، ولا يلبسون من الثياب الا أقدمها وأقذرها أيضا !

كانت هذه الصورة كفيلة بأن تجعلنا نخاف على ممتلكاتنا من جوازات السفر والستة عشر جنيها استرلينيا والتي تفنن كل منا في اخفائها بجيوب صنعت خصيصا في ملابسنا الداخلية !!

اتفقنا على أن نتناوب الحراسة والسهر فيما بيننا .. عملا بالوصية في الحفاظ على جواز السفر حتى لا يقع في أيدي المخابرات الاسرائيلية !!

ـ وفى صباح اليوم التالى استيقظ أحدنا مبكرا ··· وتوجه الى دورة المياة القريبة من خيمتنا ـ ثم عاد الينا منزعجا ليخبرنا بأن المياه ربما تكون « مقطوعة » ·

فدورات المياه ليس بها ماء ··· !! واكتشفنا فيما بعد أن المياه ليست مقطوعة ولكن الانكليز لا يستعملون المياه فى دورات مياههم !

وقد استعاضوا عنها بالورق !! تصورناها نكته فى بادىء الأمر ، لكن سرعان ما اكتشفنا انها حقيقة ··· فضحكنا وقلنا فى أنفسنا :

« لله فى خلقه شئون ! »

دخلنا فى ملابسنا بسرعة ، فقد عزمنا على ألا نضيع الوقت دون بحث عن عمل ، واقترح أحدنا أن نقسم أنفسنا الى مجموعتين ونتجه الى الشوارع المزدحمة بالمطاعم والتى نصح بها صديقنا « الخبير فى شئون السفر » ··

ركبنا الأتوبيس ثم المترو وبعد حوالى الساعة وصلنا الى شارع وميدان البيكاديلى بوسط العاصمة ··· لم نترك مطعما ولا محلا ولا حتى كشكا الا ودخلناه ··· وكانت كلمة « No » هى التى نسمعها ···

ـ فى المساء التقينا نحن الخمسة فى الخيمة وتذكرنا أننا لم نذق طعاما منذ الصباح ، فأخذنا نلتهم بحذر شديد بعض ما حملناه من مأكولات ، وكلانا يحكى للآخر ما حدث له طوال اليوم فنسمع مرة بابتسامة وأخرى بمرارة ، وشبح المجهول فى مدينة الضباب يتراقص أمام عيوننا كلهيب المصباح العارى الذى كنا نذاكر على ضوئه فى قريتنا قبل أن تصل اليها أعمدة الكهرباء ! مرت علينا أياما خمسة على هذا الحال لم يجد أحدنا فيها عملا ، فبدأ الجذع يقبض على أعصابنا المنهكة من أثار الامتحانات·· وخصوصا عندما

نجد أن كمية القراقيش التى حملناها بدأت تتناقص ٠٠٠ وبدأنا نفكر جديا فى استخدام العقود التى حصلنا عليها كل بواسطته !

فى اليوم السادس وجد ثلاثة منا عملا ، وحصل الرابع على وعد بالعمل بعد يومين أما عبد الله مدرس الانجليزية الخصوصى فقد تعرف على أحد المصريين المقيمين فى لندن وهو بلدياته كما ذكر ٠٠٠ عاد فى المساء ليجمع حقائبه ، وتركنا نواجه مصيرنا نحن الأربعة دون أى تفاصيل !

مازلت أذكر هذا اليوم الذى عملنا فيه لأول مرة فى حياتنا ٠٠٠ كنا نبكى من فرط سعادتنا ، فشبح المجهول أخذ يتلاشى ، وها نحن نبنى أول « طوبة » فى صرح أحلامنا لم ننم فى هذه الليلة الا فى وقت متأخر جدا ، فقد بدأ كل منا يحكى تفاصيل عمله ، وكيف تحدث الى صاحب العمل أو المدير المسئول ؟ وكيف حاول أن يبدو نشيطا ؟

وعدد الأكواب التى كسرها ثم أخفاها فى صناديق الزبالة !

قلنا كل شىء فى صراحة ووضوح ، لم نخف على بعضنا البعض سوى حسرتنا على أصابع أيدينا التى تغير لونها من المياه الساخنة والصابون الانجليزى الحارق ٠٠ بعد أن غسلنا أكثر من ألف طبق فى اليوم الأول لنا !!

وبعد أن أصبح كل منا يملك ستة عشر جنيها استرلينيا بعد أسبوع كامل من العمل الشاق لم نتردد فى تغيير سكنى الخيام ، فاستأجرنا حجرة صغيرة بعشرة جنيهات فى الاسبوع الواحد لنا جميعا ، تبعد خمسة كيلو مترات عن البيكاديللى الذى نعمل فيه ٠٠ كنا نقطعها بعد منتصف الليل سيرا على الأقدام ٠

كان شاغلنا الوحيد ألا نقترب من العشرة جنيهات التى يوفرها كل منا أسبوعيا ، مهما كانت الأحوال ، فلم نكن

نتأفف من أن نأكل بقايا الطعام التى يتركها الزبائن بعد أن تمتد اليها يد « الشيف » فتعطيها شكلا جديدا !

طبعا كنا فى غاية السعادة عندما اكتشفنا بعد مرور شهر واحد من عملنا فى مطاعم البيكاديللى وبعد أن غسلنا ما يقرب من ½ نصف مليون طبق وكوب ··· وباع فيها أشرف ما لا يقل عن خمسة أطنان من الأيس كريم فى المحل المجاور لنا ·· أن رصيد كل منا قد بلغ الخمسين جنيها استرلينيا ــ أى ما يقرب من ثمن التذكرة ذهابا وعودة والتى دفعنا فيها حينئذ ٨٥ خمسة وثمانون جنيها مصريا !!

شعرنا بالتخمة التى يشعر بها الجياع عقب تناول وجبة دسمة ·· وكان هذا الرصيد بالنسبة لنا غنيمة أعادت الينا الأمل ، والثقة ، والاعتزاز بأنفسنا وقدراتنا التى لم نكتشفها من قبل !

ومرت الأيام متشابهة لا تكاد تختلف كثيرا عن سابقتها الا فى ازدياد الشوق والحنين الى الأهل والأصدقاء ومصر كلها ·

لم يكن يؤلمنا سوى روائح الأطعمة التى « عششت » فى ملابسنا لوقوفنا طوال اليوم داخل جدران المطبخ··· مازلت أذكر تعليقا لأحدنا ضحكنا منه حتى سالت دموعنا يقول : اننا نسير فى الشوارع برائحة ملابسنا كالمطاعم المتنقلة لبيع الفريت (أى البطاطس المحمرة فى الزيت) !

كانت رائحة ملابسنا ، ولون بشرة أيدينا كفيلة بأن تجعلنا نبحث عن عمل آخر ونغير هذا العمل الشاق ، وبعد أن كبر رصيدنا ،وتحسنت لغتنا الانجليزية الركيكة ! والتى تعلمناها بالاعدادى والثانوى ثم الجامعة !

كانت هذه الفكرة هى بداية لمنعطف كبير فى حياتنا فى عاصمة الضباب ، جعلتنا نكتشف جوانب أخرى خافية

فى أنفسنا لم نكن نعلم عنها شيئا ، كما اكتشفنا « لندن » عاصمة الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس «سابقا» !

البداية كغيرها من البدايات كانت طريفة ، فقد وجد أحدنا فرصة عمل كجرسون فى فندق ٤ نجوم بجوار شارع اكسفورد عن طريق ادوارد وهو زميل مصرى كان يعمل جرسونا فى هذا الفندق ، وبعد أقل من شهر بلغ عددنا ١٦ ستة عشر مصريا ومصرية ، نعم بيننا كانت عزة ، وسهام ، وحمدية وكن أيضا طالبات جئن الى لندن بحثا عن عمل فى أجازة الصيف وكن يقمن بتنظيف الحجرات وترتيبها « أى ما يسمى بالفام دى شامبر » .

أصبحنا نغير ملابسنا كجرسونات يوميا واشترى كل منا بابيونة سوداء ولأول مرة ندفع جنيها استرلينيا كاملا لحلاق انجليزى ... واشترى كل منا سشوارا خاصا به ... وبدأت جيوبنا الواسعة تنتفخ بعشرات القطع المعدنية .. وبها بدأت لغتنا الانجليزية تتحسن تحسنا ملحوظا ...

ثلاثة أشهر أخرى من العمل المتواصل فى خدمة نزلاء ونزيلات الفندق ذى النجوم الأربعة كبر الرصيد ، فكبرت الطموحات ، وتطلعنا لأول مرة نحو حديقة « الهايدبارك » الشهيرة ... كنت أعرفها كغيرى من الزملاء كأبرز المعالم السياحية فى لندن ، والتى يحرص كل زائر على التجول فيها .

ولشد ما أدهشتنى هذه الحديقة التى يتقبل فضاؤها الواسع كل الاتجاهات ، ومختلف التيارات فى السياسة والأدب والاجتماع ... فهذا شيخ وقور يسير ببطء فى جنباتها حتى اذا ما اقترب من منصة صغيرة ، شرع يتلفت حوله قبل أن يعتليها ، وكأنه ينادى زوار الحديقة أن يلتفوا حوله ليستمعوا الى خطابه الذى يدين فيه نظام الاقتصاد العالمى الحالى ، ويحمله مسئولية التضخم وارتفاع الأسعار !!

وعلى مقربة منه يصرخ شاب نحيل فى الناس من حوله، وكأنه يستنجد بهم أن يضموا أصواتهم الى صوته لادانة السباق النووى والأسلحة الذرية ! ثم بدأ ينادى بالمحافظة على الطبيعة والخضرة وحمايتها !

فى الطرف الآخر من الحديقة تقف فتاة شقراء تتناقش مع عدد من الشباب الفوضويين الاتجاه الوجودى فى الأدب ... فهمت فقط اسم سارتر وصديقته سيمون دى بفوار !

وللحق أقول أن زياراتى للهايد بارك كانت المحك الأول لثقافتى ، فهذا هو الغرب يموج بتياراته الفكرية والأدبية فى حرية مطلقة .. يقابله شرقنا المسكين .. لا يعرف غير كلمة « تابو » .

يضرب بها كل فكرة جديدة ، أو طريقة مبتكرة فى العيش والحياة ؟!

كبحت جماح هذه الفكرة قبل أن تستبد بعقلى وقلبى معا ، وعدت مع زملائى الى حى «ايرلزكورت» الذى اخترناه مكانا جديدا لسكنانا ، ليس فقط لأنه من أرخص أحياء لندن ، ولكن أيضا لأنه يشبه الى حد كبير أحياء القاهرة القديمة ، فيه المطاعم الشرقية ، والجرائد والمجلات المصرية والعربية التى كنا نشتريها يوميا لمتابعة أخبار الوطن .. فضلا عن عشرات المصريين والمصريات الذين تقع عليهم عيناك فى كل شارع أو حارة صباح مساء .

كان « حى ايرلزكورت » فى ذلك الوقت عبارة عن مجموعة من البيوت القديمة والمتهالكة .. كل سكانه تقريبا من الأجانب كنا نرى كل الألوان والأجناس وبخاصة أبناء شرق آسيا والهنود الذين يتمتعون بحقوق خاصة بصفتهم احدى دول الكمنولث ... ويمتلكون المطاعم الصغيرة ومحلات البقالة ... وتجد بعضهم فى المصالح والهيئات الحكومية ، لم نر انجليزيا واحدا فى هذا الحى ، وربما تركوا لندن كلها لسكنى الأجانب وفضلوا الريف الانجليزى المشهور بجماله كما قرأت فى أحد الكتب انه :

« يكفى أن تضع سورا حول أى مساحة من الأرض كى تصبح حديقة » !

كانت الشمس ساطعة يوم الأحد Sunday أى يوم الشمس كما يسميه الانجليز بالفعل نجد دائما يوم الأحد يوما مشمسا ! وقد كنا نتعجب من هذه الظاهرة التى تذكرنا بالمثل العربى « اسما على مسمى » !

عطلة الأسبوع هى يوما السبت والأحد من كل أسبوع كباقى دول الغرب .

يوم الأحد تسمع فى الصباح أجراس الكنائس بانتظام ... وعند الظهر ترى الانجليز والانجليزيات جميعا بالمايوهات فقط تاركين أجسادهم لأشعة الشمس التى طالما حرموا منها خلال شتاء طويل .

قررت مع خالد أن نقوم بنزهة فى حوارى لندن التى اكتشفناها بجوار حى البيكاديللى .

وميدان الترافلجر .. وشارع ريجنت ... وحى سوهو ...

وباحدى الحدائق المنتشرة فى كل حى بل فى كل شارع أحيانا ... وبالقرب من ميدان ترافلجر تعرفنا على آن مارى شقراء ، متوسطة الطول ، وردية الخدين ولكنها أميل الى النحافة منها الى السمنة !

أما اليزابيث فكانت طويلة القامة ، مستديرة الوجه الذى تتوسطه عينان زرقاوان اذا رأيتها فى أى مكان فى العالم دون سابق معرفة فلن تخطىء فى أن تقول انها انجليزية ، فهى تمثل الشكل الانجليزى المعروف .. كان واضحا أنهما تكبراننا على الأقل بعشر سنوات ورغم ذلك دعوناهما على مشروب بأحد البارات القريبة !

لم تكن هى المرة الأولى التى نلتقى فيها بشقراوات لندن باستثناء نزيلات الفندق الذى نعمل فيه ولكن أيضـا كانت المرة الأولى التى نرتاد فيها هذه الاماكن كزبائن ٠

جلسنا في مواجهتهن وكان البار شبه خال الا من بعض الزبائن الذين يحتسون الويسكي وبعض المشروبات الروحية الأخرى ، وكان أمام كل منهم زجاجة فرغ نصفها ٠٠٠ وكان البار من الداخل شبه مظلم الا من بعض الشمعات التى انتهى عمرها الافتراضى !

طلبنا من الجرســون كوكاكولا بالثلج ٠٠ فانفجــرت الفتاتان في ضحك طويل عــلى غير عادة الانجليز ، ورثيتا لحالنا ، فقد أدركتا منذ الوهلة الأولى أننا لسنا غرباء فحسب وانما أيضا بلهاء ! ولم يشفع لنا عندهما أن كأس الكوكاكولا كان مليئا بالثلج !

لم نفهم شيئا وقتها ، فلم نعر هذه الملاحظة أدنى اهتمام، واجتهد كل منا فى البحث عن حصيلته من اللغة الانجليزية التى تحسنت كثيرا ٠٠ سـألناهما ان كانا يعــرفان مصر ؟ وغرقت اليزابيث فى الضحك مرة ثانية ، وقالت هل هناك فى العالم كله من لا يعرف مصر ؟

الفراعنة ٠٠٠ الأهرام ٠٠٠ وادى الملوك ٠٠٠ الأقصر وأسوان ٠٠٠ وبدأت تتحدث عن مصر والفراعنه وآثارنـا القديمة وأمجادنا، وما هم كانوا عليه من تقدم فى كافة العلوم والفنون والطب ، والهندسة ، والفلك والمعمار و ٠٠٠ وظلت اليزابيث تتحـدث عن مصر وكأننـا لا نعرفها وفجأة تشجع خالد وسألها مارأيك فى عبد الناصر ؟

وما أن ذكر كلمة عبد الناصر حتى انتفضت آن مارى التى كانت صامتة طوال الوقت وكأن عقربا لدغتها ، وبدأت تتهم عبد الناصر بأنه رجل فقد السيطرة على لسانه وعقله انه مجنون بمساندته للقتله والارهابيين الفلسطينيين ٠٠٠

ثم أضافت أن العرب ماهم الا قوم من البربر يمتازون بالجهل والتخلف !!

كانت صدمة لنا ، فهى المرة الأولى التى نلقى اناسا ليسوا من جنسنا ، ونسمع بآذاننا هـذه الانتقادات الصارخـة ، والأحكام القاسية على أنماط حياتنا كمصريين أو كعرب ••• وعلى قادتنا وحكامنا •••

فشلنا فى اقناع الشقراوتين بأن عبد الناصر لم يكن أبدا مجنـونا أو متهورا كما ادعتـا ، وأن الفلسطينيين ليسـوا ارهابيين أو قتلة كما ذكرتا بل هم شـعب طرد من أرضـه ومنازله وهم ضحية للصهاينة واليهود ، ونحن العرب لسـنا بمتخلفين أو جهله ••• ولم تتقبلا محاولاتنا وحججنا ودفاعنا بانجليزيتنا ولهجتنا اللتين تفوقتا علينا فيها !

فقد حاولنـا بكل الدفوع التى نعرفهـا افهامهما أن عبد الناصر هو الزعيم الروحى للعرب حتى بعد مماته ، وأن كل معلوماتهما من وسائل الاعلام التى يسيطر عليها اليهود، وتقع تحت تأثير الدعاية الصهيونية ••• وهى تحاول دائما أن تنقل صورة مشوهة وغير حقيقية عن العرب ، وأكدنا لهما اننا لم نحارب ولم يدخل جيشنا معركـة الأيام الستة كمـا يسمونها ••• وأخيرا فالعالم العربى هو وحدة واحدة من المحيط الى الخليج ! ولا بد أن تفهما هذه الحقيقة !!

دفعنا ثمن المشروبات والكوكاكولا والثلج أيضا ونحن نادمين ، وخرجنا على أن نلتقى مرة أخرى •• متظاهرين أن لدينا موعدا هاما ولا بد من الاستئذان •• وقبل أن نغادر كتبنا لهما عنوان مسكننا ودعوناهمـا على كوب من الشاى المصرى الشهير يوم السبت القادم !

فى الطريق الى ايرلزكورت حيث نقطن كنا فى غايـة الضيق والأسى بعد أن سقطت كل الحجج التى التمسناها •• وفجأة صرخ خالد « نكدوا علينا الله ينكد عليهم » ؟!

وقلت في نفسي قلة ذوق ... تستضيفهم وينتقدوننا بوقاحة أمام أعيننا !

في أعماقي كنت سعيدا بهذه المواجهة رغم ما فيها من قسوة وتجن في بعض الأحيان ... وتذكرت أن جيلنا في حاجة ماسة الى مثل هذه المواجهات الصريحة والمباشرة والتي لم نتعود عليها لنقف منها على أبعاد ذاتنا ونرسم واقعنا بأنفسنا ، بعيدا عن مرض التهويل الذى بات سمة من سمات الشخصية المصرية والعربية عامة !

كان خالد صامتا معظم الوقت ... وكما توقعت لم تمر مقابلتنا بهاتين الفتاتين من الكرام كغيرها من المقابلات وانما تركت أثرها واضحا في نفوسنا ، فبمجرد عودتنا الى الحجرة بدأ نقاش حاد وبصوت عال لدرجة أن أحد المصريين وكان يسكن بالحجرة المجاورة مع بعض زملائه قد دخل علينا دون استئذان معتقدا أننا في خناقة !

وما أن دعوناه على كوب شاى وشرحنا له ما حدث حتى قال باستخفاف :

عندهم حق ، وأنا متفق تماما مع كل كلمة !

واذا بخالد وكان معروفا بين الطلبة بميوله الثورية .. يطبق على رقبة زائرنا ليقول له انت خائن .

وبعد أن أبعدتهما عن بعضهما وللتخفيف وتهدئة الجو قلت ربما أن مارى هذه يهودية فهى تملك أنفا معقوفا يشبه الى حد كبير تمثال رجل يهودى معلق في أحد الميادين !

ـ وتدخل زميل آخر في الحديث مضيفا : انني ألعن الانجليز في كل مرة أستمع فيها الى الشيف المغربى والذى يعمل طباخا في مطعمنا وهو يتحدث الفرنسية بطلاقة مع المدير الجزائرى !

ـ واشتم خالد من هذا التعليق نوعا من تمجيد الدول الأخرى على حساب مصر ـ فقال بانفعال شديد لا يجب أن ننسى أننا شعب يملك حضارة ترقى الى سبعة آلاف سنة ٠٠ كنا يوما نملك الطب والهندسة ونعرف أصول فن العمارة والرياضيات باعتراف اليزابيث٠٠ الأرقام التى يستخدمونها اليوم نحن مكتشفوها ٠٠٠ وكانوا هم عراة حفاة ، متخلفين لا يعصمهم من شررو الفقر غير الأوبئة التى كانت تحصد منهم يوميا بالمئات ٠٠٠

وسكت خالد لحظة ليلتقط أنفاسه ، ثم عاد يقول فى لهجة تقريرية حازمة :

اننا نملك الأهرام التى مازالت لغزا محيرا لعلمائهم وشعوبهم بكل ما يملكون من معدات وعقول الكترونية !

كنت أنظر الى خالد منصتا الى كل كلمة ـ ولا أدرى لماذا قفزت الى ذهنى صورة والده ، وهو من الشخصيات المرموقة والمعروفة فى مصر هو « المخرج العظيم صلاح آبو سيف » ٠

ـ امتقع وجه خالد وكأن سحابة من الحزن العميق قد كست تقاطيع وجهه الأسمر ، ثم اتجه نحونا وسأل فى هدوء لماذا هزمنا فى ٦٧ ؟

وكان السؤال كقطعة من الحجر ألقيت على رؤوسنا ، فاختلفت ردودنا جميعا ٠

ـ فمنا من ضحك ساخرا ٠٠٠ ومنا من تبرم من السؤال معتبرا اياه نوعا من السفسطة التى لا مبرر لها ٠٠ ومنا من صمت كالأبله ، بعد أن أعيته محاولة الاجابة ٠

ـ قرأ خالد فى وجوهنا هذا الصمت فمزقه بصوته الحاد وهو يقول :

ضحكوا علينا ٠٠ خدعونا ببيانات مضللة ، وانتصارات

زائفة ··· كان لازم يتعدموا فى ميدان التحرير ! يبدو أن « البنتين كانتا على حق فى بعض مما قالتاه » ؟!

ظل خالد يسأل ويسأل حتى اصفر وجهه ، وبدا عليه الاعياء فجلس واجما على المقعد الوحيد ونحن نجلس القرفصاء على أرض الحجرة ··· فامتدت يدى لتدير شريط كاسيت لعبد الحليم حافظ ، ففاضت قلوبنا بلوعة الفراق مع الأغنية ، واكتسحتنا موجة عارمة من المشاعر لم نستطع منها فكاكا فقررنا أن نكتب خطابات الى الأهل والأصدقاء ·

وبعد لحظات شرد تفكيرى ، وتذكرت أسئلة خالد التى انهال بها على رؤوسنا ، واستعدت ما سبق أن أكده حول مصر ، والمصريين والأهرام ، وأننا أذكى شعب على وجه الأرض !!

ـ ابتسمت لنفسى وكأنى أطمئنها على خالد الذى بدا متناقضا ·· فهو يدافع مرة ، ويهاجم مرات ·· وها هو عندما سألته ثانية : لماذا لم يعلمنا الانجليز لغتهم أثناء الاحتلال ؟

قال محتدا وقد عادت اليه غيرته : لقد ذكرت لك ألف مرة أن الشعب المصرى شعب خاص جدا ، ويختلف عن كل شعوب الأرض ·· فهو يمتص كل الأجناس ··· يؤثر ولا يتأثر ·· ثم أضاف ضاحكا :

الانجليز خرجوا من مصر بيتكلموا عربى !!

كنا قد قررنا ألا نلتقى بالفتاتين مرة ثانية ، ولكن خالد أصر على أن نستقبلهما كمحاولة أخرى لاقناعهما بوجهة نظرنا ··· حاولت افهام خالد أن نتحدث فى موضوعات أخرى « بعيدا عن السياسة » (بعد استئذان الاستاذ / موسى صبرى فهذا عنوان مقاله الأسبوعى الذى نتابعه فى مجلة آخر ساعة » ، ولكن خالد أصر رغم محاولتى

افهامه أنه ربما أنهما يهوديتان وأفصحت له عن ملحوظتى بأن أنفهما معقوف ، وهذه علامة واضحة تميز اليهود ۰۰۰ ولكن دون جدوى ۰۰ كنا يوم السبت والميعاد فى السادسة مساء ۰۰۰ وبجوارنا يقع سوق صغير يقام مرتين أسبوعيا اشترينا منه شايا وأكوابا جديدة ، وقطعا من الجاتوه والشيكولاتة والبسكويت لاستقبال اليزابيث وآن مارى ۰۰۰ وفى طريق العودة الى المنزل فكرنا فى الاتصال بالحاج / فتحى وكان ساعيا بالسفارة المصرية بلندن لابلاغ السفارة بأننا تقابلنا مع احدى اليهوديات التى تسب العرب وجمال عبد الناصر ۰۰ وتكره الفلسطينيين ! فربما تقبض عليهما وتحقق معهما !!.

وفى النهاية ضحكنا من هذه السذاجة ۰۰۰ والسخافة معا ۰

وبدأنا فى الاعداد لاستقبالهما بالجاتوهات۰۰ وأكواب الشاى الجديدة !

وانتظرنا على مضض والساعة تتجاوز السابعة فالثامنة ۰۰ وحتى التاسعة وكانت الشمس قد اختفت فنحن الآن على أبواب فصل الخريف ۰۰۰ وبدأنا نضحك ونحن نتذكر ما قاله لنا زميل كان قد سبقنا فى السفر الى أوروبا من أن المصرى بوجهه الأسمر أو البرونزى ، والمميز بشاربه الدوجلاس ! تستقبله شقراوات أوروبا بالأحضان بمجرد وصوله الى أرض المطار ، وبدأت أتندر على خالد بوجهه الأسمر وشاربه القصير ۰۰ وفجأة دخل علينا « عبد الله » زميلنا مدرس الانجليزية ۰۰ والذى تركنا وقت أن كنا نسكن الخيام ۰۰ كانت مفاجأة لنا أن نراه ثانية ۰۰۰ وبدأ يشرح لنا كيف أنه عن طريق صديق مصرى يسكن معنا فى نفس المبنى وصل الينا ۰۰ وبعد عناق طويل جلسنا على الأرض تاركين له المقعد الوحيد ۰۰ سألناه عن صديقه المصرى المقيم فى لندن منذ فترة والذى يقيم معه ؟ سألنام

عن عمله ؟ وكم أصبح رصيده من الاسترليني ؟ وهل مازال مصرا بعد أربعة أشهر فى لندن أن الاسم الصحيح للحقيبة اليد هو « الباج هاند » ؟ أم « الهاندباج » ؟

ـ وأمام السؤال الأخير بدا جادا وقال فى لهجة حاسمة :

لا تنسوا أننى الوحيد بينكم الذى تعلم اللغة الانجليزية بكلية الآداب ، كما أننى كنت أعمل قبل مجىء مدرسا خصوصيا للغة الانجليزية ، وقد تخرج من تحت يدى عشرات من الطلبة المتفوقين فى قريتنا ، منهم ثلاثة فى العام الماضى حصلوا على الدرجات النهائية فى الثانوية العامة !!

كان اصراره على الخطأ وهو يعيش فى عاصمة الانجليز هو نوع من الفهلوة المصرية التى تحاول دائما أن تعمل من « الفسيخ شربات » والعلم والمعرفة بكل شىء وفى كل شىء ·

ـ ربما فهم ما يدور بداخلنا فانعطف بنا الى الحديث عن الأربعين جنيها التى يتقاضاها أسبوعيا بالعملة الصعبة طبعا ·· بالاضافة الى البقشيش الذى تنتفخ بها جيوبه كل مساء ·

ـ وبدأ عبد الله يحدثنا عن مشروعاته ، وطموحاته ، أو قل بدأ يفكر أمامنا بصوت مسموع قائلا : لقد قررت أن أبقى هنا حتى العام القادم كى أتمكن من جمع ألف جنيه استرلينى وعند عودتى الى مصر أستطيع أن أسدد ثمن التذكرة الذى دفعته لى أختى دون علم زوجها ·· وأن أدفع مقدم شقة بالقاهرة لأننى لا أرغب فى الاقامة بقريتنا فهى كغيرها من القرى المجاورة لا تحظى بأى اهتمام أو رعاية من قبل الحكومة ··· لا كهرباء ولا تليفونات ، ولا وسائل للمواصلات ، والطريق ترابى متعرج ، وأقرب مدرسة اعدادية ــ ثانوية تبعد ساعتين سيرا على الأقدام ، انه يتذكر عندما كان تلميذا بهذه المدرسة ومازال الحال كما هو عليه حتى اليوم ··· أما القاهرة فهى بالنسبة له مدينة الأحلام!

ـ بها مطاعم الفول والطعمية والكباب والكفتة ...
والكازينوهات على النيل بكورنيشه العريض فالحياة فيها تموج بالحركة والرعاية والاهتمام من وسائل الاعلام كلها فالمسئولون جميعا دون استثناء حتى نائب الدائرة يسكن القاهرة بالاضافة الى أن الدروس الخصوصية أجرها مرتفع ، ، وكيف يمكنه شهريا أن يحقق من ذلك دخلا يفوق خمس مرات وربما عشرة مرتبه من التربية والتعليم ، فالاجور مضاعفة لما يدفعه أبناء قرية كفر بطا والقرى المجاورة لها ، وبعيدا عن أبناء العائلة الذين يحصلون على الدروس مجانا !

ـ كنا ننصت اليه مندهشين وهو يتحدث عن زميله المصرى المقيم هنا منذ عامين ، وكيف استطاع أن يشترى شقة بالقاهرة ... ودفع عشرة آلاف جنيها مصريا « كاش » فى حى المهندسين بالجيزة ... أما عن الاقامة الدائمة فى لندن فهناك وسيلة اكتشفها المصريون ومن بعدهم باقى الأجانب وهى « الزواج الأبيض » .

وبدأ عبد الله يحاول افهامنا ماذا يعنى بذلك وباختصار كما قال انه يمكن لأى أجنبى حتى لو كان مصريا أن يدفع مبلغا من الجنيهات الاسترلينية فى حدود خمسمائة أو ألف جنيه لاحدى الفتيات الانجليزيات أو حتى غير الانجليزيات اللاتى يحملن الجنسية أو حتى حق الاقامة الدائمة وتقبل الفتاة الزواج بدفع الخمسمائة أو الألف ، فقط على الأوراق بمعنى انها تؤدى خدمة للأجنبى كى يحصل على حق الاقامة الدائمة فى انجلترا ويمكنه بعد ذلك الحصول على الجنسية ، ولكن ليس له أى حقوق أخرى على الفتاة فهى لا تسكن ولا تقيم معه وليس هناك أى صلة أخرى ، ولابد أن يوقع لها بالطلاق على أوراق رسمية أمام نفس المكتب المختص حتى تستطيع أن تتزوج من آخر فيتضاعف دخلها ... وأضاف عبد الله أنه يجب الحذر والحيطة لأن البوليس الانجليزى بدأ يسمع بمثل هذه الحكايات ... وعلى كل حال فصديقه

هذا قد حصل على الاقامة الدائمة بهذه الطريقة ٠٠ وقد وعده بعنوان احدى المكاتب التى أصبحت شبه متخصصة فى المجال ، ولكن عليه الانتظار حتى تتم كافة اجراءات الطلاق !

ـ طبعا كنا ننصت باندهاش ولم تشأ غريزة الفضول أن تتركنا نقاطع عبد الله لنسأله أو نستفسر منه عن أشياء كثيرة لم نفهمها من هذا الحديث ٠٠ واستطرد عبد الله فى حكايته هذه وهو يقسم باليمين واليسار انها حقيقة وأنه رأى بنفسه تصريح الاقامة الدائمة فى انجلترا ٠٠٠ وأن هنـاك عددا لا بأس به من المصريين قد حصل عليها بنفس الطريقة ولكن بأثمان متفاوته !

وفجأة التقطت آذاننا صوت اذاعة لندن «القسم العربى» طبعا وهى تذيع نبأ تصلبت من هوله عروقنا ، وتوقفت لـه أنفاسنا ، كان كالصدمة الكهربائية التى أصـابتنا بالاغماء فأصبحنا كالمخدرين : « فى تمام الساعة الثانية ظهر اليـوم ضربت الطائرات المصرية القواعد والمحطات الاسرائيلية فى سيناء ، وعبر الجيش المصرى قناة السويس وارتفعت الأعلام المصرية فى الضفة الشرقية انحبست الأصوات فى صدورنا ، ونظرنا الى بعضنـا البعض فى ذهول غير مصدقـين اذاعـة لندن ٠٠٠ رفعنا صوت المذياع فأكد لنا المذيع (أن القوات الجويـة المصريـة وجهت ضرباتها الجويـة ، خلف خطوط اسرائيل وأكـد عبور الجيش المصرى ٠٠٠) اعتقـدنا فى بادىء الأمر انهـا نكتـة حاولت بهـا الموساد « المخـابرات الاسرائيلية »من خلال أبواقها الاعلامية ، أن تسخر من العرب وتنكأ الجراح ؟ ولكن تأكيد المذياع بصوت عال دفعنا الى أن نرتمى فى أحضان بعضنا ونبكى، ومنا من يصرخ٠٠ وجدتنى أضرب بقدمي الأرض من فرط النشوة وأطرق أبواب جيرانى المصريين لأخبرهم بما سمعنا عن عبور الجيش ورفع أعلامنا فوق أرض سيناء ٠٠

واقترح عبد الله أن نتوجه عـلى الفور حيث يسكن مع

زميله وبلدياته المقيم في لندن فهو يملك جهاز تليفزيون ٢٣ بوصة! كالجهاز الذي كان موجودا باحدى مقاهي المدينة المجاورة لقريتنا وكنا نشاهد على شاشته ماتشات الأهلي والزمالك أيام رفعت الفناجيلي وعبده نصحي وحمادة امام!

– بعد دقائق مرت كالدهر وجدنا أنفسنا في شقة صغيرة مكونة من حجرتين يتوسط احداها جهاز التليفزيون وحوله عدد كبير من المصريين ، وقد ظهرت صورة قناة السويس والأعلام المصرية ، ترفرف ... وجنود مصر يصرخون بصوت عال « الله أكبر » .. تحشرجت الأنفاس ، والدموع تتساقط ، وترتعش الأكف وهي تقبض على بعضنا البعض .. ساد صمت من نوع عجيب .. وبدا الخوف .. الحزن .. القلق .. الفرحة .. ترقبا لمزيد من الأخبار.. لم أعهد في قلبي مثل هذه القوة التي كان عليها في تلك اللحظة ، كنت أسمع دقاته في أطراف قدمي ، وكنت أسمع دقات قلوب زملائي وكأنها صدى لقلبي !

– وفجأة صرخ أحد الحاضرين « الله أكبر » فالتفتنا نحوه لنجده وكأنه أصيب بلوثة عقلية ثم ارتمى على الأرض وأغمي عليه .

– هرولنا جميعا نحو جسده الممدود يحمل أحدنا كوبا من الماء ، فيما أخذ زميل آخر يصرخ فيه اصحى يا مصطفى .. مصطفى ..

– كان أحد الحاضرين يبكي وهو ينظر مرة الى جسد مصطفى ، ومرة الى شاشة التليفزيون يطلب منها المزيد من التفاصيل .

– بعد دقائق عشر أفاق مصطفى ليقص علينا مأساته التي عاشها وقت أن كان ضابطا احتياطيا بسلاح المشاة في حرب ٦٧ .

وعلى كوب من السكر بالليمــون أفاق مصــطفى وبدأ يضحك بصوت عال أفاقنا معه ليقول : هــذا هــو الجنــدى المصرى ٠

الجيش المصرى لم يهزم فى حرب ٦٧ فهو لم يحــارب أصلا ، ولم يدخل معركة انتهت قبل أن تبدأ ٠٠٠ صــورة النابالم الذى كان يتساقط على رؤوسنا فى سيناء كالمطــر لم تبرح خيالى ٠٠ تركونا فى سيناء تحت سماء عارية الا من القاذفات الاسرائيلية التى كانت تحرق زملاءنا كالذباب٠٠ واكتملت المأساة بقرار الانسحاب دون أدنى تنظيم ٠٠ فكان الجيش بطبيعة الحال ضحية ظلم فادح ٠٠ وطبعا الكل منا يعرف باقى « الحدوتة » ٠

وعلى الفور التقط خالد حبل الحديث وقال بانفعال :

مازلت أكرر دعوتى باعــــدام كل الذين تســببوا فى هزيمتنا ٠٠ وأمام الشعب ٠٠ وفى ميدان التحرير، تساهل الشعب وطيبته التى تصل الى حد السذاجة فى كثير من الأحيان قد جنت عليه فقال آخر وكأنه يؤكد كلام خالد :

للأسف شعب مسكين تجمعه صفارة ، وتفرقه عصا !٠٠ فهذه الهزيمة التى لحقت بنــا فى ٦٧ ســـوف تظل آثارها عشرات السنين ، لو قدر لها أن تصيب شعبا آخــر لما تردد أبناؤه فى اعدام مسببيها فى ميدان عام ٠٠ ولكننا للأسف ومنذ عهد الفراعنة نسجد للحاكم ٠٠ وأى حاكم !

كان هناك نقاشا آخر قد نسج خيوطه بين زميلين فى طرف الحجرة التى كنا نجلس فيها حول مصطفى ، أصغينا باهتمام خصوصا أن أحدهما بدا وكأنه عليم ببواطن الأمور فها هو يقول : لا أعتقد أن أمريكا ستسمح للعرب أن يهزموا اسرائيل يوما ما ٠٠٠ وفى تصورى أن أمريكا سوف تتدخل فورا بعد هذا العبور لحماية ولايتها الواحدة بعد الخمسين وطبعا بعد قرار أنور الســادات بطــرد الخبراء الروس من

مصر فلا ينتظر أن تؤيدنا موسكو ، فهذا القرار كان صدمة ارتجت لها عقولهم ، لقد ذكر لى أحد أقاربى وهو ضابط بالجيش أنه رآهم يبكون وكأن السادات قد طردهم من الجنة !

ـ وجذب طرف الحديث زميل آخر وقال باستنكار :

القضية لم تكن مجرد وجود خبراء سوفييت فى مصر ، ولكن الأخطر من ذلك أنهم كانوا يعتبرون أن مواقعهم قواعد سوفيتية محرمة أو ممنوع دخولها للمصريين حتى من قادة القوات المسلحة ـ هل سمعتم حكاية رفضهم دخول محمد فوزى وزير الحربية احدى هذه القواعد وكان بصحبة عثمان أحمد عثمان ... وشهق أحدنا وقد بدا أنه لم يسمع بهذه الحادثة وقال متحسرا :

معقول ... وزير الحربية المصرى يمنع من دخول قاعدة حربية على أرض مصر ولابد له من استئذان موسكو ؟

وقال خالد : أيا كان الأمر فلا يجب أن ننسى أن الروس هم الوحيدون فى العالم الذين وقفو بجانبنا وساعدونا بالسلاح ، وهذا العبور الذى تم اليوم بفضل الأسلحة والمعدات السوفيتية ، واذا كان لابد من المقارنة ، والاختيار فلننظر فيما فعلته أمريكا .. أليست هى التى تمد اسرائيل من الابرة حتى الصاروخ كما نعلم ؟ وارتفع صوته قليلا ليقول فى ضيق وتبرم :

لولا الانذار الروسى فى ٥٦ لوقعت بور سعيد تحت الاحتلال الاسرائيلى .. ولولا النابالم الامريكى لما احترقت أجساد جنودنا فوق رمال سيناء فى ٦٧ .. ولولا ..

ـ وقبل أن يستطرد زميلنا فى « لولا » الذى بدا أنها أعجبته ، قاطعه زميل آخر وقال : يكفى أن نعرف أن أمريكا هى التى قتلت عبد الناصر ، وكانت فرصتها حرب ٦٧ للانتقام منه .. وكان مجرد ذكر عبد الناصر كفيلا باحتدام

نار حامية من المناقشات ، اشترك فيها جميع الحاضرين ، وكعادتنا فى مثل هذه المواقف انزلقنا الى المقارنات بين القديم والجديد •• وبين السادات وعبد الناصر فى مناقشات لا يجمعها سوى شىء واحد هو الحب أقصى الحب من جانب ، والكراهية الى أبعد الحدود من جانب آخر •• ودائما المجنى عليها هى « الموضوعية » المسكينة •

بدأت هذه اللوحة الصاخبة بتعليق زميل يقول :

أخطأ عبد الناصر عندما أرهقنا في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل وهي حرب اليمن ، وكان أجدر به أن يلتفت فقط الى اسرائيل بأطماعها التوسعية •

فقال آخر : كان لابد أن يرفع شعبنا كلمة « لا » لحرب اليمن على الأقل من خلال مجلس الأمة •

وهنا قال زميل ثالث ساخرا : العجيب أن البعض يصدق أنه لدينا مجلس أمة حقيقى ، وكأنه نسى أن هذا المجلس يعمل اذا قدر له أن يعمل بنصف كفاءته ف ٥٠٪ من أعضائه يحملون أختامهم فى ثنايا عمائمهم •• وأنا هنا لا أقصد الانتقاص من قدرهم ولكن فقط أريد أن أقول أن مكانهم الطبيعى والحقيقى هو المصنع والحقل والمنتج النشيط المبدع منهم يمنح نيشانا كل فى مجاله •••

أما النصف الثانى فكان يخاف بطش عبد الناصر ، فزوار الفجر ، وزبانية السجن الحربى كانت دائما على أهبة الاستعداد ••• هل نسينا مخابرات صلاح نصر ، وصحراء مدينة « نصر » أيضا والتى ابتلعت المعارضين أحياء !!

ـ بدا زميلنا المتحدث وكأنه يتصبب عرقا ، فبلع ريقه وقال فى صوت هادىء بعض الشىء : بالطبع لا أريد أن أتهم عبد الناصر وحده ، ولكن أرفض أى محاولة لتبرئته من هذه الجرائم بدعوى أن ثمة من كان يحجب عنه الحقائق !

وجاء صوت خالد صارخا هذه المرة فقال :

في كل الأحوال لا يجب أن تنسى أن عبد الناصر كان صاحب الفضل الأول في تعليمك مجانا .. ففي بداية الثورة كانت تبني مدرسة ابتدائية كل ثلاثة أيام ... من الذى وحد العرب ـ السد العالى ... تأميم القناة ... الثورة نفسها كانت تفشل بدون عبدالناصر... عبدالناصر كان زمزا لمصر ... وللعرب جميعا ... كان أكثر من انسان وأقل من ملاك لم يكسر طموحاته غير أمريكا ... عبد الناصر مات فى ٦٧ ودفن فى ٧٠ !!

وتدخل زميل آخر وألقى بطوبة أخرى فى مستنقع المشاعر الآسن فى داخلنا وقال :

« أنور السادات كان زميلا لعبد الناصر فى الثورة .. ورئيسا لمجلس الأمة ، فضلا عن أنه يكرر فى كل خطاباته أنه كان شريكا فى المسئولية مع عبد الناصر فهو اذن مسئول أيضا عن كل الأخطاء لماذا لا يطالب أحد بمحاكمته ؟ لماذا نحاكم الأشخاص بعد موتهم فقط ؟ ولا يجرؤ أحد على مهاجمتهم أو حتى نقدهم وهم أحياء فى الحكم ؟!

وجاء صوت زميل آخر وكان حتى هذه اللحظة يسمع فى صمت ولم يشترك فى الحوار ليقول :

« القضية ليست قضية مقارنة بين عبدالناصر والسادات فلكل من الرجلين ظروفه ومبرراته ولكل منهما ايجابياته ، وعقيدتي أن النظرة الصحيحة تقتضى منا أن نستفيد من السلبيات ... وعلينا أن ننطلق من أوضاعنا الراهنة .. فحرب ٦٧ كانت هزيمة وليست نكسة كما حاول البعض تصويرها لنا باللعب بالألفاظ فى وسائل الاعلام .. وبهذه الهزيمة بدأت الأمراض السرطانية تنخر فى عظام هيكلنا الاقتصادى ، وبدأت هجرة العقول من كل القطاعات ، أفواج الهجرة التى لا يعرفها شعبنا الذى اشتهر بأنه ابن الأرض والوادى .. »

وتلقف زميل آخر منوال الحديث ليقول :

هـل تعتقدون أنها صدفة أن تخسر شركات القطـاع العام ، وأن نسمع كل يوم عن حريق شب في مصنع وآخر في مؤسسة وثالث في شركة من شركات القطاع قبل موعد الجرد السنوى فقط ! لم نعد نسمع الا عن السرقات التى تعقبهـا الحرائق حتى بات في وسعنا التنبؤ بها مسبقا .

ـ إن هناك أزمة ثقـة واضـحة اليـوم بين الشـعب ومسئوليه .. يجب أن نجد حلا !

ـ وخيم الصمت الثقيل على جو الحجرة التى امتـلأت بدخان السجائر ـ مزقه صوت زميل ليقول : عن أى ثقـة تتحدثون ؟

هـل تذكرون صـوت المـذيع أحمـد سـعيد وأسراب الطائرات الاسرائيلية التى كانت تقـع كالذباب بقـذائف قواتنا وهو يعلن البيانات العسكرية في ٦٧ وأن سـلاحنا الجوى قد أسقط خمسين طائرة وبعدها بدقائق ستين طائرة فسبعين فمائة !!!

وضحك زميل بسخرية ومرارة وقال :

أحمد سـعيد لم يكذب فالأرقام كانت صـحيحة ولـكن الطائرات كانت من عندنا !

وقال ثالث بصوت ملىء بالثقة والحماس :

ان ليلتنا لا تشبه البارحة فالثقة يجب أن تكون متوافرة ، فتلفزيون لندن الذى يذيع الأنباء وعلى شاشته رأينا بأنفسنا الاعلام المصرية ترفرف على سيناء سمعنا بآذاننا «الله أكبر» من الجنـود المصريين وهـم يعبرون القنـاة وخط بارليف بشجاعة وجرأة لا يعرفها غيرهم ... وأثبتوا خطأ القـادة الاسرائيليين في حساباتهم التى كانت تقرر عملية العبـور على أنها انتحار الجيش المصري !

ظل الحديث على هذه الوتيرة كسفينة تتقاذفها الأمواج حتى قاربت الساعة الرابعة صباحا ومازالت العيون يقظة والقلوب متلهفة ، فانصرفنا على أمل العودة غدا لنلتف حول جهاز التليفزيون الـ «٢٣» بوصة !

وفى الطريق الى المنزل همس خالد فى أذنى وقال :

معقول أنور السادات ياخد قرار زى ده ؟ فاكر مظاهراتنا فى الجامعة من سنتين لو كان ما سمعناه اليوم من عبور للجيش صحيحا فهذا الرجل داهية وليس كما تصورنا بادىء الأمر !

هل تعتقد أننا سنخوض المعركة حتى النهاية . وندخل القدس ؟

ولكن أين ستذهب اسرائيل ؟

وقبل أن أجيبه مطمئنا قاطعنى ليقول ضاحكا .

عارف ، هتقولى فى البحر

فى أول يوم للعمل بعد ٦ أكتوبر التقينا بزملائنا وكان الجميع مبتسما ، وعلامات الفرح والبهجة ترتسم على الوجوه عدا عزة التى بدا أنها لم تسمع اذاعة أو تليفزيونا خلال عطلة الأسبوع ... كنا نتنافس فى اذاعة أخبار العبور خصوصا الى الأخوة العرب نزلاء فندقنا وكان الجميع مثل عزة يبدو أن وقتهم لم يسمح لهم بسماع مذياع !

وبين القلق والفرح والنشوة قضينا ساعات العمل الصباحية ثم التقينا على مائدة الغذاء ، وبدأت تراودنى فكرة العودة الى مصر ، ولكننى كتمتها فى صدرى ، خصوصا أن المائدة كانت تجمع برفقتنا شابين ايطاليين كانا من المعجبين بالزميلتين حمدية ، وسهام .. وكان الحديث عن العبور والانتصار وتعاطف معنا كثيرا كل من رفائيل وتونى ربما كمربون لاعجابهم بجمال حمدية ورقة سهام !

وبدعوة على فنجان من الشاى فى شقة عزة توجهنا فى المساء ، وكانت تسكن فى شقة من حجرتين وحمام عرفنا فيما بعد أنها كانت شقة أختها كريمان المقيمة فى لنـدن ، والتى تزوجت من أحد المغاربة المقيمين فى لندن وهو يملك مطعما صغيرا فى حى ايرلزكورت الذى تسكنه .

وتطرق بنا الحديث الى الحرب والعبور ، وما ينبغى على العرب عمله ، خصوصا أن محدثتنا هذه المرة كانت «سامية» الجزائرية صديقة عزة وهى طالبة فى جامعـة السربـون بفرنسا لدراسة العلوم السلوكية ... وفى زيارة لأختهـا المقيمة هنا فى لندن وهذا أمر طبيعى جـدا عنـد العائلات المغربية والجزائرية والتونسـية ، أو ما يسـمى بمنطقـة شمال أفريقيا كما يسميها الأوربيون ... فالفتاة عنـدهم تسـتطيع الهجرة وحدها وبمفردها وبعيـدا عن الأهـل ، وتستطيع أن تفعل بالطبع ما تشاء !! أخبرتنا سامية بأنهم تأثروا بالمستعمرين فى فترات الاحتلال الفرنسى ، فالمرأة فى تونس تجلس بجوار الرجل على المقاهى المنتشرة فى كل مكان .. ولكنها أضافت ان الفتيات لا يهاجرن من شـمال أفريقيا بحثا عن الحرية فقط .. ولكن الظروف الاقتصادية الصعبة جدا ـ بالاضـافة الى العـدد الـكبير لأفراد الأسرة الواحدة هى الدوافع الحقيقية لهجرة الفتيات بحثا عن حياة أفضل !

وفجأة دخل شاب تتقدمه كرشـه يحمـل حقيبة ضخمة كمؤخرته .. تصورنا أنه قادم لتوه من القاهرة فسألناه عن أخبار الحرب والعبور وسيناء .. وسرعان ما شعرنا بخيبة الأمل اذ عرفنا أن منيرا هذا ليس الا ابن خالة عزة يعيش فى لندن منذ فترة .. ولكنـه يتردد عليهـا من حين لآخـر للاستحمام دون مقابل !

فالدوش فى الأماكن العامة لا يعمل الا بالقطع المعدنية فئة ٢٠ بنسا .

قلت فى نفسى عمار يا مصر ··· الميه عندنا زى الهوى مجانا !

بعد منتصف الليل وبعد أن شكرنا عزة وسامية على الأمسية ، وفى الطريق ، قفزت فكرة العودة الى مصر ثانية فى رأسى عندما تذكرت أن المياه هنا تباع بعملة صعبة !

وما أن بحت بهذه الفكرة الى رفاقى حتى اكتشفت أن الفكرة ذاتها كانت تراودهم وبسرعةأخذنا نحصد ما جنيناه بعد التذكرة والهدايا ـ وتكلفة الرحلة للعام القادم !

ومع اشراقة يوم الأحد التالى توجهنا الى سوق اليهود ـ وهو عبارة عن سوق رخيصة يرتادها معظم المصريين من متوسطى الحال لشراء بعض الهدايا ، وعدنا نجر حقيبتى سفر سامسونيت بحجم كبير يزيد على حجم التليفزيون الـ٢٣ بوصة !!

وكعادة كل المصريين اتجهنا الى شارع اكسفورد وهو أكبر شارع تجارى يزدحم بالعرب فى العاصمة البريطانية حيث تقع على جانبيه محلات « ماركس أند سبنسر » أو ما يسمى « بالسان مايكل » ومحلات س آند ايه المشهورة جدا فى مصر والعالم العربى حيث تجد فى كل هذه المحلات الأذواق والألوان والمقاسات الكبيرة والتى تناسب أجسامنا المترهلة أو الغير رشيقة ! وحيث الأسعار الرخيصة أيضا ··
المهم أن شارع أكسفورد يشبه كثيرا أى شارع فى وسط القاهرة فى ازدحامه واللغة العربية هى لغته الرسمية فكل المارة والزبائن من غير المصريين تجدهم عربا من الخليج ·· اللافتات مكتوبة بالعربية تشير الى « الكيس » أو ماكينة دفع الحساب !

وبعد أن نفذت النقود التى حملناها وأصبحنا لا نقدر على حمل ما اشتريناه بخمسين جنيها استرلينيا من الأصوات الانجليزية والكشمير ·· وكرافتات وقمصان السان مايكل!

ثم آلة تصوير أو كاميرا كما نطلق عليها .. كنا فى غاية السعادة والفرح بما نحمله من هدايا نوزعها على الاصدقاء والأقارب ..

كان لابد قبل أن نغادر لندن ، أن نقوم بجولة فى أسواقها الشهيرة ، بدأناها بزيارة « بوند استريت » ، وهو شارع الأزياء الحديثة وقد اشتهر بذلك منذ ما يقرب من ١٥٠ عاما . ويضم حوالى ٢٠٠ محل تجارى فيها كل شىء ابتداء من الصناعات الزجاجية الصينية الدقيقة الى الملابس والأحذية الرائعة الأنيقة ثم عرجنا الى شارع اكسفورد ، الذى يضم مجموعة ضخمة من متاجر الموضة للملابس ، والأحذية ، وأشهرها جميعا محلات « سلفردجز » .

ـ أما ريجنت استريت ، فيضم مجموعة من أكبر المتاجر الفاخرة تجد بينها متاجر « ليبرتى » الراقية المشهورة بمنسوجاتها الجميلة . وعالم لعب الاطفال المدهشة . ومتاجر « هافليز » ومتاجر الفضة والمجوهرات وأهمها محلات غارارد جواهرجى الملكة الخاص .

ومررنا مرة أخيرة بشارع بيكاديللى الذى نحمل له كل الذكريات ، ويضم مجموعة من أشهر المتاجر مثل « فورتنام اند ماسون » ومتجر « سيميسوف » الذى يعرض تشكيلة ممتازة من ملابس النساء والرجال .

وقد لفت نظرنا جميعا بمكتبته الشهيرة « مكتبة هاتشاردز » أقدم مكتبات لندن .

ـ لعلنا لم نحرص فى شىء ، قدر حرصنا على زيارة قصر الملكة والتمتع برؤية أحد الطقوس الملكية التى يقال انها تتكرر بنفس الصورة ، منذ ما يقرب من سبعة قرون !

اقتربنا من القصر الضخم ، المعروف «بقصر باكنجهام». فأبصرنا البيرق الانجليزى ، يخفق فوق القصر ، .ففهمنا أن هذا الخفقان « هو دليل على أن الملكة موجودة الآن بالقصر ،

أخذنا نترقب وقت تغيير حرس القصر ، وقد احتشد معنـا مئات السياح ..

ـ الحق أن هذا الطقس الملكي الشهير ، يتم يوميـا فى شبه احتفال ، حيث تقف صفوف عدة من الجنود بستراتهم الحمراء ، وقبعات من الفراء الأسود .

الفرقة التي أنهت خدمتها تنتظر بصمت الفرقة الأخرى تأتى فى ايقاع مرصوص تتقدمها الموسيقى معلنة عن عظمة الامبراطورية التى غابت عنها الشمس ، ولم يبق لها سـوى الفوكلاند ، ومضيق جبل طارق . .

ـ وهذه الفرقة لا يمكن أن تتأخر أو تتقدم على العاشرة والثلاثين دقيقة من صباح كل يوم . وتبقى الموسيقى تضرب حتى خروج الفرقة المنتهية من خدمتها . حيث تأخذ بالعزف الشديد بعد ذلك .

أخبرنا أحد البريطانيين ، أنه اذا كان تبـديل الحرس الملكي من أقدم التقاليد العسـكرية فى العـالم ، وأكثرها هيبة ، فان « طقس المفاتيح » هو الأقدم ، ويعود الى سبعة قرون ، على الأقل . وهو طقس يتم كل يوم فى تمام الساعة التاسعة و ٥٣ دقيقة بالتمام والكمال !

حيث يتم اقفال البوابات : وهذا الطقس يبدأ فى «البرج الدامى » وهو جزء من « برج لندن » وتعود بدايته الى الايام التى كانت تغص أقبية البرج بالمساجين السياسيين والمفسدين الذين كانوا يرمون فى « التايمز » ويذكر أن فى هذا البرج تحفظ أيضا مجوهرات التاج الملكى !

فى الموعد المحدد ، بدأ « طقس المفاتيح » حيث حمـل رئيس الحرس من « البرج الدامى » رزمة من المفاتيح حيث وقف تنتظره فرقة مواكبة المفاتيح ـ وهى مؤلفة من معاون وأربعة جنود ، أحدهم يحمل مشعلا ، وتتم الجـولة عـلى البوابات المذكورة لاقفالها واحدة تلو الاخـرى ، وفي كل

مرة تتم العملية باحتفال عسكرى حيث يقدم الجنود المواكبون سلاحهم للمفاتيح ٠

ومن ثم يعودون لايداع المفاتيح فى البرج الدامى ٠

وفى الطريق ، لفت نظرنا ، أن فرقة عسكرية أخـذت تصرخ :

ـ قف ! من هناك ؟

فيجيب الحرس :

ـ المفاتيح ٠

فتسأله الفرقة ثانية :

ـ مفاتيح من ؟

فيجيب الحرس :

ـ مفاتيح الملكة اليزابيث ٠

فتقول الفرقة :

ـ تمر مفاتيح الملكة اليزابيث ٠ كل شىء على مايرام ٠

وبعدها مرت فرقة المفاتيح ، تحت قنطرة حيث تجد فى مواجهتها فرقة من حرس البرج التى تقدم بدورها السلاح للمفاتيح ٠

ـ وعجبنا كثيرا ، عندما تقدم رئيس الحرس ، وخلع قبعته وصرخ : ليحم الله الملكة اليزابيث ٠

فيحيه الحرس جميعا فى صوت واحد :

آمين ٠٠٠ آمين ٠

الغريب أن هذا الطقس الملكى لم يعـدل سـوى مرة واحدة منذ سبعة قرون ، يوم أن توفيت الملكة فيكتوريا فى تمام الساعة السابعة مساء يوم ٢٢ فبراير عام ١٩٠١ ولم

يكن عرف بعد بأى أسم سيتوج الملك الجديد ، فتم الاتفاق بأن يقول الحرس : « مفـاتيح الملك » وليحم الله الملك من دون ذكر الاسم ..

لم نعجب لشيء فى حياتنا ، قدر اعجابنا بهذه الطقوس الملكية الراسخة فى ضمير الشعب البريطانى ، الذى اشتهر من دون شعوب الأرض بأنه مرتبط بالملكية ، وأنه يشـفق على نفسه من التجديد أو التغيير .. ومن ثم فالكلاسـيكية هى دستور حياته ..

والحق ، اننى لا أخفى عدم احترامى لهـذا الشعب ، الذى يقال عنه أنه فى قمة الشعوب الديمقراطية فى العالم، وفى المقابل يشعر بأن الملكة اليزابيث ، وكل آسرتها ، من جنس آخر ، يفوق جنسه ..

ولعلنا مازلنا نذكر أن أخبار الأسرة الملكية هى من بين أهم ما تتلقفه الصحافة الانجليزية والعالمية .

كنت أقول فى نفسى :

عجيب أمر هؤلاء الانجليز ، يتشدقون بالديمقراطية ، وهم يعبدون الملكة ، وأبناءها .. ويدعون لها ليل نهار أن يحميهـا الله ويكادون يقفون طـوال اليـوم انتظارا لرؤية الطقوس الملكية .. وكأن أفرادها ، اناس هبطوا عليهم من السماء ..

حجزنا للعودة الى القاهرة تذكرنا أننا لم نستخدم آلة التصوير التى دفعنا فيها خمسة عشر جنيها استرلينيا وكانت أوكازيونا خاصا فى هذا اليوم ... توجهنا على الفور الى ميدان ترافلجر الشهير بالحمام الأليف حيث تجد الفتيات من كل أنحاء العالم يلتقطن فيها صورا لأنفسـهن مع الحمـام الذى تعود أن يرى الانسان ويقترب منه ويطعمه بيـديه ، فتجد الحمام يقف على كتفك أو زراعك دون خوف أو تردد .

كان الجو خريفا والشـمس سـاطعة والميـدان يكتظ

بالفتيات وهن شبه عاريات فانتهزنا الفرصة واستأذن كل منا فتاة شقراء ليلتقط له الآخر صورة بجوارها ، بعد أن وضع يده على كتفها أو خصرها دون استئذان •

وبعد أن التقط كل منا أكثر من صورة للآخر وفى الطريق الى المنزل بدأنا ننسج خيوطا للقصص الوهمية التى سنحكيها لأقراننا وزملائنا فى القاهرة والأرياف ومغامراتنا مع فتيات أوروبا وكل منا أصبح يملك الدليل المادى بالألوان ليثبت أنه فالنتينو جديد ! ولماذا لا ؟ فكل الذين سبقونا فى السفر الى أوروبا كانوا كذابين !!

وحل موعد الرحيل ••• ربطنا الأحزمة ونحن نتحسر على ما دفعناه من وزن زائد عن العشرين كجم المسموح بها لكل مسافر ••• وتذكرت نصيحة عمي بالسفر على شركة مصر للطيران حيث تستطيع أن تحمل عشرون كجم وزنا زائدا عن المقرر دون أن تدفع مليما واحدا ••

لم نستطع أن نربط خيالنا ••• فبعد خمس ساعات سوف نصل الى مصرنا •• فى أحضان الأهل والأصدقاء بعد الغربة والشوق والحنين •• وألقينا من شباك الطائرة بنظرة أخيرة على مدينة الضباب لتوديعها ••• ومع الجرائد المصرية، وصورنا الملونة مع شقراوات لندن مرت الساعات بسرعة ••• وهنا تذكرت كتابات الدكتور يوسف ادريس عن العودة ومشاكل العودة •

فكل عودة الى مصر لها دائما سحرها الخاص ! فالمضيفة فى الميكروفون الأخنف تقول : بعد دقائق نصل الى القاهرة ، وتنظر من النافذة أسفلك فتجد أنوارا وتحاول التخمين •• هذه طنطا ، هذه بنها ، القادمة هى القاهرة لابد ، ولكن القادمة لا تكون القاهرة ، ان استعجالك للحظة الوصول يكاد يسقطك فى طوخ أو فى قليوب ولكنها القاهرة هذه المرة ، هذه المساحة الواسعة المضاءة لا تكون فى مصر كلها ـ الا للقاهرة ، ما أحلاك يا قاهرة !

ما أجملك من الجو فقط ! أنا عائدون يا قاهرة ، فيك كل ما يغرى بالبعاد ، ولكن ماهو أروع من القرب والبعد والمتعة والسعادة ، فيك الحياة ٠

اننى لا أعرف ماذا فينا نحن المصريين يجذبنا بشدة وبقوة وباستماتة الى هذه البقعة من سطح الكرة الأرضية ، وكأنما قد دفن لنا فيها « عمل » أو كأنها تشدنا «بتعويذة» ٠

في قلب لندن فى ريجنت أو بيكاديللى أو حتى ترافلجر ٠٠، « الفتارين » والحركة الهائلة المائجة ، والمتعة ٠٠٠ وسحر الحضارة الأوروبية ٠٠٠ ولكنك فى كل لحظة تذكرها ٠٠٠ انها عزيزة وغالية ، وكلما قابلت أجنبيا زار مصر ووقع فى حبها أكاد أغار عليها من حبه ٠

المهم تلوح القاهرة دائما ويتجدد الشجن ، ولكن السعادة تتدفق بأعظم وأروع تدفق ، والقلب كالموشك على لقاء الحبيبة ، ينبض ، وأقسم أن النبض يسرع ، ألهث ٠٠ بعد ثوان سيلامس العجل أرضك ، وحتى لو انفجر العجل ومتنا سنموت هنا لن نتمزق فى أرض غريبة ، ولن نتجمد على الثلوج ٠٠

أخيرا نهبط فى سلام بعد البرد والمطر ، تلفح وجوهنا نسمة الحب الدافىء ٠٠ الهواء ٠٠ هواءك أرضنا ٠ أرضنا كلنا بلا تمييز ولا تحيز ولا استئثار !! لم نخبر أحدا بميعاد عودتنا ، ومع خالد وهو يجلس بجوارى فى تاكسى للمنزل كنا نحملق فى كل شىء نمر به ٠ المحلات ٠٠ المطاعم ٠٠٠ السيارات وصوت الكالكسات والضجيج الذى نسيناه ٠٠ كنا مندهشين ولا نصدق ما نرى ، فالحياة فى القاهرة لا تنم عن أن حربا ضارية اشتعلت منذ أيام على جبهاتها ٠

ـ لم أستطع مقاومة أفكارا جامحة كادت تقصف بكيانى كله ٠٠٠ اذ تراءى لى أن ما رأيناه فى تليفزيون لندن قبل أيام ليس الا من قبيل المكائد التى ٠٠ تدبرها أجهزة الموساد والتى باتت تسخر من العرب وقدرتهم على الحرب ٠

وانتظمت فى الدراسة كغيرى من الطلبة ، وظلت لندن طيفا جميلا يراودني . وكثيرا ما أستحضره كشريط من الذكريات الحالمة ..

ومرت الأيام بسرعة وأوشك العام الدراسى على الانتهاء وقبل الامتحانات بشهرين بدأت مدرجات الكلية تكتظ بالطلبة والطالبات حيث يبدأ الأساتذة فى شطب أجزاء لا بأس بها من المناهج المقررة !

وما أن فرغنا من امتحاناتنا فى الحقوق حتى هرعنا الى دوسيهات السفر .. وشرعنا مع سبق الاصرار والترصد فى اعداد العدة للسفر ..

كان كل شيء من حولنا هذه المرة يدعونا الى السفر ، فأقيمت في المدينة الجامعية لجنة لتسهيل اجراءات استخراج جوازات السفر للطلبة والشباب .. فضلا عن أن مكاتب السياحة لم تكن تتوانى لحظة واحدة عن الاغراء بالتسهيلات وبدأت تبيع للشباب عقود للعمل فى أوروبا .

★★★

لم نتمكن من الحصول على تأشيرة لدخول لندن مرة ثانية ... فالطوابير من الفجر كانت تحدث ارتباكا فى المرور أمام القنصلية الانجليزية فكل الشباب يرغب فى زيارة لندن !

كان خالد مثلى رغم وساطة والده ... فاخترنا باريس ليس فقط لتنويع خبرتنا ولكن أيضا لأننا تمكننا من شراء عقد عمل لمدة خمسة أسابيع للعمل فى باريس ، وفى الحقيقة كنا فى صحبة « هانىء » الذى جعلنا منه دليلا لنا فى هذه الرحلة ، فهو صاحب تجربة سابقة فى السفر الى باريس حيث قضى فيها بضعة شهور فى العام الماضى ، كما أن له فيها قريبا يدرس الدكتوراه فى العلوم والكيمياء منذ عشر سنوات كنا أكثر حماسا أو تفاءلا برحلتنا الى باريس ربما لأننا

أصبحنا في نظر أنفسنا من ذوى الخبرة في شئون السفر ، فضلا عن أننا لم نستدن مليما واحدا فى تكاليف هذه الرحلة التى دفعناها مما حصلنا عليه من بقشيش فى لندن ٠٠٠

مرة أخرى نختار شركة أجنبية هى اير فرانس ولا أدرى لماذا ؟!

ـ وصلنا مطار شارل ديجول الضخم ٠٠ ونحن نجر حقائبنا خلف زميلنا « هانيء » الذى تركنا له دفة السير ليقودنا الى حيث يسكن قريبه بالمدينة الجامعية الواقعة فى احدى ضواحى باريس الجنوبية فى مدينة انتونى التى تبعد عن باريس حوالى عشرون كم ٠٠٠ وبعد ساعات من الانتظار لم يحضر فيها قريبه ، واقترحت على رفاقى أن نتجه الى فندق « اكسليسيور » بمنطقة سان ميشيل أو ما يعرف باسم الحى اللاتيني كان قد أوصانى به زميل سبق له السفر الى باريس ٠٠٠ اكتشفنا أن معظم نزلائه من المصريين ٠٠٠ قضينا ليلتنا الأولى فى حجرتنا الواسعة التى كنا قد دفعنا لها أجرا يوميا مقداره أربعون فرنكا لنا نحن الأربعة ، أى ما يوازى أربعة جنيهات مصرية حيث كان الفرنك الفرنسي يوازى عشرة قروش فى ذلك الحين ! وبدأنا نتجول فى شارع سان ميشيل الملاصق للفندق فالحوارى الجانبية للتعرف على موقعنا من أقرب محطة للمترو حيث يقع الفندق بين محطة أوديون وسان ميشيل وبدأنا فى قياس المسافة لاختيار الأقرب منهما الى الفندق !

وفى الطريق تعرف علينا « جون » شاب فرنسى متوسط الطول والعرض ، أطلق لحيته وشاربه ٠٠ وكانت براءة وجهه توحى بأن عمره لا يزيد عن خمسة وعشرين ربيعا فرحنا به ، وحاول كل منا أن يجرب نفسه فى التحدث اليه بالفرنسية مرة مستخدما فعل « اليه aller » وآخرى فعل « اتر etre » وتصريفاته ٠٠

ـ وبدأنا نسأله عن فرص العمل فى عاصمة النور

والجمال ··· وعما اذا كان يمكنه مساعدتنا فى الحصــول على فرصة ؟

ـ كان واضحا أنه يعرف جيـدا فنـدق « أكسلسيور » فدعوناه على كوب شاى وبعض من الكعك الذى حملناه معنا الى باريس ··· وعلى باب الفندق كان هناك شــاب مصرى عرفنا منه أنه يقيم فى هذا الفندق منذ عام وكان يتحدث الفرنسية بطريقة لا نفهمها بل تثير الضحك ··· فهـو من الصعيد « الجوانى » ··· « والأكسون » واضحة جدا ·· دعوناه ليتحدث مع جون أو للترجمة الفورية !

وبعد حديث بالفرنسية مع جون كنا نعـد فيه الشــاى والكعك ··· التفت الينا ليخبرنا بلهجتــه وبالعربيــة أن « جون » هذا ماهو الا أحد الشباب الشاذين ! فســخرنا من زميلنا ، واتهمناه بسوء الظن والنية معا ·

وماهى الا لحظات حتى تأكد لنا أنه بالفعل رجل شاذ ! وأنه على استعداد أن يدفع مائة فرنك لكل من يرغب منا !!

كانت مفاجأة لنا وقعت علينا كالصاعقة ، فها هى المرة الأولى التى نرى فيها شابا شاذا وجها لوجه ·· رغم أننـــا جميعا كنا نسمع عن هؤلاء الشباب المخنثين· وبطريقة عفوية وجدنا أنفسنا تنفر منه ·· وتركنا أمره لزميلنا « مختار » الذى يتحدث الفرنسية بالصعيدى ··· بعد أن ودعناه فى أدب لم نستطع أن نخفى مشاعرنا تجاهه كانسان يؤتى أفعالا منافية للدين والأخلاق ·

ظل هاجس « جون » يطاردنا لساعات ، حتى أن زميلنا هانى لم يستطع أن يبرأ منه تماما الا بعد أن توضأ وصلى ، وقرأ شيئا من القرآن حتى وقت متأخـر من الليــل ، وكأنه ينفذ بذلك نصيحة والده أستاذنا فى اللغة العربية والدين بمدرسة بهناى الاعدادية ·

سان ميشيل ومدام تينا :

كنا نهبط كل صباح لنقطع سان ميشيل بشوارعه طولا وعرضا بحثا عن عمل ·· وتركنا هانى ليسكن مع قريبه طالب الدكتوراه فى مدينة انتونى ، ثم ليعمل فى شركة تنظيف ، وكانت هذه الشركة تقوم بعمليات تنظيف المكاتب والشركات والمحلات بعد انتهاء أوقات العمل ·· وكانت هذه الشركات هي الفرصة أو الملاذ الوحيد تقريبا لمعظم شباب مصر فقد كانت تقبل توظيف الشباب بأجر يومى أو أسبوعى دون أن تطلب تصريح العمل أو حتى اذن الاقامة فهى تعلم أن كل هؤلاء الشباب الذين يبحثون عن فرصة عمل قد دخلوا فرنسا بتأشيرة سياحية اى بقصد السياحة وليس لهم حق العمل وبالتالى فهى تدفع لهمأجرا ضعيفا جدا ··· فهى لا تدفع عنهم تأمينات أو معاشات للحكومة ·· ومعروف أن فرنسا من أغلى وربما الأغلى فى العالم فى الكلفة ··· فصاحب العمل هنا يدفع حوالى ٥٥٪ من اجمالى المرتب ··· عبارة عن تأمينات ومعاشات للعامل ·· وبالتالى انتشرت السوق السوداء فى العمل ··· رغم قسوة القوانين فى حالة ضبط المخالفين ·

رغم هذه السوق السوداء للعمل فلم نجد مكانا لنا ، وفشلت كل محاولاتنا فى الحصول على تأشيرة دخول لندن ··· وكان الرد دائما لماذا لم تحصلوا عليها من مصر ؟

فشلنا فى الحصول على تأشيرة بلجيكا للوصول الى هولندا ·· حيث أنه يكفى تأشيرة احداهما لدخول الأخرى أيضا ·

ـ كنا نقضى ساعات طويلة فى شوارع الحى اللاتينى الذى يضم مجموعة كبيرة من الشوارع الضيقة المليئة بالمطاعم بفاتريناتها المحشوة بكافة المأكولات اليونانية والايطالية والعربية ·· ورائحة اللحم المشوى ·· والشاورما التى وعدنا أنفسنا بتذوقها من أول مرتب عمل فى فرنسا ··

ـ وعلى قارعة الطريق بأحد الشوارع الجانبية وجدنا شابا يعزف على آلته الموسيقية أما صديقته فأخذت تغنى ، بينما التف من حولهما عشرات المارة والسيارات يرمون أمامهما بالسنتيمات والفرنكات أيضا !

تحسرنا أننا لا نجيد أى فن بل نكاد نجهله تماما ، وكان بوسعنا اليوم أن نعزف فى هذه الشوارع أو نرسم على الرصيف كما يتكسب البعض أمامنا ٠٠

ـ لا تتعجب كثيرا وأنت تمشى فى شوارع باريس والا فسينظر الناس اليك نظرة مختلفة ٠٠ أنت هنا على أرض باريس الكل حر ٠٠ والكل يفعل ما يشاء بالأسلوب والطريقة التى تعجبه ٠٠ الناس يلبسون كل شىء بدءا من الفراء فى عز الصيف وحتى المايوه !

ـ كنا نمر بمحلات العاديات ـ ومحلات الساندويتشات، ومحلات البورسلين ومحلات الاسطوانات ، ومحلات الجينز ومحلات الفضيات ومحلات الأفلام والتصوير ومحلات الجنس ٠٠ ونحن نسأل عن عمل !

محطات القطارات المليئة بالحياة والنشاط تجد فيها كل ما تريد فى أى وقت تريد ٠٠٠ ترى بائعات الزهور وحتى الشيكولاتة والسجاير أمامك فى ماكينات آلية ٠٠ منها تستطيع أن تسافر الى أى بلد فى أوربا ٠٠ (طبعا بعد حصولك على تأشيرة للدخول اذا كنت أجنبيا) !

فى الناحية الشرقية من الحى اللاتينى مررنا بشارع المدارس الذى تقع به جامعة السربون التى طبقت شهرتها الآفاق ، ليس لأنها الجامعة الأولى فى العلوم القانونية والفلسفية والانسانية فحسب ولكن لأنها الجامعة التى درس بها عميد الأدب العربى فمازلت أذكر حديثه المستفيض فى كتابه «الأيام» عنها وعن شارع المدارس ، وعن الحى اللاتينى ثم ذكرياته مع أساتذتها من المتخصصين فى دراسة فلسفات الشرق وعلومه ٠

كم كنا نتمنى أن نجد عملا فى احدى المطاعم المنتشرة حول جامعة السربون ، وخصوصا فى الشارع الطويل الممتد الى حى السان جيرمان الشهير بمقاهيــه التى تكتظ بروادها فى فصل الصيف لا سيما مقهى الفلور ، وليب ، والدو ماجو .

ـ وذات صباح دلنا أحد المصريين على مقهى قريب تملكه سيدة يونانية تدعى تينا ، تقوم بتشغيل الشباب لدى شركات نقل الموبيليا .. وفى الخامسة صباحا كنا متواجدين ... وكانت هناك مجموعة كبيرة من المصريين وغير المصريين الكل ينتظر أملا أن يقع عليه الاختيار .

كان علينا أن نطلب مشروبا ، ولم يكن غــير فنجــان القهوة فهى أرخص المشروبات جميعا فى المقاهى الباريسية (سعر الفنجان كان في ذلك الوقت ٣ ثلاثة فرنكات أى ثلاثين قرشا .. اليوم يصل الى عشرة فرنكات مضروبة فى حــوالى أربعين قرشا !) .

بعد أقل من ساعة جاء رجل ضخم الجثــة أحمر الوجه وبدأ يختار من يتوسم فيه القوة والقدرة على التحمــل .. كانوا يقولون عنه انه « الشيف » وهــو صــاحب الاختيــار والأمر والنهى .

وكان خالد هو أحد المختارين في ذلك اليوم .. وعدنا نحن ننتظره ، ليحكى لنا فى المساء أن الشــيف قد زج بهم جميعا في عربته النصف نقل وحشرهم كقطيع من الأغنام .. وبعد أن سجلوا أسماءهم فى مقر الشركة ، نقلوهم الى مكان العمل الذ لم يكن غير نقل « عفش » احدى الشــقق المكونة من ستة حجرات والواقعة فى الطابق الثالث الى شقة أخرى تقع بالدور الخامس في عمارة أخرى دون أسانسير ! وحكى لنا عن مشقة هذا العمل ولابد من الحــذر الشــديد حتى لا ينكسر شيء فيخصم ثمنه من مرتبك وربما يزيد مائة مرة عنه ... واستطرد خالد فى حكايته لنا عن هذا اليوم ليقول أنه فى السادسة مساء انتهي العمل وتمالكنا أنفسنا بعــد

شدة الارهاق ، ليزجوا بنا ثانيــة فى العربة ليسلمونا لمدام « تينا » ليتقــاضى كل منا خمســين فرنكا شرط أن تدفع مدام « تينا » عشرة فرنكات ثم ندفع مشروبا آخــر تــوددا لقلب السيدة تينا ••• والا فلن يختارنا الشيف فى اليــوم التالى !

وفى صبيحة اليوم التالى توجه خالد الى السيدة / تينا ليكتشف أنه غير مسموح بالعمــل الا مرة واحــدة أو مرتين أســبوعيا شرط أن تنفق الأربعين فرنكا بعــد الخصــم فى مقهى السيدة » تينا » اليونانية !!

كدنا نشعر بالنحس الذى لازمنا فى منطقة سان ميشيل تلك المنطقة التى اشتهرت بأنها لا تبخــل عــلى طلاب العلم بجامعتها العربية ومكتباتها الضخمة والمنتشرة كالصيدليات عندنا الآن !.

ووجدنا حجرة بالمدينة الجامعية بباريس بالحى الرابع عشر بجنوب العاصمة ••• فبــاريس تنقســم الى عشرين حيا كما تنقسم فرنسا الى خمسة وتسعين محافظة بالاضافة الى أربعــة محــافظات وراء البحــر والتى مازالت فرنســا تستعمرها •••

كم شعرنا براحة نفسية شــديدة عنــدما اكتشفنا أن مديرة البيت « وكان البيت الايطالى » من أصل مصرى تحب المصريين وتتعــاطف معهــم ولا تبخــل عليهم بنصــيحة أو مساعدة ، المدينةالجامعية تتكون من البيتالايطالى ولأمريكى والايرانى والبلجيكى والتونسى والمغــربى واللبنــانى وكل بلاد العالم المعروفة تقريبا عدا مصر وكان ذلك يحزننا كثيرا فثمن البيت لم يكن يزيد عن ثمن طائرة خسرناها فى اليمن مثلا أجمل ما فى الحجرة فى المدينة أن ايجــارها الشــهرى لا يتجاوز مائتى فرنك ــ وكنا نسكن نحن الثلاثة وهى فى الأصل معدة لاقامة طالب واحد •• أما المطبخ والحمام فكان في نهاية « الكلوار » على طريقة المدينة الجامعية بالجيزة في

مصر حيث يشترك فيها جميع الطلبة ، وفى المدينـة انتهت تماما مشكلة الطعام فوجبة الطعام الساخنة بمطعم المدينـة بفرنكين تستطيع بعدها أن تحمل ما شئت من خبز وما تبقى من مشروبات !

ـ كانت المدينة قد تحولت في ذلك الصيف من عام ١٩٧٤ الى المدينة الجامعية بالقاهرة فالمصريين قد حضروا بالآلاف وليس بالمئات وامتلأت المدينة عن آخرها بشباب مصر ... حتى الأماكن الفضاء المجاورة للمدينة امتلأت بالخيام كمأوى لشباب مصر ليكونوا على مقربة من خدمات المدينة من حمامات ومطاعم ... الكل يبحث عن عمل والفرص صعبة جدا بدأ البعض فى بيع تذاكر مطعم المدينة الجامعية فكانوا يشترون الكارنيه بعشرين فرنكا جملة ليبيعوه قطاعى بأربعة وعشرين فرنكا ! « سوق سوداء » !

لا أعرف لماذا كنت أشعر بأننا معشر المصريين نتآلف مع بعضنا البعض فى الأماكن التى نتواجد فيها بسرعة ... هل يعنى ذلك أننا قوم متعصبون لمصريتنا ، أم يعنى ذلك أننـا نبالغ كثيرا فى قيمتنا .. وربما العكس صحيح !

★★★

فى رحلة البحث عن عمل فى عاصمة النـور والجمـال ... كنا نلاقى عربا فى مختلف الأعمار ، لم تكن تخطئهم أعيننا ... فشعورهم شـعثاء .. وطريقتهم الخاصـة فى اللبس .. ناهيك عن أصواتهم العالية التى لا تفهم منها اذا كانوا يتحدثون بالفرنسية أم بالعربيـة ... أما وجوههم فهى برونزية بعض الشيء بتأثير شمس شمال أفريقيا .

كنا نطيـل النظر اليهم فنقرأ عـلى صفحات وجوههم امارات الأسى واللوعة ممزوجة بآلام الغربة والاغتراب ... فتقفز الى أذهاننا على الفور صورة جيلنـا بأكمله الذى قدر له أن يعيش عصرا عجيبـا قـد اختلط حابله بنابله حتى ضاعت كل معالمه ..

كنا نسير فى الشوارع مرة للبحث عن عمل ومرة نرصد فيها حركة الحياة اليومية من حولنا ·· مررنا بمنطقة ليست مثل غيرها من المناطق الباريسية فأغلب المحلات يملكها عرب ، تسمع وأنت بالطريق أغنية لأم كلثوم أو أخرى لعبد الحليم أو عبد الوهاب ثم فريد ··· الشوارع مزدحمة ومعظم الوجوه من العرب اذا تحدثت الى أحدهم لا تسمع جملة مفيدة فهو يبدأ بكلمة أعجمية ثم يتلوها بجملة فرنسية مختتما بكلمة فرنسية معربة وبلهجة بربرية ، أو قبلية ، أو صحراوية واذا أردت أن تفهم شيئا مما يقوله فعليك أن تكون ملما باللغتين الفرنسية والعربية أيضا !

وغالبية العرب المقيمين عموما ينحدرون من أصول جزائرية ففى فرنسا أكثر من مليون جزائرى ، نصفهم على الأقل ولد على الأرض الفرنسية ولا يعرف عن بلده الأصلى شيئا يذكر والكثير منهم لم يرها فى حياته ··· والجزائريون لهم « امتياز » خاصا عن غيرهم من أبناء الجالية العربية ، فلهم حق العمل والاقامة ، وممارسة الأعمال الحرة والتجارة ··

مثلهم مثل الفرنسيين تماما ، دون أية شروط كما هو الحال مع الجاليات الأجنبية عموما ··· أما اذا دخلت مكاتب الهجرة الفرنسية فسوف تجد مكتبا خاصا فى كل دائرة للجزائريين ···

توقفنا أمام محلات تدعى « تاتى » الأسعار رخيصة جدا جدا بالمقارنة للأسعار التى نراها فى الأحياء الأخرى بباريس· الزحام يكاد يخنقك ·· تتشابك الأصوات مع الايدى ··· عرفنا فيما بعد أنها أرخص محلات الملبوسات فى باريس وربما فى أوروبا كلها ولكن بالطبع ما تقدمه من معروضات شعبية جدا ولخدمة الطبقات الفقيرة وما أكثرها هنا ·· والزحام عليها خير شاهد على ذلك ·

باقى شوارع الحى المسمى « باريس روشرو » مكتظة

بأبناء أفريقيا والمغرب العربى تحـــديدا ٠٠ ، بعـــد فترة تستطيع التمييز بين التـــونسيين والمغـــاربة فالجـــزائريين ، والمغاربة يبلغ عدد المقيمين منهم حوالى أربعمائة ألف نسمة، فالتونسيين ثلاثمائة كما أخبرنى أحد المصريين الذى انتهى من دراسة الدكتوراه فى القانون ومازال يســـكن المدينـــة الجامعية ويملك ســـيارة فولكس ، أحيـــانا نرى من خلف زجاجها شوارع وميادين باريس !

قبل أن نعبر اشارة الشارع ، لفتت نظرى فتاة عربيـــة تترنم بأغنية الأطلال لأم كلثوم ٠٠ ضحكت فى نفسى وقلت على طريقة ارشميدس : وجدتها ٠٠ وجدتها !

فالأغانى والفنون ، والسينما المصرية هى وحدها همزة الوصل التى تربطنا كمصريين مع الجزائريين أو المغـــاربة والتونسيين !!

زاد يقينى بهذه الفكرة بعد أن تعرفت على هذه الفتاة ووجدتها تحـــاول التحـــدث معى بالمصرية ، وعنـــدما كنت أضحك من سذاجة المحاولة ٠٠ كانت هى تؤكد أنها تتحدث بالضبط زى بتوع السينما المصرية !

تذكرت ما كان يردد لنا من أن اللغة العربية هى احدى مقومات القومية العربية ٠٠ ولا أدرى لماذا تذكرت الدور الرائد الذى قام به « الأزهر » فى حفظ تراثنا ، ولغتنـــا ، وديننا الى حد كبير !

فى الطريق الى محطة المترو لم تقع عينى على غير العرب والأفارقة بملابسهم الفضفاضـــة ، المزركشـــة أما المحـــلات الصغيرة على الجانبين فهى تبيع المنسوجات ، والســـجاجيد والمنتجات الشرقية ومحلات الجزارة التى علقوا عليها كلمة لحم حلال !

لم تلتقط أذنى لغة فرنسية صحيحة فالزبائن وأصحاب المحلات « يرطنون » بخليط من اللهجات التى تسعفها دائما حركات الأيدى والأكف ٠

تذكرت أن صديقا لى كان يقول انه يلزم الحذر فى هذه المناطق فالفوضى والسرقات والاهمال هى طابع هذه الأحياء ... وعلى بعد لمحت مجموعة من العرب يعملون فى بناء احدى العمارات ... ولم يكن غريبا على أن أعرف أن « أعمال المعمار » والحفر ، وجمع القمامة هى أكثر الأعمال التى تجتذب العرب أو قل انها باتت حكرا عليهم لا ينافسهم فيها سوى بعض البرتغاليين أو الأفارقة ... فالعرب وأقصد أبناء شمال أفريقيا يسكنون غالبا اما فى « باريس » أو « بلفيل » ولا يعملون فى غير الأعمال اليدوية والعضلية أو الجسمانية .. ولا يقربون الأعمال الذهنية أو الفكرية أو الادارية وكما أخبرنى صديقى الدكتور فى القانون أن عمل العرب فى أعمال الحفر والمعمار ليس من قبيل الصدفة التى تأتى بلا ترتيب أو نظام بل هى نظرية استعمارية ، أطلقها فيلسوف فرنسى يدعى « ارنست رثيان » وألح عليها من بعده تلاميذه تقول « ان العقلية العربية لا يمكن لها أن تخوض فى قضايا الفكر ، والفلسفة ، لأنها بحكم تكوينها الطبيعى لا تميل الى هذا النوع من العمل » ..

ــ وبذلك فان اتاحة الفرصة للعرب أن يعملوا بأجسادهم ومنعهم من العمل بعقولهم يكاد يكون أمرا متفقا عليه .. فى المساء ومع موعد مع « آمال » التونسية التى تعرفت عليها وهى تحاول تقليد أم كلثوم فى الأطلال خرجنا للتجول فى شارع الشانزليزيه العريق أحد أشهر الشوارع فى العالم .. ففى الشانزليزيه تجد نفسك أمام مظهر راق من مظاهر المجتمع الباريسى ويلفت نظرك اتساع الشارع الذى يصل عرضه الى مائة متر فى بعض نواحيه .. اذ يمكن لـ ١٥ سيارة أن تمر فيه جنبا الى جنب فى وقت واحد !

ــ يقف على رأسه « قوس النصر » الذى بناه نابليون تخليدا لانتصاراته التى اكتسحت أوروبا شرقا وغربا ، فعاد يرسم على جدرانه ، كما كان يفعل رمسيس الثانى فى

معاركه التى انتصر فيها ··· وحوله مائة علامة آسمنتية بعدد الأيام التى سجن فيها ويطل ، هذا القوس على ١٢ شارعا ، ويحتضن قبر الجندى المجهول ·

وينتهى شارع الشانزليزيه بميدان الكونكورد أهم ميدان بباريس لترتفع فى شموخ المسلة المصرية تذكرنا بقصتها عندما أهداها محمد على للملك فرنسا ومنذ عام١٩٣٦ وهى شامخة فى هذا المكان ···

وعلى طول الشارع تنتشر دور السينما وأشهر بيوت الأزياء العالمية وصالونات السيارات ويتخلل كل ذلك الممرات التجارية ، بفترينتاتها التى تتبارى فى عرض أحدث الموديلات، والبارفانات وآخر ألوان موضة العام القادم ! أما الأسعار فهى لأول وهلة مذهلة لا تصدقها من المغالاة والارتفاع الفاحش ·· فثمن الحذاء يصل أحيانا الى ألف جنيه مصرى اليوم ! والبدلة الرجالى يصل ثمنها لدى بعض الماركات المشهورة الى ألفى جنيه ! ولا داعى للخوض فى هذا الحديث!!

ـ فى منتصف الشارع يطل قصر الاليزيه ، وسط غابة من الاشجار ، وكأنه يذكر المارة من زوار باريس وسياحها بأن معمل « القرارات الفرنسية » منذ ديجول مازال يعمل بنفس الكفاءة ··· من هنا !

بالقرب من جادة « جورج » الخامس وهو من الشوارع الهامة والمعروفة فندق « جورج الخامس » الشهير ··· « وماريوط » ثم قهوة « الفوكيت » أو قهوة العرب الأغنياء كما كنا نسميها وفى المواجهة يقع ملهى « الليدو » الشهير وهو عبارة عن ملهى ليلى ذى سمعة عالمية لما يقدمه من عروض غنية بعشرات من أجمل الفتيات ·· ولابد من حجز المقاعد مقدما ، فهو غالبا محجوز لشهور مقدما ، ويقدم العرض الأول فى الثامنة مساء وحتى الحادية عشر والنصف مصحوبا بعشاء ونصف زجاجة شامبانيا ·· أما العرض الثانى والأخير فيبدأ بعد منتصف الليل ··

قبلت دعوة « آمال » على فنجانا من الشاي في احدى المقاهى المنتشرة على جانبى الشارع والتى اشتهرت بهـا باريس ولا يوجد مثلها في أى مدينة في العالم ••• ومع فنجان الشاى الذى يختلف تماما عن الشاي الذى تعودنا أن نشربه بقريتنا ! ومثل كل رواد القهوة بدأنا نتفرج على المارة حيث يمر في هذا الشارع كل الألوان والجنسيات ، والتناقضات في كل شيء !

أما المارة هنا من العرب فهم مختلفون تماما عن عرب الصباح في حي باريس ، فالعرب هنا في منطقة « جورج سانك » « والشانزليزيه » و « الفوكيت » واضح أنهم ينزلون هذه الأماكن مع بداية الليل حيث يبدأ يومهم لينتهى مع الفجر والصباح وهكذا !

انهم عرب البترو دولار كما يطلقون عليهم ••• مختلفون تماما وفى كل شيء عن العرب الآخرين !!

لا أريد أن أفسد مشاهداتي ، فعقدة المقارنة اللعينة لن تخلف غير الحسرة والندم ليكن ما يكون ، ولكن لا يجب أن أنسى أننى مازلت أبحث عن عمل !

ركبت المترو الفرنسى العجيب وظللت شاردا تارة في قريتنا التى ماتزال نسائمها تداعب روحى وتارة في باريس عاصمة أوروبا في العصر الحديث ، وتارة أخرى في المترو الذى يعتبر شريان الحياة الرئيسى في باريس •

فامتلأت نفسى اعجابا بهذا المرفق الذى بدأ التفكير فيه قبل قرن ونصف من الزمان وبدأ تنفيذه في نهاية القرن الماضى ـ حتى بات رمزا لباريس الى جانب برج ايفيل وقوس النصر ولعل هذه المكانة لا تعود الى أنه أقدم مترو في العالم فقد سبقته دول أوربية أخرى ، ولكن تعود الى أنه أكثر نظافة ودقة ، ونظاما ففى ساعات الذروة يمر المترو كل نصف دقيقة •• ولا تبعد محطة عن أخرى غير مسافة ٥٠٠

متر ٠٠ وشبكته تغطى العاصمة كلها مرورا تحت نهر السين العظيم وحتى أطراف العاصمة ثم ضواحيها وبعض المحطات تزينت جدرانها باللوحات والصور والتماثيل ٠٠ وبتذكرة واحدة تستطيع أن تظل حبيسا طول اليوم لتنتقل بين كل خطوطه ٠٠ أما الغريب والمدهش هو أن مترو باريس يسير بدون سائق ، وحسبه أن يكون سيره مبرمجا فى المحطة الأم داخل حجرة خاصة ٠٠ وعندما سألت عن السائق الذى أجده فى مقدمة العربة الأولى قيل لى :

انه يقف ليرقب سير المترو فقط ويتابعه ولا يتدخل أو يقوم بدور السائق الفعلى الا اذا تأخر قطار عن مواعيده المحددة فى حالات الحوادث مثلا ٠٠ أى أنه موجودللطوارىء !

ذات مساء وعلى وجبة عشاء بمطعم المدينة الجامعية كنا قد تعرفنا على زميل مصرى جديد يدعى هشاما ٠٠ أخبرنا أنه سوف يتجه الى جنوب فرنسا حيث سبقته مجموعة أصدقاء الى هناك ويعملون جميعا فى مزرعة للفواكه وقد اتصل بهم ليخبروه أن فرص العمل متاحة ويستطيع الحضور ٠٠٠ تذكرنا العقود التى دفع كل منا عشرة جنيهات لمكتب السياحة ثمنا لها واتضح أنها مزورة وكتبت عنها جريدة اللوموند وحكاية ألف شاب مصرى بعضهم ينام بالحدائق وكيف تعرضوا لعمليات نصب من جانب بعض شركات السياحة المصرية ٠٠٠ وكنا قد توجهنا الى مبنى السفارة المصرية ، نحمل هذه العقود المزورة ، وبالطبع لم يفتح لنا باب أو شباك رغم تظاهرنا خارج مبنى السفارة ! رغم جهود فاروق حسنى مدير المكتب الثقافى الذى كان يموج بالحركة والنشاط فى ذلك الوقت ٠

تولوز وجمع الفواكه ...

ـ تحمسنا للسفر مع هشام الى جنوب فرنسا ربما لنخرج من دائرة النحس التى لازمتنا طيلة أيامنا فى باريس ... خصوصا أننا حصلنا على تذكرة مخفضة الى تولوز بعد أن أبرزنا « كارت طالب » Student cart الذى حصلنا عليه بصعوبة !

ـ بعد سبعة ساعات وصلنا الى تولوز .. لنجد أننا لابد أن نقطع ثلاثين كم أخرى سيرا على الاقدام كى نصل الى القرية التى يوجد فيها الزملاء .. ومزرعة الفواكه بالطبع.

ـ بطريقة « الاوتوستوب » قطعنا جزءا من المسافة ثم جررنا حقائبنا ... وجدنا خيمة صغيرة وأمامها وحولها ستة من الزملاء ! خطرت ببالى سريعا أيامنا الأولى فى لندن ... وبعد سلامات وتحيات ، ومجاملات مصرية معروفة .. تحدثنا عن العمل لنكتشف أن أصدقاء هشام لا يعملون سوى يومين فى الأسبوع !

ـ وقع علينا الخبر كالصاعقة فاعتصمنا ببقية من شجاعة ، ولم يكن لدينا اختيار آخر فانحشرنا معهم فى الخيمة .. عندما جن الليل وكانت خيمة صغيرة ضيقة لا تتسع لنصف عددنا .. بينما ظلت أقدامنا عارية خارجها تحت صقيع البرد وانهمار المطر !

ـ بعد أسبوع مر ببطء شديد ،وبمعاونة أحد المغاربة الذى يعمل فى فلاحة الأرض ويقيم فى هذه القرية ، منذ خمسة عشر عاما استطاع أن يلحقنا بعمل فى احدى المزارع ·· وما أن اشتدت الأزمة حتى جاء الفرج ·· ذهبنا الى المزرعة والتقينا بصاحبها الذى لم أستطع أن أميزه عن غيره من العمال ـ فهو يرتدى بنطلونا قديما من الجينز ـ وحذاء من البلاستيك الطويل الممتد حتى ساقيه ·· وكوفية تذكرك بكوفية توفيق الحكيم !

كلمات سريعة تبادلناها ـ عرفنا منها مكان النوم والعمل ··· وفى الصباح وتحت الأمطار نزلنا الى المزرعة مع أكثر من عشرين شابا وفتاة من مختلف الجنسيات لا يعرف معظمنا لغة الآخر ، ولا يجمعنا سوى شيء واحد هو جمع الخوخ والبرقوق !

ـ وبعد أقل من ساعتين سقط زميلنا أشرف على الأرض متلويا شاكيا من مغص حاد ··· فنقله صاحب العمل الى المستشفى على الفور ··· وما أن عاد حتى تكررت القصة مع زميلنا ابراهيم ·· الذى أخذ يتلوى أمامنا ، ماسكا بطنه·· فنقله أيضا بجوار أشرف ··· وفى المساء توجهنا مع صاحب العمل لزيارتهما بالمستشفى ليخبرنا الطبيب انهما كانا قد التهما كميات كبيرة من الفواكه دون غسلها !!

ـ استمر العمل ثلاثة أسابيع بعد أن مرت هذه الحوادث بسلام لننتقل الى مزرعة أخرى على الحدود الألمانية السويسية بمدينة « كولمار » لنجمع العنب !!

ـ كان الجو باردا فى هذه المنطقة فهى تقع على قمة جبل ، وكان العمل شاقا . وكنا نعمل بجد واخلاص لا لأن صاحب العمل يخيفنا ولكن لأن صاحب المزرعة يعمل بجوارنا وكأنه أحد العمال !

ـ تعرفنا على المجموعة التى تعمل معنا فكان منهم برتغاليون ، وأسبان ، وايطاليون ، وانجليز ، وبلجيكيون

اكتشفنا أن معظمهم شباب من الطلبة مثلنا وبدأنا نناقشهم في أسلوب حياتهم ، وأنواع دراساتهم ، وسبب رحلتهم الى فرنسا ! وأشهد اننا عرفنا أشياء كثيرة كانت في مجملهـــا رصيدا لحوارات طـويلة ، بدأتهـا مع نفسي حينـا ، ومع أصدقائي وزملائي في أحايين أخرى ٠٠ في المساء جلست مع نفسي ولم أشأ مشـاركة زملائي لهوهم وسـألت نفسي لماذا لا نعمل في مصر كما يعمل الأوربيون في بلادهم ٠

أعترف أن هذا السـؤال لم يكن بريئـا تماما ، فقد تذكرت أن جدي لأمي وهو عمدة القرية لم أره يعمـل في حياتي ، وغيره كثيرون !

ثم عدت أسأل نفسي مؤنبا :

ولماذا لا يعمل الشباب في مصر ، لماذا نظل طوال أشهر الأجازة الصيفية فضلا عن أيام الدراسة ذاتها نلعب الكرة أو الكوتشينة !

لماذا نتفنن في مصر في قتـل الـوقت أو تضـييعه ، واعتباره من ألد أعدائنا مع أنه الوحيد الذي يمكن به أن نحقق المعجزات !

ومازالت التساؤلات تطرح نفسها على ذهني خصوصـا أنني عرفت أن الشـباب في أعمارنا يعمـل في العطلة بل يعتبر هذا أجازة فهو تغيير لعقله وجسده حسب ما ذكرت لي فتاة هولندية هذا الصباح ٠٠٠ وكما قالت فان الشباب أو الفتاة) هنا بعد سن١٨ سنة يصبح مسئولا عن نفسه مسئولية كاملة ، ولابد من أن يتكسب بنفسه مصروفاته حتى الدراسية منها رغم غنى وقدرة والديه ، فهو لا يقبل أن يظل عالة على والديه ويعتبر ذلك اهانة له لا يقبلها !

ظللت غارقا أو حائرا أمام هـذه الخواطر لم ينتشلني منها غير « حسين » زميلنا الذي جاءني متحسرا عندما مد لي

يديه لأرى الفقاقيع التى ظهــرت فى يــده من المقص الذى يقص به عناقيد العنب ! ابتسمت له مطمئنا وتذكرته وقد كان مميزا عن بقية زملائه فى مدرسة الباجور الثانوية لقد كان مميزا بالبلوفرات الكشمير الانجليزية ، والأحذيةاللميع التى يبعث بها له عمه المقيم فى ايطاليا ! نأنأت بفمى عـلى طريقة أهل البلد ، فلمحنى زميلنا « بكرى » وقد أدرك أنى غارق فى هموم ، وكان يعرف أن « عقدة المقارنة » وحدها هى المســئولة وقال مازحا : الى أين وصــــلت فى شريط ذكرياتك ؟

قلت مهموما :

ليست ذكريات ولكنها تأملات يا أبو الأبكار !

قال :

أرجو أن تصل فى تأملاتك الطويلة الى شىء واحد ، وهو أن « أهالينا » ربونا وعلمونا خطأ !

دللونا ما فيه الكفاية ·· دلعونا ·· ويبدو أن معظمنا سيظل طفلا أو عيلا حتى آخر يوم فى حياته ·

كــان بكرى يقول ذلك بمرارة ، وان بدا أنه يمزح ، فهو يفكر بجدية وبعقل ناضــج (رغم أنه أحيانا بينشــف دماغه أو بمعنى آخر لا يحاول فهم أفكار الآخرين) واستطرد يقول :

لماذا يقبل الشباب أن يعمل فى غسيل الصحون ، وكنس الشوارع ، وتنظيف المراحيض فى أوروبا ·· وتعاف نفسه أن يعمل مثلها فى مصر ؟

ـ هل هو الجبن قد ركبه الله فى نفوســنا ··· أم أنها آفة من الاســتكبار التى ســتجنى على كل حياتنا ·· أم أنه الجهل واللاوعى ؟

هل تعتقد أن المســئول عن زرع هذه الأفكار الخاطئة

والمدمرة فى رؤوسنا هو الاستعمار ٠٠ أم رجال الدين الذين ألحو أن نركن الى الدعاء ، وندعو السماء لأنهـا يمكن أن تمطر ذهبا اذا أراد الله ٠٠ وضحك قائلا باستهزاء : ربما يكون رجال الدين أبرياء ٠٠٠ وكذلك الاستعمار ٠٠ وقد يكون المسئول هو عبد الناصر بمفاهيمه الاشتراكية ! وشعار ارفع رأسك يا أخى !

يشترك حسين ليقول :

كل شيء نعرفه فى مصر الا العمـل ٠٠ طـوال عمرى الواحد بعد العشرين لم أرى ، والدى يعمل ٠٠٠ وللحق كنت أتمنى أن أراه يعمل شيء أى شيء لو حدث ورأينا « أهالينا » يعملون كنا سنعرف أن الحياة لا تستقيم بدون عمل أما ونحن نجـد الحياة تسير دون أن يعمل آباؤنا ٠٠٠ فكيف سنحترم العمل ولم اذن نقبل عليه باخلاص ؟!

ــ ودق جرس الحجرة مشيرا الى العاشرة مساء فهممنـا بالانصراف الى الأسرة لننام لنستيقظ مبكرا لبدء العمل ٠

ــ نام الجميع عـدا بكـرى قد ظل يقظا واقترب منى ليقول :

« شوف الناس هنا ينامون مبـكرا أقصـاها السـاعة العاشرة ، ولا يتأخرون فى سهراتهم عدا يوم السبت والأحد أجازة ٠٠٠ أمانحن فى مصر نظل ساهرين حتى بعد منتصف الليل وأحيانا للفجر ٠٠٠ والتليفزيون مفتوح على « الفاضى والبطال والصغار والكبار يتكلمون ويتكلمون أحاديث تافهة وحواديت وحـكايات وروايات لا تكاد تجـد من بينهم من يستمع أو من يصغى ٠٠٠ قاطعت بكرى قائلا تصبح عـلى خير !!

حاول بكرى أن ينام ، لكن يبدو أن المناقشة جعلت ذهنه متوقدا ــ واذا بى أسمعه يقول بصوت خافت :

الى متى سنظل هكذا متخلفين ؟

وقبل أن أجيبه ، تدخل حسين الذى كان ينام على الدور الثانى من نفس السرير وقال :

لو سمحت يا بكرى ••• نحن لسنا متخلفين •• ولكننا دولة نامية ! هناك فارق كبير بين الاثنين •

ضحك بكرى وقال : نحن دائما نلعب بالكلام فالهزيمة أسميناها نكسة ، وبدلا من أن نعترف بأننا دولة متخلفة نصر على أن نسميها دولة نامية والصحيح أننا دولة متخلفة ونامية فى نفس الوقت ! زميلنا جلول التونسى ترجم لنا مقالة فى جريدة الفيجارو عن النظام الادارى عندنا وكان عنوان المقال : « لعنة الفراعنة والنظام الادارى المصرى » وأوضحت أنه من المستحيل أن تنجز عملا فى مصلحة أو هيئة حكومية دون أن تدفع بقشيشا كما يسمونه فى مصر وعليك أن تحمل أكثر من كارت أو تصطحب معك رتبة كبيرة من البوليس أو الجيش •• ، وعلى رجل الأعمال أن يسافر الى بيروت أو قبرص لارسال تلكس أو برقية عاجلة أو حتى اتصالا تليفونيا ••• (كان هذا فى عام ٧٤ ــ ٧٥) •

وتدخلت فى الحديث مقاطعا بعد أن وجدت شهوة المناقشة ما زالت متوقدة ونبهت الى أننا يجب أن ننام كى نصحوا مبكرا للعمل ••• والا سنكون أول المتناقضين مع أنفسهم •• فمنذ لحظات كنا ننتقد حياتنا فى مصر فى السهر الطويل ومرة ثانية تصبحوا على خير !

***

مرت الأيام وانتقلنا الى مزرعة أخرى مجاورة وكانت مساحتها توحى بأننا سنعمل لمدة طويلة وأصبح عددنا بهذه المزرعةالجديدة يصل الى ثلاثين شابا وفتاة كنا سبعة مصريين وجلول التونسى والبشير ومحمد من المغرب وصالح من العراق وتيمور من سوريا والباقون ومعظمهم من الفتيات الانجليزيات ومن هولندا واسبانيا وايطاليا والبرتغال والفرنسى الوحيد باستثناء صاحب المزرعة كان طالب بكلية الطب ويدعى فيليب وكان شابا مهذبا غاية التهذيب وكان

يملك سيارة ذات حصانين كان يدعونا أحيانا كثيرة لنعتليها معه للتنزه والتعرف على المدن القريبة من المزرعة وذات يوم وكنا يوم عطلة رسمية ولا نعمل دعانا لزيارة سويسرا والتى لا تبعد عن المزرعة التى نعمـل فيهـا سـوى ثمانية عشر كيلومترا • فقد كنا نعمل فى مدينة كولمار الفرنسية والتى تقع على حدود سويسرا شرقا وألمانيا شمالا •• وكان فيليب يشترى الشيكولاتة السويسرية كل أسبوع من سويسرا •• طبعا تلفتنا بعضنا لبعض وتذكرنا اننا لا نحمـل تأشـيرة لدخول سويسرا •• ولكننا وبحماس الشباب تساءلنا ولماذا لا نحاول ••• وبالفعل ركبنا أنا وحسين وابراهيم وخالد مع فيليب أما بكرى والبشير ومحمد وصالح وتيمور فقـد فضلوا انتظارنا على احدى المقاهى الصغيرة •• وصلنا الى نقطة الحدود •• أظهر فيليب بطاقته الشخصية وأخرجنـا نحن جوازات سفرنا الخضراء ! •• فحصها رجل الجوازات بعناية وأعادها لنا ثانية مشيرا الى فيليب بالعودة ثانية من حيث أتينا •• فنحن لا نملكُ تأشـيرة للدخـول •• ثم ان جوازات سفرنا قد انتهت صلاحيتها بالأمس ٣١ أكتوبر !

وبعد محاولة كلامية من فيليب لرجل الجوزات لم تسفر الا عن عـودتنا ثانية الى المقهى الذى ينتظرنـا فيه الزملاء آملين أن يتذوقوا طعم الشيكولاتة السويسرية الشهيرة !

ـ طبعا غرقنا جميعا فى ضحك هيستيرى ••• ونحن نردد لهم آننا بفضل هذه المحاولة قد اكتشفنا أننا لا نملك حتى جوازات سفر فصلاحيتها قد انتهت بالأمس :

كانت علامات الأسى واضحة على وجه صديقنا فيليب الذى طمأناه بأن المسـألة بسـيطة وعليه أن يتوجه وحده لاحضار الشيكولاته له ولنا أيضا ••

جلسنا بجوار زملائنا نحتسى الكوكاكولا المثلجة ؟ وطبعا بدأ البعض فى القاء النكات والقفشات والتعليقات •• واذا بجلول التونسى يفتتح حديثا طويلا بقوله :

لماذا نحن شـعوب العرب كتب علينا المذلة والاهـانة

بفرقتنا وعدم اتحادنا ، أنظر الى فيليب فهو يدخل سويسرا أو أى بلد أوربى آخر بالبطاقة الشخصية ·· هل يستطيع أحدنا أن يدخل بلدا عربيا ببطاقته الشخصية ؟ هل هناك أمل في الوحدة العربية ؟ أو سيظل المثل القائل :اتفق العرب على ألا يتفقوا هو الحقيقة ؟!

وتدخل البشير المغربي متسائلا : اننى لاأفهم لماذا نحن مواطنو كل الدول العربية نلتقى ونتفاهم ونتصادق بحق وفي نفس الوقت نجد الحكومات العربية تختلف وتتصارع بين بعضها البعض ؟

ربما أنهم يخشون وحدتنا وبالتالى سوف نطالب بحكومة واحدة من المحيط الى الخليج وبالتالى سيفتقد معظمهم الكراسى والسلطة · !! أنظر الى وقفة العرب فى حرب أكتوبر ·· وكيف أوقعوا الرعب فى أمريكا وأوروبا — وكيف استفادوا من ارتفاع أسعار البترول من أربعة دولارات للبرميل وصل بعد الحرب بعام واحد الى ما يقرب من عشرين دولارا : علهم يستفيدون من هذه الثروة التى هبطت عليهم فجأة وبفضل حرب أكتوبر — وتتحول السودان الى مزرعة تكفى حاجة الدول العربية من الطعام فهناك عشرة مليون فدان قابلة للاستزراع ·· والحمد لله أن فى مصر العقول والأيدى المدربة والخبرة الطويلة فى مجال الزراعة ···

وهنا تدخل أحد الزملاء ليقول : تحلموا وتتركوا لخيالكم العنان ··· لقد قرأت فى احدى الجرائد أن أحد أغنياء البترول كان يطل برأسه من سيارة رولز رويس فى شارع اكسفورد بلندن ويلقى بعشرات ومئات وآلاف الجنيهات الاسترلينية فى الهواء ·· وكان غارقا فى الضحك عندما يرى الانجليز والمارة ينحنون أرضا لجمع أوراقه المالية !

انهم بدأوا يسمونهم هنا بأصحاب البترودولار ··· وأصبحت تسمع أو ترى أو تقرأ كل يوم عن فضيحة لأحد أثرياء الحرب ··· حرب أكتوبر طبعا !

قاطع زميل آخر ليخبرنا بأن هذه القصص لا يمكن أن تحدث فى الواقع ·· وأن المخابرات الاسرائيلية ورجال الاعلام الصهاينة هم الذين يخترعون مثل هذه الحكايات !! فقط ان لى وجهة نظر فى الامكانيات المادية الجديدة للدول العربية والتى تملك البترول ·· اننى مقتنع تماما بنظرية أن من لا يملك طعامه لا يملك حريته ولكنى مؤمن بنظرية ثانية وهى من لا يستطيع الدفاع عن نفسه فهو لا يستحق الحياة لأننا نحيا فى عالم الأقوياء ولا مكان لضعيف·· ولهذا أرى أن الدول العربية يجب عليها أن تبدأ فورا بصناعة السلاح الحمد لله أن مصر قد بدأت فعلا بل وأثبتت أننا يمكننا بالامكانيات العربية أن ننتج ما نحتاجه من كافة أنواع السلاح بل ونصدر الى أفريقيا وباقى دول العالم الثالث ···

وبالطبع اننى متفق تماما مع نظرية أن تصبح السودان مزرعة العالم العربى لتغطى كل احتياجاته ·· وأن تصبح مصر مصنعا لانتاج السلاح ·· وتصدير الفائض يومها سوف يحسب العالم لنا ألف حساب ونستعيد كرامتنا المفقودة ونملك حق الفيتو !

وهنا ثار خالد ليقول أنه لابد من عبد الناصر جديد ·· فهو الوحيد القادر على جمع شمل العرب ·· انهم جميعا كانوا يحسبون له ألف حساب ! ··

★★★

صرخ زميل آخر ليرد على خالد بأنه لكل عصر رجاله ·· وأن حماقة عبد الناصر وهزيمة ٦٧ هى السبب فى كل ما نحن فيه فبفضله تعلمنا مجانا لنجمع الفواكه ونغسل الأطباق ! صحيح أن الدولة قد صرفت على كل منا منذ دخل التعليم الأساسى وحتى حصوله على الليسانس خمسين ألف جنيه·· ولكن لماذا ؟ اننى أتساءل اليوم لماذا علمونا وصرفوا علينا ··· وما هى النتيجة ؟ وهنا تساءل زميل لماذا ولدنا فى دول متخلفة ؟

عودة الى باريس والسوق الدولى

وبعد أن انتهى موسم العنب فى شمال شرق فرنسا ، عدنا الى المدينة الجامعية بباريس لنحصل على حجرة بصعوبة شديدة بعد عودة الطلبة وبدء الدراسة ...

كنا نلتقى فى المساء مع الشاب المصرى الذى انتهى من دراسة الدكتوراه فى القانون ومازال يعيش هنا منذ أن حضر فى عام ٦٧ (هذا الشاب هو د. ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات اليوم) وكان يملك سيارة فولكس استمتعنا بركوبها معه فى اكتشاف باريس وكالعادة معه بدأنا نقاشا حول الجالية العربية فى باريس .. فحدثنا حديثا مستفيضا عن الأزمات النفسية والاجتماعية التى يعيشها العرب المقيمون فى فرنسا ... كان يبدو لنا عالما بأشياء كثيرة كنا نستمع اليها بشغف ولهفة لا سيما أنه كان يسهب فى شرح أبعاد الأزمات النفسية التى يعيشها أبناء المهاجرين أو « الجيل الثانى » الذين يقعون فريسة للضياع وانفصام الشخصية .. فالأب والأم يتحدثان العربية كما يحتفظان بالعادات والتقاليد التى نشأوا عليها فى بلدهم الأصلى .. وهم مضطرون أن يلقنوها الى أبنائهم ...

أما فى المدرسة والشارع فيجد الأبناء أمورا كثيرة مختلفة ... ولابد لهم أن يتأقلموا مع الجو الفرنسى المحيط بهم ... وقد يجد البعض أن أمره مستهجنا بمجرد أن يشذ

على القاعدة أو أن يتمرد عـلى نظام أو سـلوك معين ٠٠٠ وأحيانا لمجرد لونه أو اسـمه يتعرض لبعض المضـايقات من زملائه ٠٠ كما أن امكانيات الآباء المادية ضعيفة لمجـاراة الفرنسيين ٠٠

ـ هذا المأزق الخطير الذى يواجه الأطفال الصغار من أبناء المهاجرين ، لم يكن يوما قد خطر لنا على بال ٠٠٠ أو على الأقل لم نشعر بمخاطرة الا بعد حديث صديقنا الشاب ٠٠٠ الذى كان يبـدو أنه غيـور عـلى مصر وأبنائهـا من المهاجرين في فرنسا رغم أنه يعيش هنا منذ فترة طويلة ٠!

. واستطرد صديقنا فى الحديث عن أهمية التعرف عـلى الظاهرة الحضارية الفرنسية فلا يجب الاكتفاء بالانبهـار السطحى بمظاهر المدينة ، هـذه المظاهر المادية للتقدم أما الحضارة فهى الفكر والفن والثقافة والتاريخ ٠

فهناك استمرارية مؤكدة فى الشغف التاريخى بالثقافة والفنون والآداب لدى الشعب الفرنسى ٠٠ فلم تعد الثقافة هنا ثقافة الصفوة ، كما أصبحت توضع فى خدمتها أحـدث الانجازات التكنولوجية ٠٠٠ وسيظل الفـكر والثقافة عـلى رأس السلم القيمى فى المجتمع الفرنسى سواء كان يحكمـه اليمين الليبرالى أو اليسار الاشـتراكى فباريس عاصـمة تاريخية للفكر والثقافة ومكان للقاء والحـوار الديمقراطى الحر حقيقة ثم انتقل للحـديث عن ظاهـرة العنصرية التى يلحظها البعض ويثيرها كثيرون ليقول : أن جميع الشـعوب الأوروبية وبصفة خاصة الشعوب ذات التاريخ الاستعمارى يكمن فى وجدانها الداخلى جزء من العنصرية من الطبيعى أن يسود بعض القيم الاستعمارية كنـوع من التبرير لعمليـة القهر الاستعمارى نفسه ، فقـد كان من الضرورى اشـاعة الأفكار حول تفوق الرجل الأبيض ٠٠٠ والتخلف الطبيعى للشعوب المستعمرة حتى يتقبـل النـاس فى أوروبـا فكرة الاستعمار !

ـ والحقيقة أن الفرنسيين يتميزون بأنهم يجهرون بالحقائق فيخرج أحيانا الموروث العنصرى الكامن ٠٠٠ وعلى كل حال فالأجانب في فرنسا قد ساهموا فى التقدم والنمو وعملوا بكل طاقاتهم فأسهموا فيما نراه من مظاهر مدنية وتقدم تكنولوجى ٠٠٠ ومع ذلك فنتيجة للتقاليد الانسانية والتفتح الشديد تأخذ القضية العنصرية أحجاما مختلفة ومن الخطأ الشديد أن نقول : ان الشعب الفرنسى شعب عنصرى ، وان كان بعض الأفراد هنا يجهرون بعنصريتهم ٠٠٠ والشيء المميز والمثير للاعجاب أن هناك جدلا بين القوى العنصرية والقوى المعادية لها وهى الأقوى تأثيرا فى النهاية ٠

مرت الأيام هادئة وكنا قد وجدنا عملا في تركيب حمامات السباحة لدى احدى الشركات الألمانية التى تعمل فى الأندية الرياضية بضواحى باريس الجنوبية وكان لنا زملاء وأصدقاء كثيرون من الدارسين المصريين (هم الآن أساتذة فى كليات الحقوق ٠٠٠ والعلوم فى مصر) ٠

كنا نسهر سويا ٠٠٠ ثم كونا فريقا رياضيا لممارسة هواياتنا فى كرة القدم والسباحة فى نوادى المدينة الجامعية ٠٠٠ وذات مساء التقينا صدفة بعبد الله صديقنا مدرس اللغة الانجليزية وصاحب قضية الباج والهاند ٠٠٠ سعدت به وبدأنا نستعيد ذكرياتنا فى لندن ٠٠ وعندما سألته عن حياته فى باريس وهو مدرس الانجليزية أجابنى بطريقته المعهودة : صحيح أننى لم أدرس اللغة الفرنسية الا أننى درستها بالثانوية والجامعة ، كما أننى تتلمذت على أيادى الأستاذ / عبده عبد المهيمن المغربى ٠٠ ضحكت طويلا أنه مازال عنيدا ، ومتعصبا لرأيه ، فضلا عن أنه مازال يذكر اسم أستاذه أصر عبد الله أن نترك أعمالنا فى تركيب الحمامات لنعمل معه « بالسوق الدولى » « بالرنجيس » ٠٠ وهو معدة باريس ومن أكبر أسواق الجملة فى العالم للمواد الغذائية من لحوم وجبن وأسماك وفواكه ٠٠٠ يقع بجوار

مطار أورلى بجنوب باريس على مساحة ألفين فدان تقريبا ..
نجد فى هذا السوق بالاضافة الى النظام والنظافة كل
ما يتصوره عقل بشر من أنواع وأصناف وألوان من خيرات
الله ... على مدار العام ... لا يعرف المواسم .. فكل
شىء موجود على مدار السنة من الخوخ والمشمش فى عز
الشتاء بأحجام وألوان لم نراها من قبل !

كان هذا السوق حتى عام ٧١ يقع فى قلب العاصمة
فى منطقة « الهال » وكان مشهورا جدا « بشوربة البصل »
التى تقدم فى الصباح الباكر .

كان هناك عدد كبير جدا من الشباب المصرى الذى يعمل
فى حمل الصناديق المعبئة بالبضائع .. وأيضا الفارغة
منها ... وكان البعض يعمل فى قسم اللحوم المثلجة وهى
تأتى فى « كاميونات » أى سيارات نقل كبيرة من هولندا
وبلجيكا وألمانيا .. وكان العمل فى غاية الصعوبة
والارهاق فساعات العمل تبدأ فى الواحدة صباحا وحتى
السادسة صباحا داخل ثلاجات درجة الحرارة فيها تقل عن
الصفر بعشرين درجة ! توالت بنا الأيام والشهور ونحن
نعمل فى أصعب الظروف وفى الشتاء وتحت درجات من
البرودة لم نرها من قبل ...

وذات يوم جاءنى ابراهيم لمشورتى فى مشاركته لأحد
المغاربة فى شركة تقوم بأعمال البياض والدهانات .. أما
حسين فقد استأجر مطعما صغيرا للبيتزا وهى الفطائر
الايطالية التى اشتهرت كثيرا فى أوروبا .. أما عبد الله
فكان كفص الملح الذى ذاب بعد أن تعرف على فتاة تونسية
ويعيش معها بمنزلها منذ فترة !! وهذا شىء معروف
ومعترف به من المجتمع الغربى فمعظم الشباب يعيش مع
فتيات وأحيانا كثيرة ينجبون أطفالا تحمل أسماءهم ولهم
كافة الحقوق رغم عدم وجود عقد رسمى أو حتى عرفى
بالزواج !

أما خالد فقد عمل باحدى المجلات العربية التى تصدر فى باريس وفى ذلك الوقت بدأ يظهر فى الأكشاك أكثر من عشرة مجلات عربية يمتلكها لبنانيون فى الأغلب ٠٠ أما أنا فقد شاركت أحد الجزائريين فى محل للفواكه ٠٠

ومع ازدحام الأعمال وتعقدها ٠٠ حيث أننا اكتشفنا جميعا أنه لا يحق لنا ممارسة الأعمال التجارية حيث أن تصريح الاقامة والعمل كان لأجل الدراسة فقط ٠٠٠ فقد كان علينا أن نلتحق باحدى مدارس تعليم اللغة ليس لنتعلم الفرنسية فقد كنا نتحدث مع زملائنا بالمدرسة بالانجليزية !

ولكن من أجل الحصول على تصريح بالاقامة والعمل ٠٠ وتغلبنا بصعوبة على كل هذه العراقيل ٠٠٠ وباتت اللقاءات بيننا عسيرة ، واكتفينا أن يسأل بعضنا على بعض بالتليفونات ٠٠٠ والتليفونات هنا فى كل بيت وفى كل ناصية ٠٠ والاعلانات فى التليفزيون تشجع الناس وتحثهم على أن يتحدثوا أكثر تليفونيا ٠٠ فوزارة المواصلات السلكية واللاسلكية ترى أن الشعب الفرنسى لا يستخدم التليفون كثيرا ! ٠٠٠ واذا تقدمت بطلب للحصول على خط تليفونى فسوف يصلك خلال أربعة وعشرين ساعة خط تليفونى تستطيع أن تتحدث من خلاله الى كل أنحاء الكرة الأرضية ٠٠ وبعد المجهود العظيم والعمل الجاد لسليمان متولى وزير المواصلات تستطيع اليوم أن تتحدث مع أى قرية أو مدينة مصرية بسهولة ويسر ٠٠٠

وهذه فعلا من الايجابيات الهامة والتى يحس بها كل مهاجر أو مقيم أو عابر فقد كان علينا فى بداية السبعينات التوجه الى احدى مكاتب التليفونات الدولية بباريس لننتظر ساعات طويلة للحصول على مكالمة لمصر !

ومرت الأيام وكبرت تجارة كل منا ٠٠٠ وأصبحت أيام المدينة الجامعية ، وحمام السباحة من أنبل الذكريات فى قلوبنا ٠

لم أكن من ذى قبل أومن كثيرا بالصدف ، لكن هذه المرة التى التقيت فيهـا بأسرة مصرية أمريكيـة ••• كانت من الصدف النادرة والتى لعبت دورا هاما فى حياتى •• فذات مساء كنت أسير بشارع سان ميشيل بجوار حديقة لوكسمبرج وأمام النادى الثقـافى المصرى ـ (يوجـد فعـلا مبنى للنادى الثقافى المصرى ولكنه مغلق فى وجه المصريين دائما بعد سفر فاروق حسنى منذ عشر سنوات تقريبا ومنذ شهور فقط ونحن الآن فى نهاية سنة ٧٨ وبعد أن جاء شاب بعقل وفكر جديد مستشارا ثقافيا لمصر فى باريس هـو الزميـل والصديق د• أحمد البرعى ومعـه الفنان يوسف فرنسيس فقد أعادا افتتاح هذا النادى لكل المصريين ليستعيد الهدف من وجوده كمركز اشعاع للثقافة والفن المصرى ••) •

توقفت بجوارى سيـارة فيـات ، سألنى من بداخلهـا بالانجليزية عن الطريق الى احدى الفنادق الكبرى •• وكنت أسكن بجواره بـالحى الرابع عشر •• فدعـانى للركوب معهم •• كان ضخم الجثة ، طويل القامة ، عينـاه خضراوان •• وبجواره سيدة بدا من لهجتها أنها أمريكية •• وفى المقعد الخلفى ولد وفتاة فى عمر واحـد •• وأثنـاء الحديث عرف أنى مصرى فاذا به يحدثنى بالمصرية ليخبرنى أنه د• صلاح جودة طبيب مصرى هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية منذ أكثر من عشرة أعوام •• وفى اليوم التـالى وبدعوة منى على مشروب التقينا لنزور برج ايفل ونصعد حتى الدور الثالث لنرى باريس ومبـانيها ، وقد بدت فى غاية النظام وكأن مهندس التخطيط الذى أقامها كان يرسم شوارعها ومبانيها من سطح هذا البرج الحديدى العظيم •

بعد أشهر ستة وصلتنى رسالة من الدكتور / صلاح بأنه سوف يأتى الى باريس لتسويق بعض الموالح الأمريكية ••• وطلب منى بعد أن عرف أنى أعمل فى ميدان الفـواكه ولى علاقات عديدة وطيبة مع تجـار الجملة فى السـوق الدولى بباريس أن أرتب له بعض اللقاءات مع بعض التجار •••

وكان هذا اللقاء العابر بداية لمشوار طويل من التعاون المثمر حتى اليوم ٠٠ وتم الاتفاق على شحن مركب من فاكهة الجريب فروت ذات اللون الأحمر أسبوعيا ، وأيضا فراولة من فلوريدا وكاليفورنيا لأوروبا فى الشتاء ٠٠٠ وبين الرنجيس ٠٠ وميناء الهافر كانت البضاعة تصل بانتظام ٠٠ وأصبحت معروفا لدى تجار الجملة بأننى تاجر جملة وليس فقط تاجر التجزئة الذى يمتلك محلين بضاحية سارتروفيل التى تبعد ١٠ كم من الناحية الغربية لباريس ٠

ليس المهم ما جنيناه من أموال ولكن الأهم أن الدكتور صلاح بدأ يحكى لى تجربته من البداية وكيف خرج من مصر يحمل حقيبة من الكعك انتاج شقيقته المشهورة جدا بانتاج أجود أصناف الكعك بالاسكندرية ٠٠ وكيف كان ينام بأحد القطارات بايطاليا وفى الصباح يساوم أحد العمال بالمحطة على أن يعطيه كل صباح فنجانا من القهوة الساخنة مقابل كعكة مصرية !

وقصة كفاح طويلة فى رحلة شاقة ٠٠٠ كان دائما فيها صادقا مع نفسه ومع الآخرين ٠٠ جامحا لشهواته وملذاته عندما أصبح فى مقدرته ذلك ٠٠٠ وكنت أستمع دائما الى كل حكاية وكل موقف وكنت أعى جيدا ماذا تعنى وما يجب أن أستفيده وأحتفظ به فى خزانة معلوماتى ٠٠٠ كان رجلا ومازال فى غاية البساطة ، والمنطقية لا يعرف التكليف أو التعقيد أو المظاهر ٠٠ ربما لأنه تعلم كل ذلك من خلال حياته مع الأمريكيين فهم معروفون فى العالم كله بالبساطة والموضوعية وأنهم يعيشون على سجيتهم رغم كل مظاهر الغنى والترف ٠٠ لقد اكتشفت فى أول زيارة لى الى الولايات المتحدة صيف ٧٨ أن هذا الرجل الغير متكلف ٠٠ البسيط يمتلك أكثر من عيادة أو مستشفى خاص بميتشجان ٠٠ وقصرا كبيرا يطل على البحيرة التى تحد كندا ٠٠ أما فى فلوريدا فمزارع الموالح ٠٠٠ والمساحات التى استصلحها

واستزرعها بنفسه تزيد عن ألفي فدان ... لم يذكر أبدا من قبل أنه يمتلك كل هذا ... وعلى غير عاداتنا بالحديث والتكرار وحب التظاهر بالقليل الذى نملكه !

حرصت أن يعمل معى مصريون .. وكنت سعيدا غاية السعادة وهم أيضا بالعمل سويا .. ومرت الأيام واشتريت محلا آخر بنفس المدينة .. أعقبها مطعم ايطالى كان مفلسا ولكن موقعه كان متميزا بشارع سان جيرمان بباريس .. أعقبه مطعم آخر فثالث وازداد عدد المصريين بالاضافة لبعض الفرنسيين والأجانب من أسبان وبرتغاليين ومغاربة وتونسيين ..

واستمر الحال هكذا سنوات نبدأ فى الخامسة حتى ينتهى العمل .. فى بعض الأحيان كنت أعمل أكثر من سبعة عشر ساعة فى اليوم الواحد !

كانت من أقسى وأصعب وأجمل وأحلى الأيام ، كنا نعمل كأسرة واحدة .. بالثقة والاخلاص وكانوا جميعا يمتازون بالأمانة والاخلاص والأيام والشهور والسنين تمر ... وبدأنا خلالها نعرف طريق السفر والاجازات والأعياد ..

وكانت أول رحلة سفر خارج فرنسا بعد القاهرة الى لندن ... وكنت قد حصلت على الجنسية الفرنسية بزواجى من فرنسية ولدت فى تولوز وهى أول مدينة عملت بها فى جمع الفواكه ! صدفة ! وأصبح من حقى تماما أن أدخل دول السوق الأوربية كلها بالبطاقة الشخصية دون الحصول مسبقا على تأشيرة! أو استجواب من رجل الجوازات الانجليزى ! ... أعقبتها بزيارة الى تونس حيث قرر زميل لنا الزواج من فتاة تونسية وكان لزاما على أن أكون بجانبه أمام أسرتها فى بلدها ... وبدأنا نسافر كل صيف الى احدى الدول المجاورة فايطاليا لا تبعد كثيرا بالطائرة لا تزيد عن ساعتين وأحيانا بالسيارة حتى فينسيا لنستخدم القوارب كوسيلة

مواصلات داخل المدينة حيث لا توجد شوارع أو سيارات ٠٠ فالمنازل والمحلات محاطة من كل جانب بالمياه ٠٠ والجندول هو وسيلة التنقل الوحيدة ٠٠ فأسبانيا التى استطاع أهلها بذكاء وجهد أن يجعلوها قبلة السياحة فى أوروبا كلها ٠٠ فالبلاجات نظيفة جدا ٠٠٠ والخدمات ميسرة والفيلات والشقق والبيوت فى لونها الأبيض والأزرق ٠٠ والشمس تضرب فيها بأشعتها فتزداد جمالا ٠٠ والأسعار الرخيصة ٠٠ وابتسامة الناس كل الناس تزيدك اطمئنانا وتشعر وكأنك من أهل البلد ٠٠ وتدعوك للعودة لزيارة هؤلاء الأهل مرة ثانية !

أما تونس والمغرب بحكم موقعهما الجغرافى القريب من أوروبا ٠٠ بالاضافة الى اختلاطهما بالثقافة الفرنسية وبعادات وطباع الأوربيين عموما منذ أيام الاستعمار فقد جعلت أهلها « شطارا » فى جذب السياح شتاء وصيفا ٠٠٠

كنت سعيدا بهذه الرحلات الى أبعد الحدود فها هى ثمار العمل الجاد ٠٠ وها هو الحصاد لأيام وساعات وشهور كنت فيها فى غاية القسوة على نفسى ٠٠ فلم أكن أنام الا اذا أنهيت كل أعمالى أيا كان نوع التعب أو الاجهاد ٠٠٠ كنت أول الحاضرين الى العمل كل صباح كنت لا أصرف مليما واحدا فى غير محله ٠٠٠ لم أعرف البارات أو نوادى الليل ٠٠ كما كان يفعل الكثيرون ٠٠ كان الهدف واضحا والطريق رغم تعرجاته ومطباته ، وترابه ــ رغم الأمطار ٠٠ والسيول ٠٠ والثلوج ٠٠ وأحيانا الصواعق ٠٠ كنت مصرا على قطع الشوط حتى أحقق طموحاتى ٠٠ كنت معجبا بعبارة قرأتها تقول :

ان قيمة الانسان هى فيما يضيفه للحياة
منذ ولادته وحتى مماته

كنت أسعد كثيرا عندما أضيف مصريا جديدا الى الأسرة التى كوناها ... لم أتأخر عن مواعيد العمل مرة واحدة .. أعد بنفسي مرة كل أسبوع تقريبا وجبة مصرية لنأكل سويا .. كان كل منا يعرف واجباته قبل حقوقه ...

لقد تعلمنا من القرية قيمة التضحية .. وانكار الذات .. تعلمنا العزيمة والتصدى والصلابة .. روح الجماعة ... علمونا أن نجد ونسعى دون أن نحمل كراهية لأحد ، فخلت قلوبنا من الحسد أو الحقد على الآخرين ...

لقد نشأت في جو من الترابط الأسرى فى أحلى وأجمل صوره ومعانيه .. بعد وفاة المرحوم والدى وحتى اليوم لم نتقاسم ومازال كل شيء مشتركا وقائما بيننا .. الحمد لله أننا كل فى موقعه .. المحامى .. والفلاح .. ورجل الأعمال .. والمحاسب .. لم يحدث أن اختلفنا مرة واحدة خلافا يتجاوز اختلاف وجهات النظر .. فكنا ومازلنا نتصرف بروح الفريق الواحد الذى يعمل أفراده لبلوغ الهدف ..

انها بالفعل أخلاق القرية ، والعادات التى أورثنا اياها رجال أميون ، لم يتعلموا فى جامعة ولكنهم استوعبوا دينهم الحنيف الذى يحث على الفضيلة ، والعمل والتفانى فيه . أذكر أنه بعد وفاة جدى وكان عمدة للقرية ورثها عن أبيه وجده ، أنهم طلبوا من خالى الذى كان يتعلم فى القاهرة أن يتقدم الى « العمودية » خلفا لوالده ، فما كان من أمي واخواتها الا أن يتنازلوا على الفور عن بعض ميراثهن فى التركة لأخيهن حتى يظل مثل أبيه يعاون المحتاجين والفقراء ، يقدم التبرعات والهبات ، ويحافظ على هيبته أيضا .

كان أخي الأكبر لا يجالس الا شيوخ القرية حيث يشاركهم الرأى والمشورة على الرغم من أن عمره لم يكن يتجاوز الخمسة والعشرين ... وكنت أجلس بدورى معهم، لم أتجاوز السابعة من عمرى أصغى لأمثالهم ، وآرائهم فى

الحياة ، فقد كنت أؤمن وقتئذ على الرغم من حداثة سنى أنهم خبراء الحياة وخريجوا جامعاتها الكبرى ··· انها طفولتى التى تعلمت فيها الكثير فعندما أعود بذاكرتى الى تلك الفترة الحافلة من حياتى ··· أرى أنها قد شكلت شخصيتى وأعطتنى عودا صلبا ، وعنادا هائلا ، ومرونة لا حدود لها ، وتصميما لا يلين ، وكان على بكل هذه العوامل أن أحقق النجاح فى حياتى ، وأن أدرك الهدف الكبير الذى لم يكن بالنسبة لى أكثر من خيال ·· وفى رأيى أن ادراكى لهذا الهدف لم يكن صدفة ، وانما كان خلاصة تفاعلات ومواقف كثيرة ، تشابكت فشكلت كل هذا النسيج المتناسق المتين ·

كانوا فى القرية بالرغم من قسوة الأيام يزرعون فينا الأمل والثقة بالنفس ، يفرشون لنا الأرض بسماد الطموح ··· كان حرصهم شديدا على أن يوفروا لنا الجو المناسب لكى ننموا ، ونترعرع ونكبر ليحققوا حلمهم من خلالنا ، انهم زرعوا ولا ينتظرون حصادا لهم · هل أنسى يوما أنهم علمونا أن الوفاء قيمة كبيرة ، يجب أن نتمسك بها ، ولا نفرط فيها فالانسان فى شريعتهم الأخلاقية لا يكون الا وفيا ، مخلصا ، يحمل الجميل لصانعه ، ويقدر الفضل لصاحبه ·

كبرنا وكبر معنا ايماننا بأنه لا يصح أن يمنع أى منا نفسه من أداء خدمة لانسان ، حتى ولم تجمعه به سابق معرفة ·· ما دام الأمر ممكنا ، لأن أحدا منا لا يعرف ماذا تخبىء له المقادير ، والأيام ، ولكن أعظم قيمة تعلمتها ، هى قيمة المحافظة على الوقت ، وكيف أستفيد منه ، ومن كل شىء فى الطبيعة من حولى ، فضلا عن قيمة أخرى وهى حسن العشرة والاحسان الى كل من يتعامل معى ، ومن رافقنى فى رحلة الحياة ··

بعد أن كبرت أعمالى وتنوعت اختصاصاتها ، وقررت

أن أبيع محلات الفواكه الواقعة بضواحى باريس ، لم أترك واحدا من زملائى الذين رافقونى خمس سنوات فى رحلة الكفاح وكانوا جميعا أخوة لى ونأكل ونعمل سويا ، ونشارك بعضنا البعض فيما تقذف به الأيام من مشاكل وعقبات .. لم أبخل على أحـد منهم بمعلـوماتى وخبراتى واتصـالاتى وعلاقاتى ـ كنت دائما أوضح بالتفصيل كل صغيرة وكبيرة .. كل أسرار الكسب والعمـل ... لم أتركهـم لينتقلوا للعمل لدى صاحب عمل آخر .. شجعتهم عـلى أن يتملكوا مشروعات بفرنسا .. بعد أن قدمت لكل واحد منهم ضمانا بالبنك .. اخترت معهم وشاركتهم ماديا ومعنويا وأصبح لـكل واحـد منهم مشروعه الخاص .. وكم أدعو لهـم من أعماقى بالتوفيق والنجاح ..

لم أحمل اعجابا فى حيـاتى لانسـان ، قدر اعجـابى بشخصية صديقى الدكتـور / صـلاح المصرى ـ الامريكى الذى يقيم فى « ميتشجان » ويطل عـلى البحيرة التى تحـد كندا . فالرجل استصلح وزرع ثلاثة آلاف فدان تنتج اليوم أجود الموالح بفلوريدا وعلى بعد مائتى ميـل من ميـامى ، اكتسبها جميعا من عرقه ، وفكره ، فكان قد قرر منذ خروجه من مصر أن يحقق ذاته ويستغل كل دقيقة فى وقته ليحقق طموحاته .

كانت أوقات اللهو ، والعبث بالنسبة له ، قد انقضت وعليه أن يعمل ويعيش فى مجتمع جديد ، غريب ، لا يؤمن بقيمة فى الحياة غير « قيمة العمل » .

كنت معجبا به ليس لأنه مازال يمارس مهنة الطب حتى اليوم ، ولا يتورع عن مشاركة العمال الذين يعملـون فى مزرعته فى اصلاح الماكينات .. والآلات ولذلك قلما تجده فى مزارعه فى غير ملابس العمل ، يرتدى دائمـا بنطلون الجينز الواسع أو شورتا فوق الركبة ..

كنا فى زيارته منذ فترة قريبة برفقة أحـد المصريين

السياح ! وكم كانت دهشته عندما أبصر الرجل الذى كان يسير معنا ، يناقشنا فى أمور الحياة ، والعمل ، يخلع بعضا من ملابسه ، ويقذف بنفسه الى احدى الترع فى مزرعته ليغلق محبسا كان قد نسيه أحد العمال ٠

ليس من شك فى أنه رجل ذكى ، تخلى عن تعقيدات كثيرة مازلنا نعمل لها ألف حساب فى مصر ، ولم يكلفه هذا الأمر غير عودته ليكون انسانا طبيعيا فهو اذا عاد الى عياداته، فحص مرضاه فى اخلاص وتفان ، واذا اتجه الى مزرعته حمل على كتفه المواسير ، والألواح ، وشارك العمال حياتهم ٠٠٠ وفى طريق العودة الى باريس قال صديقى السائح (وهو شاب فى عمرى يعمل فى وظيفة كبرى فى مصر) ٠٠ لو قدر لى أن أكون فى مكان الدكتور / صلاح ، لما ترددت فى شراء طربوش ، وقفطان ، وجلست هنيئا ، سعيدا بعد أن أضع ساقا على ساق أرقب من بعيد أحداث الحياة التى بالقطع لن تخيفنى ، فقد مللت أشياء كثيرة ، تقينى شرور المجهول٠٠ والمعلوم على السواء٠٠

ضحكت فى نفسى سخرية من تعليق صديقى ، وان لم أفصح عما دار فى رأسى وقتئذ ٠٠ فها هو الدكتور صلاح تجاوز الخمسين بخمس سنوات ، ويكره أن ينام أكثر من خمس ساعات ويقطع نهاره فى عمل وكد متواصل ٠٠ وفى المقابل أسمع من صديقى الشاب الذى لم يتجاوز عمره خمسة وثلاثين عاما ٠٠٠ أن قيمة الحياة ليست الا فى الراحة ، والكسل ٠٠ والطربوش ٠٠ والاكتفاء بمشاهدة أحداث الحياة ! وسرحت بعيدا ، وأنا أتأمل حياتنا فى مصر ، وكل شاب لا يفكر الا أن يحيا حياة « رجل المعاش » وسعادته مرتبطة بمدى اقترابه من هذه الصورة أو ابتعاده عنها٠٠٠ وتذكرت نكتة سمعتها ذات مرة من أحد الأوربيين تقول النكتة :

ان خبيرا أجنبيا حضر الى مصر وهدفه الوصول الى خطة

لتنمية المجتمع ورفع مستوى الحياة • وخلال جولته فى احدى القرى شاهد رجلا يضع سنارة فى الترعة ويجلس فى وخم على الشاطىء ••• فتقدم الخبير من الرجل ، واقترح عليه أن ينشط فى عملية الصيد بشكل يضمن له سمكا أوفر • وتساءل الرجل الكسلان وبعدين ؟

أجاب الخبير وبعدين تشترى بدل السنارة شبكة • فتساءل الصياد وبعدين ؟ أجاب الخبير •• وبعدين قارب صيد •• وعاد الرجل الكسلان يسأل : وبعدين قال الخبير : تشترى قارب ثان ، وثالث ، ورابع ، فسأل الصياد : وبعدين ؟ وبعدين يبقى عندك أسطول صيد• طيب وبعدين؟ وبعدين يبقى عندك شركات لتعليب الأسماك وتصديرها • وبعدين ؟ وبعدين تبقى مليونير وتقعد وترتاح •

ونظر الرجل الصياد الى الخبير الأجنبى نظرته الى مجنون وقال فى هدوء : طيب مانا قاعد مرتاح أهه !!؟

وعلى الفور تذكرت ما قرأته بالأمس فى مواقف أنيس منصور أنه فى بيان رسمى أن المصريين يعملون أقل من نصف ساعة فى اليوم ، أى ما يعادل ثلاثة أيام فى السنة أى حوالى مائة يوم فى العمر كله :

فما معنى العمل عندنا•• والعمال والهيئات والنقابات والمكتسبات •• وهذا الذى نسميه عملا يتقاضى عنه العلاوة والدرجة والحوافز والتعويض والعلاج والمعاش والأجازات المرضية والعرضية والأعياد الدينية والقومية وما نسميه مكاسب الطبقة العاملة !!

وكل ما ننفقه من أموال على المدارس والمعاهد والجامعات من أجل تخريج مئات الألوف المؤهلين ليعملوا نصف ساعة فى اليوم !

ثم البعثات والمباني والمدن الجامعية والمواصلات والملاعب وخطط التنمية وتنظيم النسل ومعالجة الجفاف والتسليح وأجهزة حماية الدولة من الغاضبين والساخطين من أبنائها .. كل ذلك من أجل ٢٧ دقيقة عمل فى اليوم !! ثم ألوف الملايين للدعم والخدمات .. وألوف الملايين من أجل « تصريف » لمخلفات الانسان بصورة صحية .. حتى لا تؤدى الأمراض الى ارهاق الانسان وتعطيله عن الانتاج ! نصف ساعة الا قليلا كل يوم ، ثم انشاء المدن الجديدة للتخفيف عن خدمات العاصمة ، وسكانها الملايين العشرة لا يقومون بواجبهم الانتخابى فى اختيار نوابهم .. ربع مليون فقط هم المشاركون .. ثم الديمقراطية وحرية الرأى مهما كان الثمن ، لكى يقرأ المواطنون الرأى والرأى المضاد.. النظرية .. وعكسها كى يتسلوا فى أوقات فراغهم الطويلة ! ومن أجل التسلية استشرت المعارضة وخرجت عن الموضوعية وأصبحت بلا قضية .. الا التشويه وفتح شهية العمال على أن يحطم بعضهم بعضا .. ولتكون الدولة أولى الضحايا .

ومعنى ذلك أن عدد العاملين فى أى مكان يجب أن نقسمه على عشرين لنعرف أن هذا هو العدد الذى يكفى لأداء العمل المطلوب ...

وكلما نقص العدد كان أفضل وأحسن وأقدر على الانتاج ـ فهل نستطيع ذلك ومن هذا الذى يستطيع أن يقول : افصلوا ٨٠٪ من العاملين فى الدولة والقطاع العام ؟

وهنا تدخل رجل أعمال مصرى كان عائدا معنا على نفس رحلة مصر للطيران من نيويورك ليقول لقد سمعت الحوار وأستأذنكم فى ابداء وجهة نظر ربما تجيب على السؤال الأخير والخاص بفصل ٨٠٪ من العاملين فى القطاع العام والحكومة !

أولا : قضية القطاع العام فى مصر والذى يصل حجم

أصوله أى ممتلكاته الى مائة وخمسة مليارات حسب تقديرات نهاية عام ٩٦ ٠٠٠ لماذا لا نبدأ بالقطاع العام فى مجال السياحة والفنادق وباقى الممتلكات فى هذا القطاع ونعرض أسهمها ليتملكها العاملون فى هذا القطاع وباقى الأسهم للمغتربين ؟ هنا نجد أن العاملين فى مجال السياحة لن يعترضوا ولن يتظاهروا ٠٠ لأن هذا سيحقق مصالحهم فهم سيتملكون أسهما يدفعونها بأجل والمغتربين بجانب رجال الأعمال المستثمرين والمتخصصين سوف يتعاونون جميعا لجذب أكبر عدد ممكن من السياح وتنشيط الحركة السياحية فى كل مكان فى مصر ويتنافس المتنافسون والبقاء للأصلح ٠ وهنا سيزيد دخل العمال فى مجال السياحة زيادة كبيرة ويكون من مصلحتهم المحافظة دائما على تقديم أفضل الخدمات للسياح لجذبهم ونبدأ فى زرع أو احياء ــ بمعنى أصح ــ غريزة البشر وهى غريزة حب التملك فالجميع سوف يستفيد وليس هناك متضرر ٢٠٪ من الأسهم للعاملين فى قطاع السياحة والدفع بأجل لمن لا يملك ٥٪ بحد أقصى للمستثمر الفرد ٠٠ والباقى من الأسهم تعرض على المغتربين ومن يرغب فى الداخل طبعا على أن تدفع بالعملة الحرة لزيادة دخل خزانة الدولة وفورا من النقد الأجنبى ٠٠٠ وهذه بداية للتجربة واسألوا العاملين بالقطاع السياحى رأيهم فى التملك ؟! وبعدها نفذوا ٠٠٠ وبعدها ستطالب باقى القطاعات فى كل القطاع العام بالتملك ٠

وبهذه المليارات ننهى فورا البنية الأساسية والخدمات فى المدن الجديدة ونستصلح آلاف الأفدنة ونبنى ستة مدن جديدة أخرى تستوعب الـ ٨٠٪ المفصولين ليزرعوا هذه الأرض الجديدة ويسكنوا هذه المدن الاثنى عشر هل تعلمون أن تاريخ وحضارة مصر القديمة تدرس بالكامل وبتشويق رائع للأطفال فى أوروبا وأمريكا ؟

ــ هل تعلمون أن حلم أى أجنبى فى العالم هو زيارة لمصر قبل أن يموت ؟

ـ هل تعلمون أننا كمهـاجرين قد تعلمنـا وعرفنا عن حضارة مصر القديمة من كتب أطفال مالم نعرفه أو نتعلمه فى جامعات مصر بأسلوب غاية البساطة والتشويق ؟

اننا يمكن أن نختلف على أية قضية ولكننا جميعا نتفق على أن أملنا وأمل مصر والأجيال القـادمة هـو فى السياحة والزراعة فى أرض جديدة ٠

اننا بدون مبالغة نملك من مقومات السياحة وجـذب السياح ما لم تمتلكه دول العالم مجتمعة ٠٠ ثم أضـاف ان آحد الخبراء الذين قابلهم فى أمريكا وفى حديث عن السياحة الذى تخصص فى مجالها يعرض أن نؤجر لشركته منطقـة الأهرامات وأبو الهول بخمسة أضعاف دخلنا السنوى من كل القطاع السياحى فى مصر !! ٠٠ بعد أن سمع باقتراح بيع القناة ٠٠ وأضاف متحسرا أن مصر بما وهبه الله لها فى هذا المجال تستطيع بمجهود ضئيل وعزيمة قوية وبعض من الثقافة والارشاد السياحى أن تغير خريطة العالم السياحيـة ٠٠٠ أنظر الى شواطئها من الاسكندرية حتى الحدود الليبية ٠٠٠ أنظر الى ساحل البحر الأحمر بطـوله وعرضـه ٠٠٠ أنظر الى ساحل سيناء والعريش ولكن لعنة الفراعنـة قـد حلت بكم ربما لاهمالكم لأثارهم ٠

هل تعلم أننى تقدمت بطلب الى المكتب التجارى بباريس لانشاء قرية سياحية فى بلدكم ولم يصلنى رد منذ أشـهر ولا أعتقد أنه سيصلنى كما فهمت من البعض عندكم ؟! وهل تعلم أن وزير السياحة عندكم من أنشط وأخلص المسئولين عندكم ؟ ولكنه للأسف لا يملك سلطة فى شىء كباقى المسئولين عندكم ٠٠ فالوزارات والمصالح والهيئات متداخلة ومتشابكة ولابد من ألف موافقة وتصريح واذن لقد زرت بلدكم مصر (والحديث مازال للخبير الأجنبى) أكثر من خمسين مرة وفى كل مرة كنت أزداد اعجـابا واصرارا عـلى اقامة مشروع سياحى ولكن للأسف انكم تخافون على أرضكم من أن يسرقها الأجانب ويهربوا بها ليلا ٠

لم أشأ أن أبحث عن اجابة ‥ فى بعض الأحيان يكون طرح السؤال نفسه أبلغ من الاجابة عليه !

ولذلك استرسلت فى تذكر جوانب من حيــاتى ، علنى أجد فى ثناياها ما يعيد الى نفسى الثقة فى المصريين …

وها أنذا ، أجدنى وجها لوجه أمام صورة عزيزة عــلى نفسى ، عندما كنت فى بداية حيــاتى العمليــة والتجارية تحديدا ، ولم أكن أملك غــير أربعــين ألف فرنك وجازفت بالدخول فى عملية تجارية ، لا يقل رأسمالها عن ٣٠٠ ألف فرنكا …

ماذا أفعل ؟ وكيف السبيل الى توفير هذا المبلغ ؟

لم أنسى أن البائع قد وافق على أن أقوم بسداد مبلغه أقساطا شهرية بفوائد ، ولكن رسوم التسجيل هنا فى فرنسا تصل الى ٢٠٪ من قيمة المشروع التجارى ! وكل ما أملكه غير الأربعين ألفا هو كمية من الطموح وشيئا من ارادة واشطارا من اصرار وبعضا من الأمل والتفاؤل ٠٠ نعم قد أنسى أشياء كثيرة فى حياتى ، الا ذلك الذى زارنى فيه صديق مصرى وبعد اصرار منه على معرفة ما يشغلنى ، وجدته فى اليوم التالى قد ترك لى مظروفا وجدت به عشرين ألف فرنك جاء بها الصديق ليخرجنى من المأزق ولأضع أول قدم على طريق الأعمال التجارية ٠٠٠

وبعد أسبوع وقبل امضاء العقد كان صديقا آخر قد ترك لى مع صديق لى مظروفا به عشرة آلاف فرنكا لم يطلب ايصالا ، أو شيكا ، ولم يسألنى متى سأعيدها ٠٠ كلا لن أكفر بالمصريين ، ولن أفقد ثقتى بهم ٠٠٠ اذا كان للمواقف الأخرى التى صادفتها فى حياتى أن تمر مرور الكرام ، فان هذين الموقفين من جانب أصدقائى سيظلان أبدا فى ذاكرتى أبرهن بهما على صدق وطيبة المصرى واخلاصه وأمانته ٠٠ كما قد تعلمت من هذه اللحظة أن دورى ينحصر فى عملية « السعى » أما ادراك النجاح ، فليس من شأنى ٠٠ وهكذا

خرجت من هذه التجربة بدستور لحياتى العملية أعترف انه لم يخزلنى حتى اليوم ...

المسألة فى غاية البساطة واليسر ، سوف تكتشف أن النظام كله بما فيه من خدمات تحت أمرك ، وفى خدمتك ..

عليك فقط أن تكون ملما ببعض اللغة الفرنسية كى يتسنى لك أن تفهم مبادىء القوانين التجارية والخاصة بمجال عملك لتعرف واجباتك وحقوقك أيضا ... وأعنى هنا أن تعرف الواجبات قبل الحقوق .. فالقانون هنا فى خدمتك ولحماية حقوقك ولكنه فى نفس الوقت سلط على رقبتك اذا خالفته ، وأخطأت فلابد أن تدفع الثمن عاجلا أو آجلا ولن يحميك لواء بالمعاش أو حتى بالخدمة !! .. ولن يشفع لك جهلك بالقوانين والنظم ولا تحاول التهرب .. أو استعمال الفهلوة والشطارة المصرية ، لأنها ستكلفك غاليا .. وفى النهاية لابد رضيت أم لم ترض أن تدفع ثمن الخطأ أو مخالفة القوانين أو التهرب منها أو استعمال الفهلوة أو الحداقة بأننا أذكى شعب فى العالم ؟!

بعد كل هذا ستواجه البنوك بقدر من رصيد فى حدود ٣٠٪ من قيمة المشروع + دراسة جدوى للمشروع من أحد مكاتب المحاسبات ... بالاضافة الى وعد البيع الموثق لدى أحد مكاتب توثيق العقود أو لدى المحامين أو بمكتب مستشار قانونى ... سوف يمولك أى بنك هنا بما تبقى من ثمن المشروع أى سيقرضك ٧٠٪ من ثمن المشروع التجارى اذا كان محلا تجاريا مثلا ..

أما اذا كنت تشترى عقارا كحوائط لمحل تجارى ، أو منزلا فالبنوك هنا سوف تتنافس على اقراضك ١٠٠٪ من ثمن العقار بضمان العقار نفسه وما عليك الا أن تقدم أى دليل على أنك تستطيع من دخلك أو مرتبك أن تدفع الأقساط والفوائد التى لا تتجاوز من ١٠ : ١٢٪ سنويا .

وهنا يجب أن نوضح ونشير الى أن تملك المحلات

التجارية فى فرنسا يختلف عما هو عليه الحال فى مصر ٠٠٠ فهنا تشترى الجدك أو الاسم التجارى وما يحمله من سمعة وزبائن وهذا ما يسمى بالمحل التجارى ٠

ولكنك بعد أن تشترى هذا المحل التجارى ، تظل تدفع شهريا ايجارا لمالك العقار نفسه وهو يختلف عن مالك المحل التجارى ٠٠٠ الا اذا اشتريت المحل التجارى من صاحبه ، ثم اشتريت أيضا الحوائط من مالكها ٠٠ ففى هذه الحالة لن تدفع ايجارا ٠٠ فأنت مالك المحل والعقار ٠٠٠

رسوم التسجيل التى تدفعها اجباريا للدولة هى ١٠٪ تقريبا من قيمة العقار ٢٠٪ من قيمة المحل التجارى ٠

بعد وعد البيع ثم الحصول على قرض البنك ستعود ثانية الى موثق العقود أو المستشار القانونى أو المحامى الذى اخترته لكتابة عقد البيع النهائى واذا كنت مشتريا سوف تحصل فور التوقيع على ورقة ممضاه من الموثق هذا لتخرج فى الحال ومعك مفتاح المحل أو المنزل لتبدأ فى ادارته بعد ساعة من توقيعك على العقد النهائى ٠٠٠ أما اذا كنت بائعا فلن تقبض فى الحال ثمن المبيع !

سوف تنتظر ٦٠ يوما يخطر فيها الموثق أو الناصح القانونى أو المحامى كل أصحاب الديون ، والرهون ٠٠ واعلان فى جريدة ٠٠٠ وبعد أن يستوفى كل صاحب حق حقه يعطيك باقى الثمن ٠٠٠ وخلال هذه الفترة قبل أن تقبض الثمن تكون اجراءات التسجيل قد تمت ليتسلم المشترى العقد مسجلا ٠٠٠ فى نفس الوقت الذى يتسلم فيه البائع ما تبقى من ثمن مبيعه ، وهذا بالضبط ما حدث معى أكثر من ثلاثين مرة وربما أربعين أو خمسين فى عقود البيع والشراء ٠٠ وبحكم دراستى القانونية ، لم أكن أسمح لهذه القواعد أن تمر برأسى دون أن أتأمل جوانبها المختلفة ٠٠٠ ونتائجها على العملية التجارية برمتها ، وما تعود به على الدولة من أرباح لخزائنها ٠٠ وتذكرت كيف أعلنت فى

مصر أن أول سيارة تملكتها ثمنها مائة جنيه ·· وكانت بيجو ٥٠٤ ·· وكيف دفعت رسوم التسجيل للدولة على أساس أن ثمن السيارة مائة جنيه ! « عام ١٩٧٥ » !

لو حدث هنا وأعلنت للشهر العقارى ثمنا غير حقيقى كى تتهرب من رسوم التسجيل فستجد خطابا مسجلا خلال السنوات الثلاثة اللاحقة للعقد يخبروك فيه أن الثمن الحقيقى هو كذا وليس ما أعلنته ، ونحن نفترض أنك حسن النية ونشكرك على أن ترسل لنا شيكا خلال أسبوع بقيمة الفرق فى رسوم التسجيل ·· مع تحياتنا هذا ماحدث مع صديق لى فى العام الماضى ··· وأرسل فى نفس اليوم شيكا !

لنا أن نتصور عدد القضايا أمام المحاكم المصرية والتى باع فيها البائع عقاره مرات عديدة بعقود عرفية وقبض الثمن مرات ·· نقدى وكاش طبعا ··· وعلى المتضرر أن يثبت صحة دعواه وأن يقيم الدليل !

ويتخاصم الناس ·· ويتزاحمون أمام المحاكم ·· ويموت القضاة اجهادا واعياء ·· والكاسب الوحيد هو المحامى ! والخاسر الأكبر هى الدولة واذا كان الشىء بالشىء يذكر كما يقولون ، فهل تعلمون أن مصر تدفع شهريا ايجارات وبدل ايجارات لموظفى السلك الدبلوماسى فى فرنسا تزداد ٩٪ هى مقدار الزيادة فى القيمة الايجارية سنويا ··· حيث أن العقد الايجارى هنا محدد المدة من ٣ : ٩ سنوات ··· والزيادة السنوية فى الايجارات تحدد بقيمة التضخم والغلاء السنوية ·· وللبائع الحق فى طرد المستأجر اذا تأخر فى سداد القيمة الايجارية أو اذا انتهت مدة العقد الايجارى المحددة المدة دائما ·

وذات يوم كان السفير القنصل العام / رفيق صلاح الدين بمنزلى وتطرق الحديث بيننا الى هذا الموضوع وبدأنا نتساءل لماذا لا تشترى مصر عقارا أو مجموعة عقارات فى

باريس وضواحيها القريبة ، وتدفع المائة ألف دولارا قسطا لأحد البنوك ٠٠ وتصبح مصر مالكة لهذه العقارات الى الأبد٠

وطالما أن ذلك لا يكلف ميزانية الدولة مليما واحـــدا اضافيا ، سوى رسوم التسجيل طبعا ٠٠٠ لنصبح ملاكا لكل هذه العقارات ٠٠ كما كان يفعل الملك فاروق رحمــه الله واشترى لنا مبنى السفارة ومنزل السفير ٠٠ والذى لا يقدر ثمنها اليوم بثمن ! فقيمة العقارات فى فرنسا كما هو معلن ومعروف تزداد ١٣٪ سنويا ، وبالفعل وبعد هذه المناقشة طلبت من أكبر البنوك المتخصصة في العقارات وعدا بالتمويل بسعر فائدة ١٠٪ سنويا ٠٠ فقط للتدليل على أننا نتحدث أحاديث جدية وسلمت كل ذلك الى السيد / رئيس الجمهورية ٠٠ وذيلت الخطاب بأننى شخصيا صاحب مصلحة فى تطبيق هذا الاقتراح بعد مصر ٠٠ فسوف أستفيد أننى قد استطعت تغيير وتصــحيح خطأ يقع أمام عيوننـــا في حق بلدنا ٠٠ وبالطبع ليس هناك الزام لأحد فالبنــوك عنــدنا فى مصر والحمد لله تستطيع ببســاطة التمــويل والاقراض للدولة بضمان خزانتها ٠٠ بعــد أن أصــبحت لا تثق فى عميــل لتقرضه ٠٠ بعــد كل ما حــدث من عمليــات نصب وسرقة واحتيال من بعض عملاء هذه البنوك !

على كل حال أحمد الله أن أحد المسئولين قد تبنى هــذا الاقتراح وهذا الرجــل من القــلائل المخلصين لمصر والذين عرفتهم ٠٠ وسوف تشترى مصر عقارات فى فرنسا بتمويل من البنوك المصرية دون وساطات أو عمولات لأحد ٠٠ وبهذا تمتلك للأبد ٠٠ ولا نتعرض للطرد في نهاية مدة العقد ٠٠٠ وينتهى عذاب رجال ونساء الســلك الدبلوماسى فى البحث عن شقة للايجار فى باريس وهو شيء فى غاية الصعوبة هنا أن نحصل على شقة للايجار بالاضافة الى ارتفاع الايجارات والزيادات المستمرة فيها ، لدرجة أن الغــالبية العظمى من أعضاء السفارة والقنصلية والذين كانوا دائما من ســكان الأحياء الراقية كالحى الثامن والسادس عشر فى باريس٠٠

أصبحوا من سكان الضواحي القريبة من العاصمة، فالمرتبات، وبدل السكن ، وانخفاض قيمة الدولار جعلت المسائل في غاية الصعوبة للكثيرين منهم ٠

« وللعلم أخيرا قام المكتب الحربي المصرى بباريس بتنفيذ هذا الاقتراح واشترى فندقا لسكنى العسكريين الذين يترددون على باريس ٠٠ وبالطبع فالفارق واضح بين العسكريين في الالتزام والبحث والتنفيذ ٠٠ وبين المدنيين وعدم الثقة والتردد وتداخل الجهات والوزارات ٠٠ وطريقة اتخاذ القرار ٠٠ !! »

ومرت الشهور والسنين بعد أن تزوجت من فتاة ولدت في مدينة تولوز لتذكرني بأنني قد مررت يوما بهذه البلدة مع أصدقاء لي نجمع فواكهها ٠٠٠ وأنجبت خلالها ولدا عمره الآن سبع سنوات يتحدث العربية بصعوبة شديدة كباقي أبناء المهاجرين الذين تزوجوا زواجا مختلطا ٠ وانطلقت مشروعاتي في فرنسا ، ولم أكتف بمشروعات المطاعم الايطالية ، والاستيراد والتصدير من أمريكا ، وبيع الفواكه في محلاتي بضواحي باريس التي شهد لها الجميع بالنظافة وحسن الادارة ٠٠ ولكنني غزوت مجالات أخرى كالسياحة ، ومحلات الموضة والملابس ، فالانتاج السينمائي ، ثم بيع وشراء العقارات خصوصا بعد أن أصبح رصيدي في البنوك من الثقة والسمعة والالتزام والنجاح كبيرا ٠٠ وكثيرا ما ضحكت عندما كنت أتسلم من وقت لآخر بطاقة تهنئة من مدير البنك يهنئني فيها بالأعياد ، والمناسبات المختلفة متمنيا لي مزيدا من الصحة ، ولمشروعاتي مزيدا من النجاح ، و لاينس أن يخبرني عندما ذهبت اليه في بداية حياتي التجارية وطلبت أن يقرضني مبلغا من المال ، رفض دون ابداء الأسباب ، فقد كنت في نظره مجرد شاب صغير أتى من دول العالم الثالث ، لا خبرة ولا يملك رصيدا ٠

اذا كان لى أن أفسر هذا الرفض على طريقة « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » فهو بلا شك كان نافذة الى خير شملنى ، وشمل جميع من يعمل معى ، فضلا عن آنه كان الأساس الذى بنيت عليه ثقتى فى المصريين الذين لولاهم لما تمكنت من وضع قدمى الأولى على الطرق ... ولذلك أجدنى مستعدا - على الرغم من كل المضايقات من بعض فاقدى الذمم ومن لا يعترفون بجميل .. لتقديم كافة المساعدات لأى مصرى ، يريد أن يسلك الطريق الذى سلكت .. على أن يكون مستعدا للكفاح والعمل الجاد .. وكما قرأت وتعلمت من الحياة مع كل الجنسيات فى كل الاوساط أن فى عالم المال والاعمال يوجد صراع لا يتوقف من أجل الصعود أو السبق أو التميز .. فرجل الأعمال الناجح هو الذى يستطيع أن يفصل بين العاطفة والعقل ، ويحترس ولا يتخون .. ويحترم الكلمة ... ويفى بالتزاماته .. ويستمع جيدا ولا يعطى ردا فوريا الا بعد البحث والدراسة والتفكير على أن ينفذ ما تشير به الحاسة السادسة فهى لا تخطىء أبدا .. وكما تعلمت من تجربة صديقى د. صلاح ... وصديق آخر أعتز به للتجربة التى مر بها بنجاح ... فقد بدأ حياته مهندسا .. عمل فى ليبيا ثم عاد لوطنه مصر ورغم كل المعوقات البيروقراطية .. والحقد والغل .. والحسد استطاع مدحت بذكائه وحكمته رغم صغر سنه أن يصبر وبجد واجتهاد وفى صمت وهدوء مستفيدا من تجارب الآخرين ، والاتعاظ ، وعدم التواكل ... وانتهاز كافة الفرص فى المقابلات والمعارف والزيارات ، وبفتح العقل لمناقشة دقة الموضوعات ... أخذا فى اعتباره أن رجل الأعمال يجب أن يكون مثل أجهزة الارصاد الجوية قادرا على التنبؤ بما قد يحدث فى الغد من تقلبات فى عالم المال والأعمال - كما أنه يجب أن يتبع مناهج البحث العلمى من ملاحظة وتنبؤ وتحكم ... على أن يكون قارئا جيدا فى العلوم الاجتماعية والسياسية والسلوكية تمكنه من فهم الناس وسلوكهم ، وملاحظة أى متغيرات قد تطرأ على احتياجاتهم

أو تصرفاتهم لأنه يتعامل مع بشر ، أما المواد والأشياء فما هي الا وسائط بينه وبينهم ٠

كما أنه يعلم أن المرء لو كان ناجحا حقا فلابد أن يكون له أصدقاء ، وخصوم في آن واحد ، والخصوم لن يكفوا عن تدبير المؤامرات في محاولة منهم لايقاف صعوده أو سبقه أو تميزه ، والتصرف الحكيم هو أن ينسى كل هذه الضغائن ـ لأنه لو تفرغ للرد عليها لوجد نفسه غارقا حتى أذنيه في كل ما هو غير مجد ٠٠٠ وكان مثله في الأعمال «بالمهارة لا بالقوة تسير السفينة » ٠٠٠

واليوم يفتح بيوتا كثيرة للعاملين في شركته الكبرى للمقاولات ٠٠ ومازال دائم الابتسامة حامدا ربه ٠٠ لم أسمعه مرة واحدة يشكو أو ينفعل رغم ارتفاع درجات الحرارة في مصر !

كانت دائما هذه التجارب أمام عيني ٠٠ أستعين بالله وبها في كل شدة وضيق ، مرت الايام بحلوها ومرها ٠٠٠ وكان على أن أدفع ثمن الغربة ، كما يقولون ٠٠ أليس لكل شيء ضريبة واجبة الدفع والسداد ؟

وفي صباح يوم لن أنساه حضر الى باريس فجأة ودون سابق موعد أسامة أخي الأصغر وكان طالبا بالثانوية العامة ٠ يحمل خطابا من عشرين صفحة ، يخبرني فيه أخي الأكبر بوفاة والدي رحمه الله منذ عدة شهور وكنت لم أره منذ عدة سنوات ، وهكذا تصرف أخي ٠٠ المحامي بمصلحة الهجرة والجوازات ولم يخبرني في حينه رغم الاتصالات المستمرة بيننا ٠٠ وكنت في الثلاثين من عمري واللجنة العسكرية لم تحضر بعد الى باريس لانهاء موقفنا من التجنيد لدفع الغرامة المقررة ونحصل على الاعفاء ٠٠٠ ونظرا لطبيعة عمله ، وخوفا من حضوري وعرقلة خروجي من القاهرة وهو يعلم أن لي أسرة وأعمالا ومسئولية عن كل الذين يعملون معي

فقد ارتأى ألا يخبرني بالوفاة يوم حدوثها ... أو بمرض والدى .. هكذا تصرف .

خرجت بسيارتي الى احدى القرى المجاورة للمدينة التي أسكن فيها ، وكنت رى في هذه القرية بحقولها وخضرتها قريتنا .. كنت أرى فيها طفولتي وذكرياتي ... جلست بجوار السيارة وسط الحقول أبكي .. ولا أعرف كم من الوقت مر بي وأنا في مكاني ... كنت أبكي وشريط طفولتي وذكرياتي ... وحياتي يمر أمامي ، لا أراه ولكني أسمع له صوتا خافتا .. قرأت آيات من القرآن الكريم ... ودعوت لوالدى بالرحمة والمغفرة والسماح وكان لهذه الواقعة أثر كبير في نفسي مازلت أشعر به في داخلي ... ولم تستطع الأحداث ولا مشاكل الحياة أو رغدها أن تمحوه .

وفي المساء حضر الى زملائي لتقديم العزاء ... وكان مجدى أيضا يبكي .. فهو لم ير أمه التي توفيت دون أن يراها منذ خمس سنوات ... أما عبد الله فكان أكثرنا ألما فقد تذكر أيضا اليوم الذى علم فيه بوفاة والدته وعمرها لم يتجاوز الخمسين وكان قد سافر منذ ثلاثة عشر عاما لم يرها طيلة هذه المدة ... فقط علم بالوفاة يوم وفاتها .. وكان لا يستطيع أن يسافر لتوديع أمه ويلقي عليها نظرة أخيرة ... فهو لا يملك جواز سفر مصرى لأنه أيضا لم ينه موقفه التجنيدى .. وفي انتظار اللجنة ليدفع لها ألف دولار ووقتها فقط يستطيع أن يدخل بلده .. ويزور قبر والدته !

كانت هذه أكبر مشكلة تواجهنا نحن الجيل الذى ولد مع الثورة في ٥٢ ، وهاجر أو هجر من أرض وطنه يحمل ستة عشر جنيها استرلينيا ، بعد أن كلف الدولة خمسين ألفا في تعليمه الابتدائي والاعدادى والثانوى ثم الجامعة ! قذفوا بنا الى أرض ليست بأرضنا وسط قوم يختلفون عنا في كل شيء ، أو نحن نختلف عنهم في كل شيء .. وجواز سفر صالح لستة أشهر فقط ... وكأن الحرب لو نشبت اليوم فسوف يكون هناك فرسانا ، ومشاة ، وفي حاجة الى

من سـيحملون النبـابيت ! والدولة في حاجة ماسـة الى المهاجرين ، وكأن كل هذه الأعداد التى تعيش فى الداخـل ولا تجد ما تفعله كأنها لا تكفى ؟

كنا نتساءل ونتزلق جميعا عـلى الرغم منا في حـديث طويل عن الهجرة ، وعذابات الاغتراب ، والى متى سـنظل بعيدين عن مصر ، ثم لماذا لا ننجح فى مصر كمـا ننجح فى الخارج ؟ هل يعود اللوم على الشباب ، والمثقفين ـ أم يعـود على الحكام والسياسيين ، وقادة الفكر والأدباء ؟

كانت الأسئلة تختلط في رؤوسنا ونحن لا نرى الأحلام الـوردية التي وعـدنا بهـا قادة الثـورة المجيدة ؟ وأين الانتصارات التى حققناها في ميادين الحياة المختلفة ؟ وهل كان الأمر مجرد شعارات جوفاء حفظنـاها صـغارا وحسبهم منها أن ضحكوا علينا بها ؟ وابل من الأسئلة ، ازدحمت به نفسي وعقلي ، فبكيت ثانية ، ولكن بكائي كان لمصر ، ولأبى، ولأمى ، ولكل أبناء جيلى وما بعده ٠

ومرت أيام وأسابيع وشوقي وحنيني الى مصر ، ولأهـلى وأصدقائى وكأنه نداء من السماء ٠٠

فقررت السفر الى مصر ٠٠٠

نعم سأسافر الى بلدى ٠٠٠

ولكن كيف أرحل الى بلدى واللجنة العسكرية لم تصل بعد لندفع الغرامة ؟ ولم أنتظر جوابا ٠٠ واضطررت أن أزورها غريبا ٠٠٠ أنطق لغتها ، وأشعر بأحاسيسها ، وأكاد أسـمع نبض قلبها الكبير ، لكنه فى نظر رجل الجوازات « فرنسى » هكذا كان جواز سفرى ! ضحكت معه ـ حدثتـه بالمصرية ـ المنوفية ـ فقلب ثانية في جواز السـفر ٠٠ أعياه البحث ، وعجز أن يعرف حقيقة بسـيطة ، وهى أننى مصرى القلب والقالب ، مصرى الشعور والوجدان ٠٠٠ أعتز بمصريتى وان حملت ألف جواز ٠٠ وجـواز ! مصرى رغـم تأشـيرة الدخـول التى منحتنى اياها القنصليـة المصرية ببـاريس

مصرى دخل مصر بلده كأجبنى .. وكم هو شاق أن تكـون مصريا ، وتشعر انك غريب على أبواب بلدك ! .

فى العام الماضى وفى ٣٠ أكتوبر سنة ٨٦ فقط ، وكنا قد قابلنا وكتبنا للمسئولين عن هــذه القضية التى انتهت بالنسبة لنا ولكنها مازالت قائمة لآلاف من المغتربين ، صدر قانون نشر بجريدة الـوقائع المصرية ولم يعـرف به كل المغتربين ــ هذا القانون ينص عـلى أن : « يعفى من آداء الخدمة العسكرية كل من تجنس بجنسية أجنبيـة ، وبالطبع الأبناء أيضا » .

وهذه الخطوة تستحق التقدير ، والتعظيم .

* * *

لعـل أبرز الأحـداث والمتغيرات التى أقامت الدنيـا وأقعدتها فى داخـل مصر ، وخارجها فى ذلك الوقت كانت زيارة أنور السادات الى القدس ...

لم أزل أذكـر يـوم أن أعلن التليفزيون الفرنسى عن الزيارة ، وحشد الاعلام الفرنسى جميع وسائله ، وأجهزته لرصد هذا الحدث التاريخى ، وللحديث عن النتائج فى المدى القريب والبعيد خصـوصا انعكاساتهـا عـلى قضية الشرق الأوسط باعتبارها أبرز القضايا الدولية الملتهبة (فى ذلك الوقت) ...

كان أنـور السادات فى نظر الشـعب الفرنسى كبيره ، وصغيره رجلا شجاعا هكذا قالت لى كاتبة وشاعرة فرنسية ، لأنه استطاع ان يتجاوز السلبيات ، والخلافات التى زادتها التواريخ والوثائق القديمة ، والبيانات الحديثة ، تعقيدا .

كان الشعب الفرنسى بأكمله حول شاشات التليفزيون ينظرون اليه بأعين دامعة .. فلعل فى هذه الزيارة المثـل الأعلى ، الذى يجنب أطفالهم ويلات الحروب ، وشرور المعارك

الضارية .. استطاع أنور السادات أن يخطف قلوب الأمهات في كل أركان الدنيــا .. ويبث الأمل .. والطمأنينــة في البشرية جمعاء .

وكانت هذه الزيارة مثارا لمناقشات طويلة بيني وبين زملائي من المصريين ـ لكن للانصاف أعترف بأننا على الرغم من خصامنا الشديد حول هذه القضية ، الا أننا كنا متفقين على أنه عمل متحضر .. يثبت بما لا يدع مجالا للشك أننا أصحاب حضارة عريقة ، فضلا عن أنها أكبر دليــل على أننا لسنا قتلة أو سفاحين ، أو برابرة كمــا اتهمتنــا يـــوما الانجليزيتان ... كان الفرنسيون يأتون الينــا ، ومعهــم صفحات الجــرائد والمجــلات التي تتحــدث عن مصر ، وعن أصالة شعبها ، كنا نتلقى مكالمات هاتفية من العملاء ، ومن الأصدقاء منهم يلفتون نظرنا الى حديث أو مسلسل أو فيلم في التليفزيون عن مصر والمصريين ...

كان الجميع دون استثناء متعاطفا تمــاما ومع القضية الفلسطينية ، وبدأت صورة القضية تتضح أكثر فأكثر في عيون وأذهان العامة ... بعد أن كانت الدعاية الصهيونية متغلغلة ومسيطرة في غياب تام للاعلام العربي .

كنا نشهد أن أنــور الســادات قد حقق لمصر وللقضية الفلسطينية ، في ذلك الوقت ما لم تستطع الدول العربيــة مجتمعــة أن تحققه بالحــروب أو بالتهــديد والــوعيد .. ولا بالشعارات الزائفــة التي مازال البعض يرفعهــا حتى اليوم !

لقد ظهرت الحقيقة في ذلك الوقت وبدأ العامة قبــل السياسيين والمتخصصين يعيدون النظر في ملفــاتهم ، وفي نفوسهم وعقولهم .

كان حديثنا اليومي سواء بيننا وبين الفرنسيين أو بيننا كمصريين هو مصر والحرب والسلام وأنور السادات .

لا أدرى لماذا عادت بى الذاكرة الى الوراء عندما وجدتنى أقوم برفقة أصدقاء لى بزيارة قصر فرساى الشهير والذى لا يبعد عنا أكثر من عشرة كم ، ويبعد عن باريس من الجهة الغربية مسافة عشرون كم ويقصده السياح من كافة أنحاء العالم٠٠ فهو من أبرز المعالمالتى تستحق المشاهدة والزيارة لقضاء يوم كامل فى حدائقه وبحيراته فهذا القصر بحدائقه وغاباته كان مكانا للصيد للويس الثالث عشر والرابع عشر، وبعد عمليات توسيع وانشاءات وتجديدات استمرت لمدة خمسين عاما وصل الى الحال الذى عرف به فى العالم كله الآن ٠

بصالوناته الفخمة جدا والتى أعدت كملحقات لشقة الملكة ٠٠ أما حدائقه فهى تقع على مساحة مئة هكتار أى حوالى ٢٥٠ فدانا ٠

أما حديقة الملك فهى تقع وحدها على مساحة ٦٠٠ هكتار أى ٢٥٠٠ فدان تقريبا حيثأن الهكتار ١٠ آلاف متر مربع ـ والفدان ٤٣٠٠ متر مربع والقيراط ١٧٥ م ٢ أما البهو الأرضى الكبير فهو بالرخام الوردى ـ وهو مخصص فقط لاستقبال رؤساء الدول وملوكها ٠٠٠ وقد أهداه لويس الرابع عشر الى مارى انطوانيت ٠

وفى رحاب هذا المكان الفسيح ، نشبت مناقشة حامية بين ابراهيم الذى كان لا يطيق سماع اسم أنور السادات ، ومن ثم كان يصب ناراحامية من غضبه عليه، وعلى قراراته، ومبادرته ، فى الحرب والسلام على السواء ٠

ولم يكن يعدل بجانب صورة وشخصية عبد الناصر فى رأيه أى شخصية أخرى ٠ أما القسم الآخر فى المناقشة ، فكان زميلنا صبرى، الذى كان يعشق سياسة أنور السادات،

فضلا عن شخصيته ، وإن لم يكن يكره أو يسب عبد الناصر
.. اليوم أعادت مخيلتى هذه المناقشة بحذافيرها أمام عينى.
وقد كان الجـو قارس البرودة (١٨ درجة تحت الصـفر)
وكنت أحمل معى جريدة الفيجارو حيث كنت معلنا بها عن
بيع أحد المحلات التجـارية .. وكان المانشـيت الـرئيسى
للجريدة :

السادات لقن رؤساء العالم درسا فى الأخلاق

وذلك بمناسبة دعوة واستقبال الشاه فى مصر بعد عودة الخومينى لايران وثورة الشعب الايرانى ،وتخلى أمريكا عن صديقها فى المنطقة !

وتفجر ابراهيم غاضبا على هذا التصرف من أنور السادات ، وكانت وجهة نظره أن الشاه طرد من ايران لما ارتكبه هو والسافاك أى جهاز مخابراته من تعذيب ، وسلب ، ونهب لابناء الشعب الايرانى ، وكيف كان الشاه وحده مع مجموعة من الطبقة اللى فوق يمتصون رحيقها وخيراتها ...

لذلك فأنور السادات قد ارتكب جريمة باسم الشعب المصرى أمام الشعب الايرانى المسلم وأغلب الظن أن ابراهيم كان يقصد بهذا الحديث استفزاز صبرى الذى يخاصم ، ويصادق أحيانا دفاعا عن السادات ..

ولم ينطق صبرى الا بكلمتين قائلا : يكفينا أن أنور السادات حارب وانتصر .. وأعاد السلام ومعه سيناء .. وياليته كان استقال بعد ذلك .

وغضب ابراهيم وانفعل ليقول : يستقيل بعد أن حقق كارثة بتفويق العرب ، وقطع العلاقات معهم .. والاتفاق مع اليهود بما يسمى « كامب ديفيد » ؟

رد عليه زميل آخر أكثر تعقلا ودون انفعال :

« لعل خطأ السادات الوحيد ، أنه ولد قبل عصره بخمسين سنة على الأقل » وسوف يثبت التاريخ مصداقية ذلك ·

ماذا جنينا من الحروب ·· لقد نسينا مصر ·· كما نسينا أننا العرب لا يمكن أن نتفق الا على عدم الاتفاق !

يجب أن نفيق ، وحسبنا ما نحن فيه من تفرق ·· وعلى العرب أن يعرفوا أن مصر لن تتخلى عن دورها القيادى والحضارى والتاريخى فى المنطقة ·· ولن تتردد فى مساعدة أى دولة عربية حتى بعد أن ينضب بترولهم ·

واذا كان السادات قد قام بمصالحة مع اسرائيل ، فهذا يعنى أنه رجل سياسى واقعى ، لقد كان من السهل عليه أن يرفع الشعارات التى مازال الآخرون يرفعونها حتى اليوم : السادات حاول باخلاص ودهاء أن يقيل مصر والأمة العربية من عثرتها ، ولكن العرب لم يدركوا هذا الهدف النبيل ، وتضافروا مع بعضهم البعض لأول مرة ، على مقاطعة مصر ومعايرة المصريين بأنهم من آكلى الفول !

وهاج ابراهيم وماج وقال ثائرا :

وان ماصنعه السادات ، هو جرح كبير فى ضمير الأمة العربية ، فقد أهانها ، ورضخ لأمور سبق أن طرحت على عبد الناصر ، ورفضها بشجاعة ·

واذا كان العرب يكيلون الاتهامات لمصر وللمصريين ، فهذه قضية أخرى ، لكن الحرب مع اسرائيل لم تنته وسوف أذكركم يوما !

كنا مانزال فى منطقة فرساى واقتربت الساعة من الواحدة ظهرا وبدأت علامات الجوع تظهر على البعض ·· فقررنا أن نتوجه الى أحد المطاعم التى يمتلكها صديق من المغرب ويقدم فيها الكوسكوسى الطبق الذى اشتهرت به منطقة شمال أفريقيا ·· ونقلوه معهم الى العاصمة الفرنسية

بل والى كل مدن وقرى فرنسا تجد المطاعم العربية في شمال أفريقيا تقدم الكوسكوسى المطهو · بطريقة تختلف تماما عن كوسكوسينا الذى يؤكل بالحليب والسكر وفى الفطور !

عندهم يطهى مع اللحم والخضر من جـزر ، وحمص ، وكوسة ، ولفت ، وكرافس ·

ـ ويقدم معه أصناف مختلفة من اللحوم والفراخ والسجق المغربى الشهير باسم المرجيز والذى يباع حتى فى محلات الجزارة الفرنسية نفسها ·· ومن حين لآخر تجد الفرنسيون يصنعون بأنفسهم ويعدون هـذا الطبق الذى استطاعوا نقله معهم بعد أن تركوا الجزائر بعد تونس والمغرب ···

وفى العاصمة باريس وفى الحوارى الضيقة والشوارع الواسعة على السواء ستجد مطاعم الكوسكوسى منتشرة فهى وجبة دسمة وبسعر رخيص ·· ولكن يجب أن تؤكل فى المطاعم الصغيرة والمعروفة ·· حتى لا تتعرض لأنواع جديدة من المغص لم تعرفها من قبل !· خاصة بعد أن تكون قد أضفت قليلا من « الهريسة » وهى نوع من أنواع الشطة الحامية جدا والمغلية فى الزيت ومخلوطة بالطماطم ·· ومحلات الكوسكوسى هذه لا ينافسها الا المطاعم الايطالية والتى تقدم فطائر البيتزا بما عليها من أصناف مختلفة من تونة ·· وملوحة ·· وعش الغراب ·· وجبن ·· وطماطم بالاضافة الى ما تقدمه هذه المطاعم من أطباق كثيرة ومتنوعة من الاسكالوبات المطهية على الطريقة الايطالية ··· وهذه المطاعم تحوز اعجابا لا يصدق من الفرنسيين الذين يأكلون طول الأسبوع فى المطاعم ولا يطهون فى بيوتهم سوى الويك اند أحيانا !

فهم يتناولون طعام الغذاء من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية ظهرا ·· أما العشاء فهو من السابعة مساء وحتى الحادية عشر على الأكثر !

ويستغرب كثيرون منا لأجسام هؤلاء الفرنسيين والفرنسيات بصفة خاصة الذين اشتهروا بخفة وزنهم .. وهم يشاهدون بذلك دائما ... بالرغم من الكميات التى يلتهمونها فى وجباتهم فأجسامهم كما هى .. اذا مشيت فى أى شارع فى فرنسا فلن ترى الأجسام والأشكال التى نراها فى شوارعنا .. لن ترى امرأة واحدة تجر مؤخرتها .. ولا تقوى على حمل صدرها .. ومن الصعب أن تجد مقاسات ما بعد ٤٦ للسيدات ! .. الا فى المحلات الكبرى والتى تعتمد على زبائن من عندنا !

أما مقاسات الرجالى فتقف عند ٥٨ ... ومن الصعب أن تجد ما فوق ذلك ... وكم من مرة خرجنا .. ودخلنا .. مع مصريين أصدقاء وأقارب فى محلات كثيرة نبحث عن مقاساتهم ؟!

وخرجنا من المطعم المغربى بعد وجبة دسمة .. وهطلت الأمطار .. وتغيرت درجات الحرارة من ١٨ درجة تحت الصفر الى عشر درجات فوقه ... وتذكرنا مصر بفصولها الأربعة والتى تراها هنا فى اليوم الواحد !

مطر غزير .. ثلج .. شمس .. رعد .. لابد أن تحمل شمسية صيفا وشتاء ... الشتاء هنا يبدأ فى أكتوبر وينتهى فى ابريل .. وأحيانا لا ينتهى الا فى يوليه ! فى ابريل البرد قارس ، والثلوج بلونها الأبيض والذى ينافس لون القطن عندنا . يغطى كل شىء .. القمح فى الحقول لا يزيد طوله عن عشرون سم ، تغطيه طبقة من الثلج تزيد عن ثلاثين سم .. سبحان الله .. لينمو بعد ذلك ويحصد فى شهر يولية وأغسطس .

البرد يساعد على النشاط والحركة .. والحركة دائمة لا تتوقف .. والأطفال فى الشوارع يتزحلقون فرحا وهم يقذفون بعضهم البعض بدقيق الثلوج وهو مايسمى «بالنيج» ... كل شىء مكيف ومعد ... وجاهز لاستقبال الشتاء

السيارات ·· المترو ·· القطار ·· المكاتب ·· المنازل · سخاناتها ومراوحها الكهربائية وغير الكهربائية مستعدة للتدفئة طوال العام ··· فى هذه اللحظة التى أكتب فيها أمامي جهاز تدفئة فالجو بارد ودرجة الحرارة منكمشة أمامي في الترمومتر المعلق بالشباك من الجهة الخارجية ليشير الى عشر درجات ·· في الثالث عشر من شهر يونية وأمامي جهاز راديو يلتقط اذاعة مصر يعلن أن درجة الحرارة ٤٠ أربعون درجة ، فوق الصفر طبعا !

الشعب الفرنسى يأكل بشراهة كما يشرب أيضا ·· ولكن بانتظام ، وبنظام ـ المطبخ الفرنسى والذى اشتهر فى العالم كله ·· وصدرت فيه آلاف الكتب التى تباع فى كل المكتبات هنا ··· لا تشكو مرة واحدة من مغص أو آلام بالمعدة ·· أو حرقان في الحلق ··.أو تشعر بعسر فى الهضم ·· ولا يعرفون المهضمات من الأدوية ولا يحتفظون بها فى بيوتهم ··· ولا يفتيك أحد فى هذا المجال رغم ثقافتهم الواسعة ! ولن تجد يافطة واحدة لطبيب أمراض باطنية ··· فقط يافطات لأطباء الأسنان والفم !

مطبخهم خال من الدهون الحيوانية ·· ولا توجد به المسبكات ·· ولا يعرفون المخللات أو المواد الحريفة أو الحارقة ، السكر ممنوع كالملح تماما الا بكميات قليلة جدا ··· الكوكاكولا لا تجدها على السفر ولا السفن أب ··· فزجاجة الكوكاكولا الصغيرة تحتوى على ١٠ عشرة قطع من السكر !

يأكلون الخضار شبه مسلوق بعد اضافة أنواع مختلفة من الصلصات « السوسات » التي اشتهر بها المطبخ الفرنسى ··· كما يأكلون السلطات بانتظام اما فى بداية الوجبة أو لا نهائها ··· الكميات المطهوةلوجبة واحدة ··· وبالعدد للموجودين ··· لا تدخل عندهم فى ميعاد وجبة ويحلفون عليك بأغلظ الايمانات أن تأكل معهم ! لابد من موعد سابق

ولا استقبلوك على الباب·· واذا دعاك أحدهم بمنزله فعليك أن تتأكد مما اذا كانت دعوة على شاى فقط أم شاى وجاتوه أم لغذاء أو عشاء وعليك ألا تصطحب صديقا أو زميلا تقابلت معه صدفة فى طريقك ·· فلابد من الاتفاق على العدد ·· ليس بخلا منهم ولكنه نظام ما أجمله ! وان كنا قد لعناه فى أحيان كثيرة فى البداية !

الشعب الفرنسى فى غاية الذوق والأدب ، والاحترام ·· يعتذر لك ويشكرك بابتسامة صفراء دائما·· لا يعرفون الضحك فى الشارع أو العمل واذا ضحكت بصوت مسموع تلفت الحاضرون بالمارة وكأنك مجنونا ! عادة لا يحدثون ضوضاء فى أى شىء ·· انهم يكرهونها ··· كل شىء يتم فى سكون أصواتهم دائما منخفضة ··· وعليك ألا تتحدث وفمك ملىء أو تحدث أصواتا عند المضغ ·· أو أثناء الشرب ···

ـ الحيوانات عندهم لها كرامتها واحتراماتها·· وعليك أن تسأل صاحبة الكلب أو القطة عن عمرها وسنها واسمها وتاريخ ميلادها ·· وأحوالها النفسية وعن كوافيرها أيضا:

وبخبرتى أنصحك بأن تتعامل معهم بادب وذوق ·· ولكن لا تنسى العين الحمرة اذا كان لك مصلحة فى احدى الأماكن الحكومية أو غير الحكومية ·· ففيهم جبناء كثيرون ·· ولا تبالغ فى اكرامهم على الطريقة العربية القديمة ·· فهم سيعتبرونك عبيطا وليس كريما كما قد تتصور ··

لن تصدق مدى غباء البعض منهم ·· وسوف تكتشف أحيانا كثيرة أنهم لا يرغبون فى ارهاق عقولهم طالما الموضوع ليس فى اختصاصاتهم·· أما عن المعاملات فهم كما قال الامام محمد عبده يطبقون تعاليم الاسلام وهم غير مسلمين فالحقيقة أن هذا الكلام صحيح ١٠٠٪ فالأمانة ·· والوضوح ·· والصراحة المطلقة ·· لا يعرفون اللف أو الدوران أو التورية ·· فكل شىء له معنى واحد ··· واضح ··

لا يتغير ولا يتبدل بارتفاع أو انخفاض درجات الحرارة ..
لا نسمع شكوى .. أو حـــدوتة ولا قال .. ولا قلت ..
وأيضا لا تسمع كلمة الحمد لله !!

الكل يعمل باخلاص وجد واجتهاد وبأمانة ٧ ســاعات
فى اليوم عدا السبت والأحد .. والأعور يقولون فى عينيه
أعور وليس من خلفه .. ولا أحد يعنيه ماذا فعلت أو ماذا
تفعل فهذا شــأنك .. فافعــل ما شئت طالما أنك لا تتعدى
ولا تمس ولا تقرب حرية الآخرين ...

الفرنسيون أكثر الشعوب اهتماما بالمظاهر .. الأناقة
.. الموضة .. الذوق موديل السيارة وماركتها .. يتباهون
بثقافتهم ... ويفاخرون بثرثرة عن رحلاتهم وأجازاتهم ..
كاشفين لك عن أجسادهم البرونزية بعد كل رحلة الى بلاد
الشمس !

غريزة حب الاستطلاع والمعرفة هى أولى الغرائز عندهم
يليها الملبس فالمأكل ، فالجنس .. وله مفهــوم مختلف تماما
عن باقى الشعوب !

واذا كانوا يمتــازون عنا بكل ذلك وأكثر من ذلك من
صـــفات ... فانهم لا يملكون ما نملك من ترابط عائلى
وتكافل اجتماعى رغم كل مبالغاتنا فى أننا بدأنا نفقد ذلك
أخيرا ..

ـ ولعل هذه الخاصية هى أهم ما يعيب حياتهم الاجتماعية
عموما ... فالمجتمع يبدو من الظاهر وعــلى الســطح أنه
متماسك ، لكن الحقيقة غير ذلك تماما !

ـ فالغالبية منهم تعانى الأمراض النفسية .. فالوحدة
قاسية .. وتشهد على ذلك العيادات المزدحمة ... وانتشار
مكاتب مدعى الكشف عن الغيب ، وقراءة الكف والفنجان..
والكوتشينة ولابد من الحجز وبموعد سابق فالطابور طويل..

ـ والعجيب فى أمر هؤلاء الفرنسيين أنهم قادرون على اظهار وابراز شكل خارجي متناسق ، وصورة باهرة مظهريا .. باهتمامهم بأجسادهم ، وملابسهم ، وزيناتهم وعطورهم ... وموديلات سيارتهم أيضا والتى حصلوا عليها كباقى ممتلكاتهم بقروض وسلف من البنوك الخاصة والعامة !

وهم فى كثير من الأحيان يخفون بداخلهم انسانا آخر مليئا بالكآبة والحزن والأسى والقلق .. القلق من الحرب العالمية القادمة ! القلق على المستقبل رغم كل التأمينات والمعاشات وشهادات التأمين ضد الأمراض والحوادث والوفاة ! ! قلقون على أموالهم ... يخافون الفقر .. وهم أغنياء ! فى ظل هذا العالم المادى الذين يعيشونه فهم لا يعرفون التكافل الاجتماعى بأسمى معانيه .. وأعترف أننى لم أفهم ولن أفهم علاقة الأبناء بآبائهم .. فبقدر الحب والحنان والعطف ورعاية الطفل صغيرا .. فهؤلاء الأطفال يتركون آبائهم بمجرد أن يصلوا الى سن ١٨ سنة وهو سن الرشد عندهم .

ـ كثير من الأبناء يرمون بآبائهم وأمهاتهم فى أحدى دور المسنين والعجزة ... ويزورنهم مرة فى كل مناسبة حاملين لهم باقات الورد !

مجتمعات لا تعرف الود أو المودة ... كل انسان يعمل لاسعاد نفسه .. لا يفكر الا فى نفسه ... ولهذا تفشت الأمراض النفسية ... وزادت حالات الانتحار .. كثير منهم لا يعرف أو لا يعترف بوجود الله سبحانه وتعالى ... الحياة المادية بكل مظاهرها ، وصورها سيطرت عليهم لن أنسى مرة وكنا فى رحلة الى موسكو ولننجراد نظمها البنك لبعض عملائه .. وكان معنا أبوان وابنهما الوحيد وكان لى سابق معرفة بهم .. ويعتبرون من أغنياء المدينة التى نعيش بها .. كنا قد توقفنا بموسكو أمام أحد المحلات لشراء بعض علب الكافيار الأصلية وأسعارها رخيصة جدا . بالمقارنة

بأسعار الكافيار بباريس والذى يصل ثمن الكيلو فيهـا الى أربعة آلاف فرنك لانتاج ايران وروسيا ٠٠ أما فى فرنسا فثمن الكيلو لا يزيد عن خمسمائة فرنك هذا بالاضافة الى أن السوق السوداء فى تغيير العملة فى روسيا تمطيك ثلاثة أضعاف السعر الرسمي للعملات الحرة ـ فقـد كان الروبل يساوى بالبنك مائة فرنك فرنسى ٠٠ أما فى السوق السوداء المنتشرة فى كل الشوارع والفنادق ٠٠ فالمائة فرنك تساوى ٣٥ روبل ! ـ المهم عندما دفع كل منا ثمن ما اشتراه وكان المسموح له هو علبتان فقط للفرد تزن العلبة الواحدة ربع كجم ٠٠٠ فوجئت بأن الأبـوين المذكورين قد تركا ابنهما الوحيد يدفع لنفسه ما اشـتراه ٠٠ فهو قد أكمـل بالأمس وأثناء وجودنا بموسكو وصل لسن الرشد أى ١٨ سـنة لم أفهم ولم أناقش ٠٠٠ ولكنى تساءلت فى نفسى كيف يكـون ابنا أما عن نظام التعليم فهو رائع الى أبعـد الحـدود ٠٠ لا يزيد عدد التلاميذ عن عشرين بالفصـل الدراسى ٠٠٠٠ واليوم الدراسى يبدأ من التاسـعة وحتى الثانيـة عشرة ثم فترة استراحة ساعتين لتناول وجبة الغذاء فى مطعم المدرسة ليعودوا فى الثانية وحتى الخامسة مساء ـ الطفل يتعلم فى البداية الألوان ٠٠ الرسومات ٠٠ صـناعة بعض الأشـياء اليدوية البسيطة ٠٠٠ ثم التربية الرياضية بكامل أنواعها فى الحوش الكبير !! يجمع الطوابع ٠٠ ويعرف أعلام الدول ويميز بينها ٠٠ يتعلم فقط النظام الطاعة ٠٠٠ الاحترام ٠٠ بالتشويق لا بالترهيب ٠٠ الشـعر ٠٠ النثر الأغانى الخفيفة الهادفة ٠٠ والقصص البسيطة المشـوقة المغرضـة الكتب الخاصة بالأطفال من سن ٣ سـنوات تمـلأ المكتبـات والمحلات العامة بصورها الجميلة والمشوقة وبأسعار زهيـدة جدا !

الطفل ينام فى تمام التاسـعة ليستيقظ فى السـابعة والنصف كل صباح عدا العطلات ٠٠٠ فى حجرة الطفـل بمنزل والديه ستجد رسوماته معلقة على الجدران ٠٠ بنظام

فهو يعتز بها .. أيضا سترى مكتبة صغيرة بها مجموعة كبيرة من القصص عن الحيوانات والزهور والأسماك بكافةالأشكال والأنواع والأسماء .. محور حياة الأم يدور حول طفلها .. له شخصية ورأى في اختيار ما يأكل ويلبس ولو استطردت في الحديث عن الطفل في المجتمع الغربى فلن انتهي ولكن باختصار أن شعار أطفال اليوم .. هم رجال الغد يطبقونه حرفيا كما يطبقون تعاليم الاسلام وروح الدين ، أى دين ..

ـ ومن أطرف المشاكل في فرنسا هي مشكلة الانجاب والمواليد . ولعل طرافتها تأتي من أنها تقف على النقيض مع المشكلة ذاتها في مصر ... فبينما نحن في مصر ننادى وننفق من أجل تحديد النسل وتقليل نسبة المواليد نجدهم في فرنسا يدفعون رشاوى مقنعة للآباء لكي ينجبوا وتستمد المشكلة خطورتها في فرنسا من أن تعدادها عام ١٩٠٠ كان خمسين مليونا ، واليوم أصبح أربعة وخمسين أى بزيادة قدرها ٤ مليون هم عدد الأجانب الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية وأنجبوا فيها . لذلك لا تندهش ، اذا عرفت أنهم يدفعون مرتبا شهريا لمن ينجب الطفل الثالث .. ويعطون مساعدات للأول والثاني .. الاعلانات والدعاية تحثهم على الانجاب وتحاول تنبيه الناس الى خطورة عدم الانجاب ... ففي عام ٢٠٣٠ سوف يحدث عجز كبير في نسبة الشباب من سن ١٨ وحتى ٤٥ سنة .. حسب ما نشر أخيرا من القوة العاملة .. بعد خمسين عاما سوف يكون عدد الأطفال بالاضافة الى الذين تجاوزوا سن المعاش هم الغالبية بالنسبة لعدد السكان ... مما يعني أنه لن يكون هناك شبابا في سن العمل والانتاج بالعدد المطلوب .. والحكومة قلقة جدا لهذا !

ولعل من أكثر المرافق الفرنسية كفاءة في عملها هو مرفق النظام الاداري الذى على الرغم من تشابهه كثيرا مع النظام الادارى المصرى في عدد الاجراءات الا أن الفرق

الوحيد يكمن فى سرعة الاجراءات هـــذه ٠٠ فاذا كان لك مصلحة مع الضرائب أو حتى مشكلة يكفى آن ترفع سـماعة التليفون لتحكى المشـكلة الى المامـور المختص بك وتنهيهـا تليفونيا ٠٠ أو على الأكثر سيطلب منك راجيا أن تبعث اليه برسالة عادية وسوف يصلك الرد خلال أسبوع على الأكثر !

ـ واذا كان مطلوبا لانجاز أى عمل بعض الامضاءات ، أو التصديقات ففى فرنسا تأخذ ساعة أو بضع ساعة ، بينما تستغرق فى مصر الأسابيع ان لم يكن الشهور ، وأخيرا والله أعلم علمت أنها يمكن أن تستغرق عمرك كله !

ـ وهذا النوع من المقارنة ، لا يعنى بحال من الأحوال ، تجنيا على الادارة المصرية أو تهجما عليها ٠٠ ولكنـه نقـد من قلب مصرى صميم ، عاش فى البلدين وتحسر لأن بلاده ماتزال تسير فى دوائر بيروقراطية مغلقة تقتل الطموح فى نفوس الشباب ، وتزرع اليأس والاحباط فى قلب كل راغب فى الاستثمار مصرى أو أجنبى على السواء ٠٠ وكلنـا من الصغير حتى الكبير وانت طالع يعى جيدا خطورة هذه المشكلة ولكن للأسف يظهر ٠ أن الأمر قد وصل الى مرحلة لا يمكن فيها أو معها لأحد أن يقترب منها !

ـ واذا كان صـحيحا أن الفرنسـيين ليسـوا مغامرين كالايطاليين أو الأمريكان أو اليهود أو حتى الشوام ، حيث يفضلون الأعمال المكتبية فى الشركات والبنوك ٠٠ الا أن نظامهم الادارى والاجتماعى أيضا يسـهل تمـاما طـريق التجارة والاستثمار لكل من يرغب فى العمل والنجاح شرط أن يكون مستعدا لاحترام القـوانين وأن يدفع للحـكومة بانتظام وباسـتمرار ما عليـه من ضرائب مبـاشرة أو غير مباشرة وبهذه الطريقة يمكنه أن يصبح مليونيرا أو بليونيرا ولا لوم عليه ٠٠ والضرائب هنا فى فرنسـا تصـل بعض شرائحها الى ٥٨٪ من الدخل العام ! ومعروف أن فرنسـا من الدول ذات النظام القاسى جدا ضريبيا ٠

ـ لو أردت أن أحدثك عن « الرشوة » كأشهر آفة يعرفها النظام الادارى فى بلادنا ، فهى موجـودة بدون شـــك فى فرنسا ، ولكن فى صورة أكثر تهذيبا وأقل جشاعة ، فهى تتمثل فى وجبة طعام بأحد المطاعم الشـهيرة ٠٠ أو هـدية عبارة عن كتاب قيم أو ورقة بردى من عند الدكتور/رجب ٠

ـ أما رجل البوليس الفرنسى ، فله من الاحترام أو قل من الخوف والرهبة فى نفوس الشعب ، مالا يمكن لانســان آخر أن يناله ، لأنه ممثل القانون الذى لا يقل فى ضراوته عن السيف البتار ٠٠ فلا أحد فوق القانون ٠٠ الناس كلهم أمام القانون سواسية من رئيس الدولة حتى المتسول ٠

ـ فرنسا ملك الجميع والجميع يحافظ عليها ويحترمها ويفخر ويعتز بفرنسيته ٠٠ انه ديجـول الذى رفـع وطبق شعار « تحيا فرنسا للجميع وفوق الجميع » ٠

كل انسان يعرف حقه جيدا ولا يتنازل أبدا عن حقـه ولكنه يعرف واجباته ويؤديها ٠٠ الكل يدافع عن الحقـوق والملكيـات العـامة ٠٠ اذا أخطأت مثـلا وحاولت أن تترك سيارتك فوق الرصيف أو على أماكن عبور المشاة ، أو كسرت اشارة للمرور فمن حولك من الفرنسيين يلفت نظرك فورا الى ما فعلته بعـد أن يؤنبك على فعلتك ، ويعطيك درسا فى الأخلاق ! لا يوجد عسكرى للمرور فى كل اشارة ٠٠٠ ولكن الجميع يقف احتراما أو قل خوفا حتى لو كانت فى الثالثـة صباحا ومن أجل المشـاة فلابـد أن تقف ! أما عن الادارة فاللامركزية هى فلسفة الدولة فهى تضع الخطوط العـامة والسياسات العامة فقط ، ولا تحشر أنفها فى كل شىء ٠٠

عطلة نهاية الاسبوع ، وسباق الخيل

السبت والأحد يومان مقدسان بالنسبة لغالبيةالفرنسيين، فبعد أسبوع من العمل الجاد ، حيث يعمــل الفــرد أربعين ساعة في الأسبوع ، وهذا هو الحد الأدنى لأى وظيفــة أما الحد الأدنى للأجور فهو حوالى أربعة آلاف فرنك ..

ــ فيها غالبا يهتم كل فرد بحديقة منزله بما فيهــا من بعض الخضروات .. وكثير من الزهــــور ... ويقضــيها البعض فى الريف الفرنسى خاصة فى الصيف والربيع . أما على مدار الســنة فبين المطاعــم ودور السينما ... وزيارة المعارض ، والمتاحف ، وممارسة الرياضة بكافة أنواعها .. أما عن سباق الخيل فهى لعبة شعبية للمراهنات والتسليــة ، ويتهافت الفرنسيون الى المقاهىالمتخصصة ليختاروا الأحصنة التى سيراهنون على فوزها بالترتيب ، بعد دراسة المجـــلات والصحف المتخصصــة التى تنشر الدراســات الحســابية ؛ والتقديرات ، والتوقعات .. فيمضون ساعات عــديدة فى دراسة تاريخ ، وأصل كل حصان من المشاركين فى الســباق لمعرفة الأفضل والأوفر حظا للفوز بالسباق ..

ــ من المضحك أنالبعض لا يتردد فى اللجوء الىالمنجمين، والدجالين الذين يعدون الناس فى بعضالمجلات بانهم قادرون

على التنبؤ بنتائج السباق ، وعلى توفير حظوظ الفوز بالمراهنات ويبقى يوما السبت والأحد يومين مقدسين بالنسبة للمراهنين الذين يحلمون خلالهما بثروات طائلة ، ويتبين بالنتيجة أنهم يخسرون أكثر مما يربحون فى المراهنات ٠

برغم ذلك فان عدد المراهنين فى تزايد مستمر وصل الى أربعة ملايين أسبوعيا ٠٠ وبالطبع فهذه اللعبة تدر أموالا طائلة على الدولة ، وتوفر للملايين أحلاما بالثروة !

هذه الصورة القريبة جدا من قلبى ، وواقع المجتمع الفرنسى ، والتى خبرتها بعد معايشتى له ما يقرب من خمسة عشر عاما ، عندما قدمت الى فرنسا لأول مرة ، تقودنى بطبيعة الحال للحديث عن أبناء الجالية المصرية الذين جاءوا الى فرنسا ، وعملوا بها وعاشوا فيها ، وارتبطت حياتهم الأسرية والاقتصادية بها ٠٠

ـ وبحكم موقعى القريب من القنصلية العامة بباريس باعتبارى رئيس اتحاد الجالية المصرية ـ سأضع هنا بعض الحقائق المزودة بالأرقام ، والاحصاءات ٠٠ مع تعليقنا عليها ٠٠ والمطالب التى نرى أنها تحقق الصالح العام لوطننا أولا قبل أن تكون فى صالح المغتربين أنفسهم ، ناهيك عن أنها تزيد من صلة الترابط بين المهاجرين ، وأرض مصر ٠٠ علما بأنه قد سبق لنا نشر بعضها فى الجرائد والمجلات ـ كما أنها دائما محور مناقشاتنا مع كبار المسئولين داخل مصر وخارجها ٠

فعدد المصريين هنا لا يقل عن ٣٠ ثلاثين ألف شاب مصرى وفتاة يعملون فى مجالات المطاعم والفنادق وشركات الديكور والاعلانات وقليل جدا يعمل فى وظائف حكومية ٠٠ أما الأعمال الحرة فعدد لا بأس به ٠٠ وعدد غير قليل أصبح يمتلك مطاعم صغيرة فى باريس وضواحيها ٠٠ وبالذات

المطاعم المتخصصة فى تقديم البيتزا الايطالية ··· بعد أن كان اليهود العرب هم أصحاب هذه المحلات ··

ـ فى بداية السبعينات كانت بداية الهجرة بأعداد كبيرة وكانت فرص العمل والنجاح متوفرة ·· وكل من حضر الى فرنسا قبل عام ٨١ حصل على حق الاقامة والعمل بعد العفو العام والاذن للمخالفين بتصحيح أوضاعهم من قبل رئيس الدولة بعد نجاح الاشتراكيين ووصولهم الى مقاعد الحكم التى افتقدوها منذ أكثر من أربعين عاما ·

ـ أما الذين قدموا الى فرنسا بقصد الاقامة والاستقرار ودخلوا البلاد بعد عام سنة١٩٨١ فهؤلاء يعيشون فى ظروف قاسية ·· ولا يملكون حق الاقامة أو الاذن بالعمل ·· وبالرغم من ذلك فهم يعملون فى أسواق العمل السوداء ·· ولكنهم معرضون فى كل لحظة للترحيل ·· بمجرد أن يعترضهم البوليس فى أى مكان ·· ومن يتم القبض عليه يقدم خلال ٢٤ ساعة الى المحكمة التى تأمر غالبا بترحيله فورا ·· خاصة بعد أن وصل عدد العاطلين فى فرنسا الى ثلاثة ملاين فى العام الماضى ·· بالاضافة الى عمليات الارهاب ·· والقاء القنابل والمتفجرات التى اجتاحت فرنسا فى صيف ٨٦ ·· وأشارت بعض الأصابع الى أن الجماعات والمنظمات العربية كانت وراءها ··· هذا بالاضافة الى حزب اليمين المتطرف بقيادة « لويين » وهو أحد مجرمى حرب الجزائر وهذا الحزب الذى ينادى بعودة فرنسا الى الفرنسيين ·· وعودة الأجانب الى بلادهم ··

يكسب أصواتا جديدة كل يوم نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة التى تمر بها فرنسا الآن كباقى الدول الأوروبية المجاورة ··· وفى الأنتخابات الأخيرة حصل هذا الحزب على ١٠٪ من الأصوات ·· ويتوقع البعض أن تزداد أصواته فى الانتخابات القادمة لتصل الى ١٨ أو ٢٠٪ ·· وللحقيقة والأمانة لا نستطيع أن نخفى أن البعض من أبناء الجالية

العربية يرتكب يوميا أفعالا وجرائم استفزازية للرأى العام الفرنسى ·· فتجد حوادث السرقة ، وقتل كبار السن بقصد السرقة أيضا ·· وجرائم الاغتصاب ! ·· والضرب والعنف غالبا يرتكبها عرب وبخاصة من شمال أفريقيا ، أضف الى ذلك المخدرات والدعارة ، والتهريب ثم أخيرا القنابل والمتفجرات فى المحلات العامة والشوارع ·· وللأسف الشديد انك تجد بعض المنظمات التى تسمى نفسها بالاسلامية أو الجهاد ·· تعلن أنها وراء هذه الأعمال ·· رغم أن التحقيقات تثبت أحيانا العكس ! وكأننا نفتخر بأننا ارهابيون وقتلة وسفاحون ·· ولن أنسى حادث الاعتداء على قطار بايطاليا راح ضحيته تسعون بريئا من الأطفال والنساء والشيوخ ·· وبعد ساعة من الجريمة تعلن منظمة ممن يسمون أنفسهم الألوية الحمراء الايطالية هى التى ارتكبت هذه الجريمة البشعة !

بالله عليكم أى صورة للاسلام هذه التى تقدموها للرأى العام العالمى ·· وأى مكاسب تحققونها للاسلام بهذه الأفعال الجبانة ـ الحمد لله أن الجاليات المصرية فى كل بلدان العالم لم تعرف العنف أو الارهاب أبدا ·· فالمصريون بطبعهم مسالمون ولا يبحثون الا عن تفوق أو نجاح فى غربتهم ·· ويحترمون جدا مشاعر الآخرين ، وصورتهم رائعة ومشرفة فى كل الأوطان الجديدة التى يعيشون بها وهذه شهادة نفخر بها نحن المصريين جميعا فى بلاد المهجر نعود الى الجالية المصرية فى فرنسا لنجد أن عدد المسجلين أو المقيدين رسميا لا يتجاوز عشرة آلاف فقط ·· فمازال البعض يخشى التسجيل أو القيد اما لانتهاء جواز سفره ·· أو لمشكلة التجنيد ·· أو لأنه مازال متأثرا بما كان يحدث حتى بداية الثمانينات بالقنصليات ·· لن أنسى أبدا أن أحد موظفى شئون المواطنين عام ١٩٨١ وكان ضخم الجثة وحاجا تعدى على أحد المواطنين بالضرب ، والركل داخل مبنى القنصلية بباريس ! وكان هناك فى ذلك الوقت موظف آخر

ينهى لك كل مشاكلك وكله بثمنه ٠٠ وكان يتردد بانتظام على احدى البارات بحى سان ميشيل وكان معروفا لكل المصريين ، وخاصة الوسطاء ٠٠ كان الاتفاق على جواز سفر أو رخصة قيادة مترجمة مثلا يتم فى هذا البار ٠٠٠ وكان معظم المقيمين هنا يعرفون هذه الحكايات ـ وفى لقائى بالدكتور / على لطفى وكان رئيسا للوزراء وعلى متن طائرة مصر للطيران المتجهة الى باريس ، وعندما تطرق الحديث عن أحوال الجالية من قبل واليوم ٠٠ أخبرت سعادته بكل هذه الموضوعات ، ولقد فوجىء بهذا الحديث ، وبهذه الصراحة والجرأة أمام مدير مكتبه !!

انه الواقع الذى كان يحدث ، ومازالت جوازات السفر المزورة مع بعض المصريين تشهد على ذلك ٠٠ هذه كانت الأسباب التى جعلت المصريين بالخارج يبتعدوا عن قنصلياتهم وسفاراتهم التى كانت مغلقة الأبواب والشبابيك ٠٠ عكس ما يحدث اليوم ومنذ ٦ سنوات تقريبا ٠٠ اليوم ٠

التقديرات الرسمية للمصريين فى الخارج والعائدين منهم خلال عام ١٩٨٧

وفقا لتقـديرات وزارة الهجـرة وشـئون المصريين في الخارج فان عدد العمالة المصرية في بعض الدول الاوروبية والولايات المتحدة تقدر كالآتي :

الدولة	الرقم
الولايات المتحدة	٢٠٠ ألف
كنـــدا	٦٠ ألفا
استراليا	٥٠ ألفا
بريطانيا	٧٠ ألفا
فرنسا	٩ آلاف
ايطاليا	٣٠ ألفا
النمسا	
اليونان	٢٧ ألفا
ألمانيا الاتحادية	٩ آلاف و ٥٠٠
سويسرا	
السويد	ألف عامل
أسبانيا	٢٥٠ عاملا
النرويج	٣٢٥ عاملا
المجموع	٤٦٥ر٧٧٥ مصريا

وبالنسبة للدول العربية ، فقد اشارت تقديرات وزارة الهجرة الى :

الدولة	التقدير	العمالة العائدة بالتقريب حتى نهاية ١٩٨٦
السعودية	٨٠٠ ألف مصرى	١٦٠ ألفا
الكويت	٢٠٠ ألف مصرى	٤٠ ألفا
الجزائر	٣٥ ألف مصرى	٣ آلاف
الامارات	١٥٠ ألف مصرى	
قطر	٢٥ ألف مصرى	٥ آلاف
عمان	١٢ ألف مصرى	ألفا مصرى
اليمن الشمالى	١٢ ألف مصرى	ألف و ٥٠٠ عامل
الأردن	١٢٥ ألف مصرى	—
السودان	٢٠ ألف مصرى	—
سوريا	١٥ ألف مصرى	—
موريتانيا	١٢٠ فردا	—
الصومال	٥٠٠ فرد	—
المجموع	٢ر٩٤٦ر٧٣٠	مصريا

احصائية وفقا للتقديرات الرسمية فى وزارة الهجرة هذا بخلاف نحو مليون آخر فى العراق •

وكان قرار انشاء وزارة للهجرة هو أول اعتراف رسمى من جانب الحكومة بأننا أصبحنا كباقى شعوب الأرض نهاجر ، ونبتعد عن أرض النيل والوادى ، بعد أن عشنا آلاف السنين ملتصقين به •

صحيح أن هجرة المصريين حديثة جدا بدأت فى الستينات بمجموعة من الأطباء ، والمهندسين الى الولايات المتحدة وكندا واستراليا ... ثم لحقت بهم أعداد كبيرة من الطلبة والشباب الى أوروبا فى بداية السبعينات ... وبعد ارتفاع أسعار البترول فى الخليج سافر آلاف المصريين الى هذه الدول العربية المجاورة وتجاوزوا الملايين وكانوا خليطا من كل شرائح المجتمع المصرى ...

ولابد لنا أن نعرف أن مشاكل المصريين وموضوعاتهم مختلفة تماما من : الولايات المتحدة الامريكية وكندا وايطاليا ... الى أوروبا .. فالدول العربية مختلفة فى نوعياتها وظروفها وبالتالى فطريقة المعالجة يجب أن تكون مختلفة أيضا .. والبعض منا يضع المهاجرين والمغتربين جميعا فى سلة واحدة !... فمهاجر الأمريكيتين واستراليا مشاكلهم تتركز فى الجيل الثانى من أبناء وبنات وصلوا الى سن الرشد ولا يتحدثون العربية ... ومشكلة الزواج لبناتهم .. ثم أخيرا وبحكم أنهم فى الغالب كونوا ثروات كبيرة جدا .. فكثير منهم يرغب فى استثمار البعض منها على أرض مصر التى ولد عليها .. يستعيد ذكريات الطفولة ... وشريط شبابه .. وحياته التى أفناها بعيدا عنها وفى خدمة وطن آخر ؟!

أما عن النوع الثانى من المهاجرين فهم الذين يعيشون بالدول الأوربية من اليونان شرقا الى انجلترا غربا مرورا بايطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا .. هؤلاء من الشباب الذين واجهوا ظروفا قاسية وفى غاية الصعوبة ... فهم قد وصلوا فى ظروف اقتصادية صعبة تمر بها أوروبا .. لا يتحدثون لغاتها .. ولا يحملون سوى شهادات نظرية لا قيمة لها .. لا تسمن ولا تغنى من جوع .. جوازات سفرهم مقصورة الصلاحية .. ومشكلة التجنيد تلاحقهم .. وليس معهم عقود للعمل .. وخلاصة لا حاجة لهم فى المجتمع الغربى .. رغم كل هذه الصعوبات وهم عزل دون أى سلاح

•• استطاعت الغالبية منهم أن يشقوا طريقهم ويفسحوا لأنفسهم مكانا بالمجتمع الأوروبى •• واستطاع قليلون أن يحققوا ثروات فى ظل هذه الظروف •• وان كان الطريق اليوم أصعب ألف مرة من عشر سنوات مضت وأصبح من شبه المستحيل أن تجد مكانا لمهاجر جديد فمازال البعض يأتى أو يفكر فى الحضور هربا من المعاناة داخل مصر ••• ونسى أنه لو اجتهد وعمل عشر ساعات يوميا كما هو الحال هنا فسوف يكون أسعد حالا رغم كم المعاناة من الحياة التى يحياها كثير من الشباب فى ايطاليا واليونان وفرنسا •• فبعض الشباب المصرى فى ايطاليا يعيش فى السجون •• فى الزنزانات ••• فهم لم يجدوا فرصة عمل •• فانزلقوا الى جرائم الاتجار فى المخدرات ! وهذا لا ينفى أن هناك من الناجحين •• والنابغين •• والذين يحتلون أماكن متقدمة فى صفوف المجتمع الأوروبى الكثيرون ••• وباختصار فمشاكل مهاجرى أوروبا تتلخص فى التجنيد •• تصاريح العمل •• والاقامة الشرعية ••

أما النوع الثالث وهم المغتربون بالدول العربية وعددهم كبير جدا ويصل فى بعض التقديرات الى أربعة ملايين •• فهذا العدد الكبير معظم مشاكله هى التحضير للعودة الى الوطن الأم •• فمشكلة الحصول على شقة •• ثم معادلة الشهادات لأبنائه •• واجراءات العودة الى الوظيفة أو البحث عن مشروع لاستثماراته ••• وقضايا الروتين المصرى التى نعرفها جميعا •• ثم تصاريح العمل للعائدين بعد انتهاء أجازاتهم ••• هذه باختصار أهم المشاكل لكل نوع من أنواع المهاجرين والمغتربين •• وللحقيقة مرة أخرى نقول ان وزارة الدفاع المصرية مشكورة بعد أن وضحنا فى أكثر من لقاء وبالكتابة الى السيد / المشير بخصوص مشكلة التجنيد للمهاجرين الذين اكتسبوا جنسيات جديدة ومازالوا محتفظين بالجنسية المصرية ، طبقا للقانون المصرى والذى يسمح بازدواج الجنسية •• فقد صدر قانون نشر بجريدة

الوقائع وهي الجريدة الرسمية للدولة فى أكتوبر سنة ٨٦ « يعفى من أداء الخدمة العسكرية كل مصرى تجنس بجنسية أجنبية ، وبالتالى يعفي الأبناء أيضا » وهـذا يعنى أن كل مصرى مزدوج الجنسية أصبح معـافى نهائيـا من الخـدمة العسكرية ، الا اذا زال السبب طبعا وفقد الجنسية الأخـرى لسبب أو آخر وللأسف أن كثيرا من المهاجرين يعلم بهـذا القانون الجديد ٠٠٠

ـ اذا كنا ننتقد أحيانا ، ونقسوا فى النقد كثيرا ٠٠٠ فان ما يشفع لنا ، أننا نصر على أن نعطى كل ذى حق حقه ، ونحيي دائما كل عمل جليل وبناء ، وننحنى لكل غاية نبيلة من أجل مصرنا الغالية ٠٠ ولأننـا ندرك بحق أن المصريين بالخارج ثروة لا يستهان بها ، فهم سـفراء بلادهم فى كل مكان ، وليسوا أقل وطنية من اخوانهم بالداخل ، فعشـقهم لمصر قد تضاعف بالبعد عنها ، يتألمون بل يتحسرون عـلى أنفسهم وعلى وطنهم وعلى حالنا الذى وصلنا اليه ، والغيرة تأكل قلوبهم فى كل مقارنة عادلة ٠٠٠ وما اجتمع مصريان فى الغربة الا وكانت الأسئلة عن مصر ولماذا وقفنا محلك سر ، بل بدأنا نتقهقر ؟ وما هو المطلـوب منا كمغتربين ؟ وما هى مطالبنا من الدولة ؟ وقبل أن نبدأ الاجابة عن هذه الأسئلة ، لابد لنا أن نشير الى نداء رئيس الجمهورية بالصحوة الكبرى ٠٠٠ الصحوة التى حدثنا عنها حسنى مبارك « هى حكمة العقل حين تنشط وتتوهج ، وتندفع الى العمل الجاد ٠٠ الهادف ٠٠ صحوة الشعور بالواجب التزاما ، وأداء ، وسعيا الى الكمال ٠٠٠ صحوة الضمير ٠٠ صحوة الفـكر المستقيم بعيدا عن المناورات أو المزايدات ٠٠٠ صحوة القيم والفضائل ، وتعاليم الأديان تقودنا الى الطـريق السليم ، وتحمى خطواتنا نحو الهدف الصحيح » ٠

ـ ومن هذا المنطلق ، ووعينا ، وتقـديرنا للمسئولية أمام أنفسنا ، وأمام الأجيـال القـادمة ، وأمام التـاريخ ، وأمام الله ٠٠٠ ومن أجل مصر ٠٠٠ واذا كنا نعترف بأن

مشاكل مصر غير تقليدية ، وأن الحلول لهذه المشاكل يجب أن تكون غير تقليدية ـ فاننا نضيف هنا بأن العقول يجب أن تكون غير تقليدية حتى يمكنها تحجيم المشاكل ، ووضع الحلول الصحيحة والواقعية لتطبيقها ·· للوصول الى أفضل النتائج ·· بأقل خسائر ممكنة ··· ولكن هذه الاسباب وغيرها ، وحتى يصبح نداء الصحوة الكبرى حقيقة واقعة ولا يتحول الى شعار من شعاراتنا نتغنى بها ·· فاننا نطالب بالآتى :

١ ـ ألا يفوتنا عند اختيار وزير الهجرة أن يكون من الذين عملوا بالخارج (سفيرا ·· قنصلا ·· مستشارا سابق مثلا) أو أحد رؤساء المصالح أو الادارات التى تتصل أعمالهم بالمغتربين كمصلحة الهجرة والجوازات والجنسية مثلا ، أو حتى الذين عاشوا أو يترددون لفترات على الدول الأجنبية ويتحدثون لغاتها ·· أو بعضا منها !

فغير جائز على الاطلاق أن يكون الوزير الذى يمثل المهاجرين والمغتربين جاهلا بموضوعاتهم مشاكلهم ، وأمورهم المختلفة والغريبة وكيلا لوزارة الرى مرة ، ومرة أخرى لمجرد أنه دافع فى احدى القضايا عن أقارب المسئولين ··· (كما يقال فى المجالس الخاصة) ·

ـ ومع كل احترامنا ، وتقديرنا لهؤلاء الأشخاص الذين ربما يكونوا من أصلح وأكفأ الناس فى الداخل ·· ولكن للمهاجرين والمغتربين مشاكل وموضوعات وتجارب لا يمكن فهمها أو استيعابها وتخيلها أو معالجتها الا لمن عاش مثل هذه التجارب أو بالقرب منها ··

٢ ـ اذا كان العمال والفلاحون ممثلين ب ٥٠٪ فى مجلس الشعب وكان ذلك صحيحا فى حينه لعدد العمال والفلاحين وظروفهم ·· وأهميتهم ·· فاننا يجب أن نعترف اليوم بأن المصريين بالخارج أصبحوا قوة حقيقية واقعة ،

يفتقدون القنوات الشرعية والسليمة للتعبير عن مشاكلهم وموضوعاتهم وما يهمهم فلماذا لا يمثلون بمجلس الشعب من خلال العشرة أعضاء المعينين ـ وقد سبقتنا المغرب فى ذلك ، وأصبح للأخوة المغاربة المهاجرين ممثلين بمجلس الأمة المغربى .. هم الآن لسانهم، ومقدموا اقتراحاتهم ، ومصيغوا مشروعات القوانين التى تخصهم أو تمسهم .

وقد سبق وناقشنا هذا الاقتراح أكثر من مرة مع كبار المسئولين الذين شرفونا بلقاءاتهم بباريس ، وكانوا مؤيدين لهذا الاقتراح ، وأقروا معنا عدالة مطلبنا .

لابد من الغاء قانون تصاريح العمل والذى أثار بلبلة، واشاعات ، وغضب المغتربين ليس للمبالغ المدفوعة ، ولكن من طريقة التطبيق والأسلوب فى المفاصلات وتسعير الشهادات ، والتقديرات الجزافية أحيانا لعدد السنوات واجبة الدفع .. وعدم العدالة فيه ، فأصحاب الأعمال فى الخارج من المصريين لا ينطبق عليهم هذا القانون وأنا واحد منهم ، أما من يعمل بأجر بسيط ويعانى مشاكل كثيرة ومختلفة فالقانون ينطبق عليه ، وبالتالى وللمساواة والعدالة نعيد اقتراحنا كبديل لهذا التصريح ومشاكله .. أن يدفع كل مصرى بالخارج خمسون دولارا سنويا فى صورة طابع دمغة يلصق على جواز السفر كل عام ، ويباع فى القنصليات والمطارات ، والموانى بمنتهى البساطة ويملأ المواطن بطاقة بياناته أيضا ربما تحتاجها وزارة الداخلية ، وسوف نعود الى هذا الموضوع لتوضيح هذا القانون وفهم المسئولين له .

٣ ـ يجب أن يكون هناك مكتب متخصص فى عرض المشروعات للمهاجرين والمغتربين يقوم بشئونه بعض الرجال المؤمنين بالقضية الوطنية ، ويكون تابعا لوزارة الهجرة مثلا ـ وتكون مهمة هذا المكتب فقط هى :

(أ) عرض المشروعات التى يمكن للمغتربين استثمار

مدخراتهم أو بعضها فيها ، على أن تكون مشروعات مدروسة الجدوى ، وفى كل المجالات الزراعية ، السياحية، الصناعية ٠

(ب) أن يقوم هذا المكتب بانهاء وتخليص كل الاجراءات والموافقات والتصريحات والأذون ٠٠ بحيث أن المغترب بعد اختياره للمشروع المناسب له من المشروعات الكثيرة والمختلفة والمدروسة الجدوى ، يدفع المغترب شيكا بالثمن المطلوب حسب نظام الدفع فى كل مشروع ، وشيكا ثانيا بالمصروفات التقديرية لانهاء كافة الاجراءات من موافقات ، وأختام ، وامضاءات ، وأهمية ذلك تتضح عندما نعلم أن بعض المشروعات تستلزم ١٨ موافقة من جهات مختلفة ٠٠ وقبل أن تستطيع الحصول على الموافقة رقم١٢ مثلا، تكون الموافقة الأولى قد انتهت مدة صلاحيتها ، وهذا ما تعرض له زميل مغترب فى اقامة مشروع سياحى بأحد المناطق على الساحل الشمالى ، والذى يمتد بطول ٤٥٠ كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكان عليه أن يحصل على موافقة السياحة، والزراعة والكهرباء ، والرى، والصرف، والطرق والكبارى. والمخابرات ، والآثار ، وهيئة الاستثمار ، و ٠٠ بعد باقى الاجراءات التى يمكن الا تنتهى فى شهور أو سنين ، وبعد الوساطات ، والاكراميات ، ومالا نسميه رشاوى ، بعد كل ذلك عاد من حيث أتى بعد تأنيب ، وسخرية من حوله على جنونه بمحاولة العودة الى مصر ، والاستثمار فيها ٠

وحينما تسمع بعض تجارب المغتربين الذين حاولوا الاستثمار فى مصر وعادوا فاشلين فى محاولاتهم ، وما تعرضوا له من عمليات بيروقراطية ، وتعقيدات ادارية من موظفين صغار أو من كبار صغار الموظفين لا يمكن أن نصدق أن هذا يحدث فى بلد يعانى اقتصادها الأمرين ، وأبناؤها بمدخرات عرق السنين التى قضوها فى غربة دفعوا غاليا ضريبتها ، تضرب كفا بكف ، وقلبك يدمى على هذا البلد المسكين الذى يذبح بأيدى بعض فاقدى الضمير ، وقليلى الثقافة ، وضيقى الأفق ، وهم يتحكمون فى مصائر الناس

ومصير بلدهم ٠٠ وللأسف الشديد أنه يبدو أن الحكومة بكل ما تملك تقف مكتوفة الأيدى ، ولا تستطيع أن تفعل شيئا ٠٠ ٠٠ واذا كانت تستطيع فماذا تنتظر ؟ ولمصلحة من ؟

واجب الدولة اليــــوم أن تفتح الأبواب الموصـــودة ، والنوافذ المغلقة لكل مغترب يرغب فى استثمار مدخراته أو بعضها ٠٠ وليس من العدل أو الانصاف أن نقول ان المغتربين هم العازفون عن الاستثمار فى وطنهم ٠٠ وأن الدولة هى التى تطالبهم وتمد أيديها لهم ٠٠ هذا الكلام خاطىء ومناف للحقيقة ، ومطلب المغتربين اليوم هو الاستثمار فى بلدهم مصر ولكن كيف ندخــل ؟ والأبواب مغلقة ٠٠ والقنوات مسدودة ٠٠ والدولة مازالت ترفع الشعارات (أنظروا الى التغيير الكبير والملموس فى مسار مدخراتهم والتى أصبحت تصب فى الجهاز المصرفى ، ولا مجال اليوم لتردد أى فئة ٠٠ بعد قرار انشاء السوق المصرفية الحرة ٠٠ ولكن لايهمنا التحويلات التى تتم من أجل الانفاق كشراء سيارة أو مساعدة الأسرة) ٠

مايجب الاهتمام به هو النوع الثانى من التحويلات وهى التحويلات الرأسمالية بقصد الاســـتثمار فى المشروعات التى يجب أن تطرحها الدولة ٠٠ وهذا يلزمه ولن يتحقق الا بوجود المكتب المختص كمـــا سبق وأشرنا ، فهذا المصرى اذا كنا قد اقتنعنا أنه بالقطع اليوم سيفضل بيع مايحــوزه من عملات أجنبية للبنوك ، وليس لتـــاجر العملة (حتى لو كان هنـــاك فارقا بسيطا) لأنه وجد السعر المعلن الحقيقى الواقعى ٠٠ فان هذا المصرى نفسه سيفضل الاستثمار داخل بلده ، ويزيد من تحويلاته ، فهذا هو ما يحلم به ، ومن أجله تغرب والأمر هنا ليس مجالا للتغنى بأحاديث الواجب وأناشـــيد الوطنية ، أو التباكى على مايحــدث لاقتصـــادنا ٠٠ هــذا كله حديث غير مجدى ، ولذلك فان المواجهة الواقعية ، والتعامل مع الحقائق هــو فقط مايمكن أن يغير حالنـــا ٠٠ فالمصريون بالخـــارج والداخــل يملكون مدخرات بالنقــد الأجنبى قل أن تتوافر مثلها فى دولة نامية غير بترولية !

وربما يغنينا ذلك عن اقتراح بيع القناة ، أو الاقتراح بزراعة المخدرات لأجل تصديرها ·

تصاريح العمل :

ماهى قصة هذا القانون ؟ وماذا حقق ؟ وماهو البديل؟

ـ هذا القانون الذى صدر عام ٥٨ لا عتبارات أمنية فى ذلك الوقت مقتضاه أنه : «يحظر على المصرى أن يعمل لـدى هيئة أو شركة أو منظمة أجنبية الا بعد الحصول على اذن من وزارة الداخلية بعد أن يدفع الرسوم المقررة » ·

وقد ظل هـذا القانون حبيس الادراج لا يطبق الا فى الداخل فقط ، وفجأة عام ٨٣ تنبه أحد النبهـاء والعباقرة الى أن هناك فجأة عددا كبيرا من المصريين بالخارج لا يطبق عليهم هذا القانون المنسى ، وخرج به ملوحا ليدخل لخزانة الدولة ٠٠٠ ر٨٠٠ر١ مليون وثمانمائة ألف جنية مصرى ، بتطبيقه على العاملين بالخارج من وقت خروجهم ، فهناك من دفع عن عشر سنوات ٠٠ وبالطبع لم نسأل رأينا فى الموضوع وكنا موجودين بالمؤتمر بالقاهرة ، وبعد عودتنـا ، ودون علمنا طبق هذا القانون ، ووقف المغتربون فى طوابير طويلة ضيعوا فيهـا بعضا من أجازاتهم ومنع البعض من أجازاتهم ومنع البعض من السـفر ، وسرت الاشـاعات بين المغتربين وامتنع البعض عن زيارة وطنه وأهله ، وكثرت الشكاوى ، والبعض أساء استعمـال السلطة فى تطبيق هذا القـانون ، ودافعت أقلام جريئة فى الصحافة المصرية ، وشبع أحمد رجب تريقه فى الأخبار على الموضوع ، وقابلنـا بعض المسئولين ، وكتبنا فى الصحف والمجلات ، وقدمنا البدائل والاقتراحات ولم يسمع لنا أحد ٠٠٠

وفى احدى المرات وكنت فى زيارة للقاهرة ومع بعض المسئولين أخبرونى أو قل أفهمونى أن هذه القضية لا يمكن لأحد حلها سوى وزير الداخلية وعلى الفور توجهت الى وزارة الداخلية فى شهر يونيه الماضى ، قـاصدا الحصول على موعد

مع السيد / الوزير لشرح هذه القضية التى تهم خمسة ملايين ومقدما البـديل والحل العملى ٠٠ والحقيقة أننى لم أجـد صعوبة فى مقابلة السيد الوزير فى الحال ٠٠٠ وبعد كوب من الليمون البارد ٠٠٠ وباختصار شرحت المشـكلة وقدمت الاقتراح البـديل بأن يدفع كل مصرى خمسـين دولارا فى صورة طابع دمغة يلصق عـلى جـواز السـفر ، ويباع فى القنصليات والمطارات والمـوانى ، بعـد ملأ الاسـتمارات المطلوبة من بيانات للداخلية ٠

وفوجئت بالسيد / وزير الداخلية وهو يقول لى بالحرف الواحد : ماأنت مصرى ، وعارف اننا شطار فى التزوير ، والطابع ده حيتزور ٠

فانفعلت ولكن بأدب شديد قلت للسيد الوزير بأن أوراق البنكنوت يمكن تزويرها ولم يطالب أحد بالغائها ٠٠٠

ورد السيد الوزير بأننا لن ندخل فى جدال ، وما على الا أن أقدم مذكرة للسيد / اللواء المختص بتصاريح العمل ٠

وقبل أن أنهض من مقعدى طلبت من السيد الوزير أن يزور الجاليـة المصرية بفرنسا ليطمئن إلنـاس ويشرح لهم وجهة نظر سيادته ٠

فابتسم السيد / الوزير وقال هل زاركم كل المسئولين ، وباقى وزير الداخلية ؟

ـ قلت : نعم فقد اجتمعت الجالية بالسيد / كمال حسن على ، والدكتور / عصمت عبد المجيد ، والدكتور / المحجوب ، والدكتور / بطرس غالى ٠٠

فطلب سيادته أن نبعث له بدعوة رسمية ٠

وبالفعـل اجتمع مجلس ادارة الاتحـاد بحضور السفير القنصل العام / رفيق صلاح الدين وأرسلنا عن طريق الحقيبة

الدبلوماسية دعوة رسمية ٠٠ ولم يصل رد من السيد الوزير منذ العام الماضى لا بالايجاب ولا بالرفض ٠

وكان الله فى عونه مع ما تتعرض له مصر من عمليات ارهابية جبانة ، تحاول النيل من الاستقرار والأمان الذى عشنا فى كنفه الآف السنين ٠

أصبحت ــ ورفاقي ــ ندمن حب مصر ، لا يخلو السمر الا بالحديث عنها ، واذا بدأت المناقشات هادئة ، طيعة ، لاتنتهى الا عند مصر فى حماس آحيانا ، وفى خلاف غالبا ٠ نعم نحن بعيدون عن مصر ، لكن ماتزال قلوبنا تنبض بحبها ، ونكاد نفاخر بعضنا البعض فى الالمام بأخبارها ٠٠ وعلى الرغم من سنوات الهجرة الطويلة ، والتنقل بجوازات سفر أخرى ، وسهولة ويسر متطلباتنا فى الأوطان الجديدة ٠٠ فمصر هى القيثارة التى نترنم على أنغامها ، بالحب والامتنان والوفاء ٠٠ فى كل مقابلة ٠٠ وفى كل اتصال هاتفى ٠٠٠ وفى كل وقت الكل يسأل عن مصر وأخبار مصر ٠٠ واذا عاد أحدنا من زيارة اجتمع حوله كثيرون للسؤال عن مصر ، والظروف والأحوال ٠٠ وباختصار ما اجتمع مصريان فى الغربة الا وكانت مصر حديثهم ــ هؤلاء الخمسة مليون مصرى الذى ولد معظمهم مع الثورة وتكسرت آو تحطمت أمالهم وأمانيهم فى ٦٧ ٠٠ وخرجوا من مصر يجرون عار الهزيمه ، وحقيبة من علب الفول والقراقيش ، وستة عشر جنيها استرلينيا ،وجواز سفر لا يحتوى الا على بضع صفحات ٠٠٠ هذا الجيل الذى ظل صامتا وهو يعمل ليل نهار ويدفع ضريبة الغربة ٠٠ وكان الجميع يديرون ظهورهم له ، ثم بدآ البعض ينظر اليهم على أنهم محظوظين بجبال الذهب والفضة بالخارج وما على الواحد منهم الا أن يتوجه فى الصباح الباكر ليقطع لنفسه ما يشاء !

هذا الجيل الذى يسميه البعض بمفقودى حرب ٦٧ ٠٠
هذا الجيل سيظل الى متى صامتا كباقى اخوانه من الصامتين؟

والى متى لا نسمع رأيه ، أو نخبره بالحقيقة ؟ الى متى سنظل نتجاهله وكأننا لا ندرك أنهم فى الشطر الثانى من أعمارهم ؟ وأصبحوا رجالا قادرين على حمل المسئولية والمشاركة فيها ·· أم أننا مازلنا ننظر اليهم على أنهم عيال والى متى ؟ وأى سن تعتبرون فيها الانسان رجلا ؟ هل ننتظر الى سن الخمسين أو الستين كى تعترفوا بنا ؟ أيها السادة العيال بتكبر دون أن تشعروا ·· أو تلقوا بالا لهم ! بالله عليكم هذا الشاب الذى ينهى دراسته فى العام الثانى بعد العشرين ثم ينتظر الاحسان منكم بالتعيين بعد ثمانى سنوات ··· أنتم لستم فى حاجة اليه ·· وهو لا يغنيه من جوع هذا المرتب ونقف متفرجين وكأننا لسنا المسئولين ·· القطاع العا ·· لا مساس به ·· وتكفير من يناقش المكاسب العمالية ·· ٥٠٪ عمال وفلاحين بمجلس الشعب ··· لا جدال فى المكاسب الاشتراكية ··· التعليم مجانا ·· لا مناقشة فهو كالماء والهواء حتى الماجستير ··· الغش الجماعى·· نأسف لهذه الظاهرة ··· الفساد والرشوة ·· نحن لا نتدخل فى أعمال القضاء ··· الروتين والبيروقراطية ·· وماذا تفعل الحكومة ؟ فصغار الموظفين هم السبب···

- تزوير الانتخابات ····· هذه ادعاءات المعارضة ···
- الانفاق الحكومى ····· أقل بكثير مما سبق ····
- وزارة الدفاع ····· لايجب اقحامها فى أى حديث ···
- تحدى الرأى العام فى تعيين شخصيات معينة ···· مثال ؟ ·····
- سبب الهزيمة فى ٦٧ ؟ بعد عشرين عاما اليوم ···· لا أعرف ····
- هل لدينا مشروع قومى ؟ ····· نعم ·····
- ماهو ؟ ·········· الانتاج !

كان هذا الحديث مع مسئول لا يرغب فى الدعاية لنفسه بذكر اسمه ·· وقد تعجبنا من المنطق ، والاجابات القاصرة ، والاستخفاف بعقول الناس ··· ولم نهتم كثيرا بكل ما قاله ، ولكن توقفنا فقط عند المشروع القومى ·· فقد تذكرنا أن عبد الناصر كان له مشروع قومى هو « الحرب » صح أم خطأ فهذا ليس مجاله ··· وكذلك السادات كان له مشروع قومى هو « الانفتاح » صح أم خطأ فلا يهمنا الآن ·

لكن حسنى مبارك اذا كان مشروعه القومى هو « الانتاج » فلن ينجح الا بأن يحول هذا المشروع القومى الى « هدم الروتين » ويمكنه أن ينجح بعد ذلك فى الانتاج ·

★★★

لقــــاء ···

ستظل باريس نقطة ساخنة جدا لكل الأحداث التى تجذب اليها كافة المسئولين حتى لو كانت الزيارة بقصد المشتريات أو للشوبينج كما يقولون ··· فقد كنا كاتحاد للجالية المصرية ننتهز كل فرصة لدعوة كل مسئول من هؤلاء ·

ولن ننسى أبدا أن مقابلتنا مع السيد / وزير التعليم العالى لجمهورية مصر العربية فى عام ٨٦ ، وكان زميلا وصديقا لاحدى أعضاء مجلس ادارة الاتحاد ، فتفضلت السيدة الزميلة مشكورة بدعوته على عشاء بأحد الفنادق الباريسية ·· وحضر معنا السفير القنصل العام / رفيق صلاح الدين والقنصل المستشار / علاء رزق وأعضاء المجلس وكنا خمسة عشر عضوا ··· وكنا نحسب أننا سنخرج من هذا اللقاء مطمئنين الى أن مصر بخير ، والمسئولية فى يد مجموعة من الخبراء والأساتذة والمتخصصين ، كما سبق وخرجنا من لقاءاتنا مع السيد / كمال حسن على ، والدكتور عصمت عبد المجيد ، ود· بطرس غالى ، ود· رفعت المحجوب ···

وسوف أقص عليكم حرفيا ما حدث فى هذا اللقاء :

بدأ السيد وزير التعليم العالى لجمهورية مصر العربية حديثه الذى استمر ساعة من الزمن يحكى فيه عن جريدة الوفد وكيف هبط توزيعها ··· وكيف أن هذه الجريدة جعلت من الصعب جدا على حسنى مبارك أن يجد شخصا يقبل أن يكون وزيرا ، ولكنه وافق فقط على أن يكون وزيرا لأنه تساءل مع نفسه وماذا بعد ؟ فى هذه العمر ، وبعد أن كسب كثيرا من مكتبه الخاص ، وبعد أن عاش بأمريكا ، وبعد أن أصبح أستاذا ···

ـ وسألنا السيد الوزير : هل تعلمون كم مرتب الوزير ؟ سوف تضحكون ··· واستطرد ليعود الى جريدة الوفد التى اتهمته بشراء سيارة فولفو خضراء وانه لا يحب السيارات الفولفو ··· وكيف اتهموه بأنه بدل أوراق الحائط بمكاتب الوزارة ·· ثم قال : أنا كنت اليوم مع وزير التعليم الفرنسى وطوال الوقت كنت أتلفت يمينا ويسارا والى السقف وأنا أرى كل المفروشات والديكورات الفخمة جدا ، وأقارن ما تقوله الوفد عنى من تغيير أوراق الحائط ··· حضراتكم عارفين ان الوزارة تقع فى مبنى بالجيزة عبارة عن بعض الحجرات ، ولن أحدثكم عن الأثاث الموجود بها ·· وظل يتحدث عن أنه عضو باللجنة الاقتصادية بمجلس الوزراء بصفته أستاذا للاحصاء ·· وعن المبالغ التى كان يتكسبها قبل أن يصبح وزيرا ··· واستوقفه أحد الزملاء ليطلب من سيادته أو يرجوه أن يأكل طبق السلطة ··· فالجرسون ينتظر ليقدم لنا الطبق الثانى ··

وقبل أن ينتهى باغته زميل بسؤال حول سياسة مصر فى مجال التصدير ، والصعوبات التى يواجهها المصدرون ؟ بصفته عضوا باللجنة الاقتصادية كما ذكر ··· وأجاب سيادته بأنه نما لعلمنا أن الفلاحين يحرثون الأرض بما فيها من محصول الطماطم هذا العام ، وأضاف ··· أن كبار مربي

الماشية يرمون بالألبان فى الترع ٠٠٠ وأن الدولة مهتمة جدا بهذا الموضوع وسوف تتم قريبا تسهيلات كبيرة للمصدرين ٠٠٠

وسألت سيادته : عن سياسة الدولة فى مجال التعليم ؟

فقال سيادته بأن الدولة تعيد النظر فى سياسة التعليم كلها٠٠٠ وكان هناك مشاكل كثيرة جدا للمعيدين والمدرسين استطعت بحمد الله تجاوزها ٠٠ وتساءل سيادته هل تعلمون كم يكلف الدولة كل طالب فى المدينة الجامعية التى يدفع فيها شهريا خمسة جنيهات للاقامة والمأكل ؟

هل تعلمون أن الطالب الواحد يكلف الدولة شهريا مائة جنيه مأكولات فقط ، وكمان مش عاجبين ٠٠٠ وأحيانا الطلبة تغضب عن أكل الارز لأنه وحش ، ومرة الفراخ فيها دم ،٠٠ وعلى كل حال نحن لن نقف مكتوفى الأيدى ونحن الآن ندرس بعض الاجراءات التى لا يمكن لى الافصاح عنها ٠٠٠ ولكن سوف نلتف حول الطلبة بطريقة معينة بحيث نستطيع زيادة مواردنا ٠٠ لتقليل التكاليف ٠٠٠ وهنا تدخلت السيدة / حرم المستشار القنصل العام بعد أن استفذتها كلمة سوف نلتف حول الطلبة بطريقة معينة ٠٠٠ لتقول للسيد الوزير وبدلا من الالتفاف حول الطلبة ٠٠٠ لماذا نظل مصرين على مجانية التعليم ؟

ولماذا لا ننشىء جامعة أهلية أى بالمصروفات ؟ للقادرين ٠٠٠ أجاب السيد / الوزير بأنه مقتنع تماما ٠٠٠ ولكن الناس غير متقبلة هذه الفكرة ٠٠ وسألت السيد / الوزير :

ولماذا لا نهتم بالتعليم الفنى بدلا من التعليم النظرى ٠٠ ونحن نعلم مدى حاجتنا الى فنيين ومدربين ٠٠٠ ولسنا فى حاجة مطلقا الى خريجى الجامعات ٠٠٠ وضحك السيد الوزير ليقول :

على حد قول بعض زملائى بمجلس الوزراء هناك وزير للتعليم العالى وآخر « للتعليم الواطى » يسأل فى ذلك ٠٠٠

وقهقه السيد وزير التعليم العالى لجمهورية مصر العربية على النكتة التى ألقاها ...

وتلفتنا بعضنا البعض ... والعيون تملؤها حالة من الاستغراب والدهشة لكل ما قاله السيد الوزير ... ثم النكتة التى قهقه وحده لها .. مع ابتسامة من السيدة حرمه والتى حضرت معنا هذا العشاء .

واستمرت المناقشة ولكن بسخونة شديدة من جانب الحاضرين ، واستجواب من السفير القنصل العام للوزير عن سياسة مصر الاقتصادية .. وعدم ثبات القوانين والمتغيرات التى تحدث يوميا .. وعدم الثقة والشك .. والتقلبات .. والهزات .. والوزير يجيب اجابات تافهة ... والسفير القنصل العام يقاطعه .. وتدخلت بسؤال ثالث ... فاستوقفنى الوزير بحجة أن أعطى الفرصة لغيرى من الحاضرين للسؤال ..

وانصرفنا فى منتصف الليل .. وفى الصباح الباكر اتصل بى السفير القنصل العام ليطلب منى صورة لتسجيل ما دار بالمناقشة .. وحينما سألته عن السبب أخبرنى ضاحكا أن السيد الوزير قد شكى منا .. واتهم القنصل العام بأنه يتحامل على الحكومة !

وكانت هذه الليلة من الليالى التى سنظل نذكرها لوقت طويل جدا فلم تغمض لنا جفون من كل ما قاله وزير التعليم العالى لجمهورية مصر العربية ، وبالذات وزير التعليم الواطى ... بالاضافة للهيافات ، والحديث الغير مترابط أو مفهوم .. والاستخفاف بعقول الناس ...

وكان هذا الحديث سببا فى مناقشات طويلة عن مصر التى بدأنا نقلق عليها ..

ومساء اليوم التالى لحادث لقائنا بوزير التعليم العالى لجمهورية مصر العربية ، وفى أحد المطاعم التى أمتلكها ..

كان الأستاذ/ يوسف وهو رجل رأسه كبير ، أصلع ، له شارب قصير ، عيناه حادتان ، طويل القامة ، مفتـول العضـلات ، أسمر الوجه ، شكله كالمديرين، أو رؤساء مجالس الادارات ·

يتحدث دائما باللغة العربيةالفصحى ، فيذكرك علىالفور بأحاديث الدكتور / طه حسين الشهيرة وهو يتغنى باللغـة العربية ·

عندما تنظر اليه يعطيك انطبـاعا بأنه حانى كالأب ، وأحيانا أخرى تجده غليظا ، صارم الوجه والملامح ·· ولكنه فى كل الأحوال عاقل جـدا ، أحاديثـه هادئة موضـوعية ، عملية ، خبرة السنين ، جعلته محنكا بعد كل التجارب التى عاشها وعايشها خلال النصف قرن المنصرم ··· كنا نتحدث اليه دائما باحترام ونطلق عليه لقب « الأستاذ » أما خالد ، فكان قصيرا ، شعره أشعث ، وأنفه مدبب ، ووجهه مكسـو بالحزن والمرارة وأحيانا بالبؤس ·

يضع على عينيه نظارة سـميكه ، لا تفصح عن شىء من شخصيته أكثر من الغموض ، وكان مفرط الثقة بنفسه الى حد أنه كان يأمر وينهى ·· أو عـلى الأقل يعطى انطباعا بذلك · وعلى الرغم من انفعاله الشديد أثناء مناقشـاته ، الا أنه كان يتميز بقلب طيب ··· وكان معنا كريما وهـو شاب مهذب ، يبدو من كلامه وأحاديثه بأنه قارىء جيـد اطلاعه واسع ، نبرات صوته توحى بالاقناع لمحدثه ··· رقيق المشاعر والأحاسيس حتى يكاد يشعرك بالشفقة عليه أحيانا ·

وعبد الله أو « ماكس » «MAX» كما كنا نسميه ، هـو أكثر الحاضرين خجـلا ، وان كان كثير الجـدال ، والادعاء بالمعارف ، حتى أطلقنا عليه لقب «المفتى» حيث كان يتطوع دائما باعطاء آراء ووجهات نظر ، فى كل ما يطـرح عـلى بساط البحث والنقاش ·· طيب القلب وان كان لا يمتـاز بالذكاء الحاد ·

أما بكرى فهو طويل القامة ، وبدين الجسد ، له شارب أسود فاحم دائم البسمة بسخرية لكل ما نقول .. فهـو قد ترك مصر منذ خمسة عشر عاما ولم يعـد ، ولا يرغب فى العودة حتى للزيارة ... لم تكن هذه الجلسة قاصرة عـلى هؤلاء الأصدقاء ، وانما اشـترك معنـا زمـلاء وأصـدقاء آخـرين ، منهم من حضر لأول مرة ، ومنهم من كان يحضر معنا من وقت لآخر ... الا أن أصدقاءنا الأربعة الأستاذ / يوسف ، وخالد ، وكريم ، وعبد الله هم من المواظبين عـلى حضور جلسـاتنا التى كنا نعقـدها فى أحـد مطاعمى كما أسلفت ، أو فى منازل البعض وخصوصا من غير المتزوجين ... فهى جلسات طويلة .. والأصوات فيها مزعجة وعـلى الرغم من عدم ثبات مكان الجلسات ، وكذلك عدد الحاضرين الا أن ثمة شىء ثابت هو الحديث عن مصر ...

فمنـا من ينظـر بعين تشـاؤمية الى بعض القـوانين الاقتصادية ... والاجتماعية ... وآخر ينظر بعين الرضا المشوب بالحذر ... وثالث ينظر بعين النقد ... ولكننـا جميعا كنا نشترك فى شىء واحد ، هو حب مصر ، والحماس لها ، وللأجيال القادمة ...

كانت مناقشاتنا متنوعة ، تعكس خلفيات ثقافية عديدة ولكنها تمتاز دائما بالصراحة المطلقة ... كانت مجمـوعة تمثل كافة وجهات النظر ، وكافة التيارات والاتجاهات... والغالبية العظمى من المتتبعين لـكل أخبـار وأحـوال مصر وبالتفصيل فوسائل الاعلام هنا ليست حـكومية ... ومن خلالها نعرف عن مصر مالا يعرف به بعض المسئولين داخلها أحيانا .

كنت أصغر الحاضرين سنا ، وكان هـذا يجعلنى أظل منصتا ، ولا أتدخل أو أقاطـع أصـحاب السن والخبرة .. فقط كنت أتدخل لتسجيل موقفى ... أو من حين لآخـر لتهدئة الأعصاب بتعليق أو قفشة ...

وكانت جلساتنا ، ومناقشاتنا ، تعقد مساء يوم الجمعة أو السبت ، حيث تمتد الى الصباح فى معظم الأحيان ٠٠٠ تعلو فيها أصواتنا ، وتحتدم خلافاتنا حتى تصل الى طريق مسدود بتأثير الانفعالات والتشنجات ٠٠٠ ولكنها للحق أقول كانت فى معظمها موضوعية ، هادفة ٠ وكان الحديث غالبا ، يبدأ عفويا ، مع مشروب منعش ، يتلوه عشاء خفيفا ثم الشاى الذى تخصص أحدنا فى اخراجه مضبوطا ٠

بعد ذلك تكون القهوة ، باعتبـاره المشروب السائد ، وبكميات كبيرة ، ربما لأن جو المناقشات كان يتطلبه ، كى يستطيع كل واحد منا أن يظل مفتوح القلب ٠٠ والعين ٠٠ والعقل ٠

. . . .

كان حديثنا غالبا ما يكون حول عبد الناصر أو السادات ٠٠ وحرب ٦٧ ٠٠ والانفتاح والظروف الاقتصادية التى تمر بها مصر ٠٠ والبيروقراطية والروتين فى الادارة المصرية ٠٠٠ وكان بكرى صديقنا يستفذ مجموعة الحاضرين بجملته الشهيرة « مافيش فايدة » ! ويتركنا ليشرف بنفسه على اعداد الأطباق ٠٠٠ أو احضار الفواكه أو لأمر آخر باحضار الشاى الذى تخصص فى تحضيره على طريقة البلد ٠٠٠ بعد أن يحتدم النقاش كان كريم كان يبتسم للعبارة ، أما خالد فكان يكشر عن أنيابه ، بنظرات من تحت النظارة السميكة التى لا تسمح لنا بأى تفسير ٠

أراد الاستاذ / يوسف وهو أكبرنا سنا ، أن ينحو بالمناقشة هذه المرة منحى آخر فبدأ حديثه بقوله :

لماذا يغالى الشعب المصرى فى تقدير الأمور، والأشياء ، فاذا أردت أنت كمصرى أن تصف انسانا بالحسنى ، ألقيت فيه أشعارا ، وأزجالا ، ووهبته صفات يندر أن توجد فى غير الأنبياء ، والقديسين ٠٠ والعكس صحيح أيضا ٠ نحن مبالغون فى كل شىء اذن ، أضف الى ذلك أننا نتحمس غاية

الحماس في بداية الأمر لأى موضوع ، ويذهب كل هـــذا الحماس وبنفس السرعة •• وأيضا نعمل دائما ألف حساب لما سيقوله الآخرون ، ونبالغ في ذلك ••• وكل هذه الأشياء هي التي تؤثر دائما على نتيجة أعمالنا •••

وكان موجها هـذا الحـديث لى بمناسـبة الحديث عن مجلس ادارة الجـالية ، وأدركت أنه يحـذرنى أكثر مما ينصحنى ••• وكنت راغبا في استمرار هـذا الحـديث ، ولكن خالد تدخل دون استئذان وقطع حديثنا وكأنه يتعجـل مناقشاته عن مصر •• بعد أن سمع منا ما حدث في لقـاء وزير التعليم العالى ••• أو ربما لأنه يريد أن يكسب الجولة في هذه الليلة بعد أن أحس بالهزيمة في الأسبوع المـاضى ، وكنا تقريبا قد أجمعنا على أن السادات وبرغم الأخطاء التى وقعت في تجربته كان حكيما ، وعاقلا وواقعيا في ذهابه الى القدس ، وفي عقر دار اليهود ، وان هذا القرار الذى اتخذه يعادل في قوته قراره بعبور المانع المائى والساتر الترابى، والذى استعاد لنا كرامتنا ، وثقتنـا بانفسـنا ، وقد أقر الشعب المصرى هذا العمل بخـروجه الى الشـارع المصرى يستقبل أنور السادات في عودته من القدس !

وكان كريم في هذه الجلسة مصرا على أن تفسـير ذلك هو نفس تفسير خروج الشعب المصرى في ٩ و ١٠ يونيه بعد هزيمة من أعجب الهزائم في ٦ ساعات خسرنا كل شىء •• رغم كل البيانات الكاذبة •• واستهزاء المسـئولين بعقـول الشعب، رغم كل ذلك خرج الشعب بارادته يتمسك بقواده !

وفى هذه الجلسة كان جيمس زميلنا (وهـذا اسـمه الحقيقى) قد حكى لنا عن تجربته في الخـدمة العسـكرية والتى استمرت منذ ١٩٦٦ حتى ١٩٧٥ ••• وكان جنديا في سلاح المشاه في سيناء ، وكتب الله له عمرا جديدا بعد هذه الحرب ••• التى لم تكن من وجهة نظره حربا عـلى الاطلاق فالجيش المصرى لم يشترك مع اليهود •• والجندى

المصرى ظلم ظلما فادحا فى هـذه الهزيمة ، ودماء وأرواح الشباب ضاعت سدى على رمال سيناء ··· وحكى لنـا عن الانسحاب ·· وكيف انه فى احدى الليالى وبعـد أن صـدر اليهم قرار بالعودة الى غرب القناة ·· وأثناء انسـحابه مع زميلين له على الأقدام ، ولا يملكون سـوى (مطواه) لتقشير البطاطس ·· وفجـأة وجـدوا أنفسـهم أمام مجمـوعة من الاسرائيليين ، عبارة عن سيارة جيب ، بها خمسـة جنـود وسائق السيارة وفى استراحة بالطريق ··· وكان لابد لهم من مواجهـة معهم ، والا فاما القتـل أو الأسر عـلى أحسن الفروض ··· وما كان من جيمس وزميليه الا أن اختبأوا لمدة ساعة تقريبا ، وفجأة باغتـوا الاسرائيليين السـتة ·· وطالبوهم من بعيد برفع أيديهم ثم ترك السيارة والمـدافع الرشاشـة ··· ثم الانبطاح أرضـا ·· وبالفعـل اسـتولى المصريون الثـلاثة على السيارة الجيب بما فيهـا من مدافع رشاشة وبنادق آلية ·· ولم يحاول أى من الاسرائيليين الستة مقاومتهم ·· وكان أحدهم يتحـدث العربيـة بلهجة مصرية ·· وكان منبطحا على الأرض ويصرخ بأعلى صوته أرجوكم ·· لا تقتلونى ·· فى عرضكم اتركونى من أجل أبنائى » ·· وبالفعل لم يقتلوهم وهم عزل من السـلاح فقط عادوا بالسيارة الجيب وما فيها ·· هؤلاء هم الذين هزمونا فى ٦٧ ·· وهـؤلاء هم الذين حصـدوا آلاف الشـباب وهم عزل بالنابالم !

ثم حكى لنا « جيمس » عن الاهمـال والاستهتار الذى وصلت اليه قواتنا المسلحة قبل سنة ٦٧ وأعطى لنا مثـلا : «فاسمه الحقيقى هو» جيمس بولس فرج وكيف آن شاويشا فى احدى المرات لم يعجبه أن يكون هناك رجلا وجندى فى القوات المسلحة اسمه جيمس·· فقام هذا الشاويش بتعديل الاسم ليصبح « جيمس يونس فرج » بدلا من جيمس بولس فرج ، وظل مدة طويلة بهذا الاسم الجديد ··· ثم حـكى لنا عن المتغيرات التى حدثت بالقوات المسلحة فى عهد محمد

فوزى وكيف عاد النظام والطاعة والاحترام ·· والتدريب الشاق جدا ·· وكيف كان جنود مصر كلهم فى انتظار حرب أكتوبر لمحو العار الذى لحق بهم ظلما · كان بكرى قد أعد المشروبات، ووزعها على الجميع، وعاد بطريقته الاستفزازية ليقول : أما زلتم حتى الآن لم تشاجروا ، وترتفع أصواتكم؟ ثم أضاف مازحا ، اليوم لا أريد أن تستمر الجلسة حتى الصباح ، حيث اننى مسافر الى هولندا فى الصباح ·· فأجابه خالد فى خبث وقال :

لابد أن تعترف ياسيد بكرى ، بأفضال عبد الناصر عليك ، فلولاه لما أمكنك أن تأتى الى فرنسا ثم تقضى « الويك اند » مرة فى هولندا ، وأخرى فى سويسرا ثم أضاف ··· ضاحكا : ربما كنت ماتزال تمشى وراء الحمارة ، بقميصك الأزرق الداكن ! وهنا تدخل الأستاذ / يوسف ليخفف من وطأة الحديث ، وبصوت خافت ، ولغة عربية صحيحة ، وبهدوءه المعهود قال :

أنا لا أوافق خالد على هذا الأسلوب أولا ، ثم ان الثورة ليست كلها عيوب ، وليس هناك انسان عاقل يدعى ذلك ، ولكننا يجب أن نكون أكثر موضوعية طالما حضراتكم ترغبون فى الاستفادة من هذه المناقشات ·· ولكى يتم ذلك ، أى الموضوعية ثم الاستفادة ·· فالواجب على كل واحد منا ألا يذكر اسم عبد الناصر أو اسم السادات·· حيث أننى ألاحظ دائما وفى كل المناقشات أنه يكفى أن يذكر أحدنا اسم السادات حتى يقحم الآخر اسم عبدالناصر··· هيا بنا نكفى على الخبر ماجور ، وكفانا نبش فى الماضى ··· تعالوا نتحدث عن مصر ··· واذا كان لابد من ذكر الماضى بتجاربه السلبية والايجابية ـ فلابد لنا من وقفة هادئة ، موضوعية، عادلة ·· وبقصد استخلاص الأخطاء للاستفادة من تصحيحها وبعد هذا التقييم دون افتراء على التجربة ، أو صاحبها أو رمزها ـ ودون تحيز أيضا ، ودون أن تلهينا أهواؤنا ، أو تؤثر علينا اتجاهاتنا أو أيدوليجياتنا ·· وباختصار وقفة

مجردة موضوعية واضعين فقط كمـا سـبق أن ذكرت أمام عقولنا وقلوبنا مصر فمصر هي التى تهمنا في غاية الأمـر مصر هى أسمى من جمال عبد النـاصر ومن أنور السـادات ومن حسنى مبارك أيضا ٠

تعالوا نحاول أن نستفيد من تجارب من سـبقونا ففي فرنسا تعلمون انها للجميع وفوق الجميع لماذا لا تصبح مصر للجميع وفوق الجميع (عـلى الأقل فى مناقشـاتنا) وحتى لا نقع في الخطأ الذى يقع فيه كثيرون أحيانا بسـوء نية ، وبالذاتمن الراغبين في تصفية حساباتهم الشخصية ٠٠٠ أو الذين يرغبون في الاعلان عن أنفسهم ٠٠ أو من بعض المستفيدين أو المتضررين من احدى المراحلالسابقة على سنة ٧٣ وما بعد سنة ٧٣ ٠٠ ناسين مصر ٠٠ وهنا لا أقصد أن أتهم أحدا بأنه أقل وطنية أو أكثر من غيره ٠٠ كما يخطىء البعض حين يحاول تصوير ذلك ٠٠٠ فقط أطالب كل منـا محاولة التجرد ، والالتزام بالموضوعية ٠٠ حتى لا أطيـل عليكم الحديث ، وأصادر حقـا من حقـوقكم ونحن في بلد ديمقراطي ٠٠

وشكر كريم الأستاذ / يوسف ، وأيده تماما ، طالبـا اليه أن يسجل هذا الرأى أو التنبيه أو الطلب ٠٠ متمنيا أن تلتزم به المعارضـة المصرية ، وأيضـا بعض الكتـاب فى الصحف والمجلات ٠٠ وحتى لا يظل كثيرون واقعين في هـذا الخطأ ، والذى يتسبب دائما في نتيجة سيئة جدا على شبابنا في مصر ــ الشباب الذى تسببنا في أن يفقـد ثقته في كل شيء من حوله ، وأصبح لا يصدق أحدا ٠٠٠ الشباب الذى أصبح في حيرة من أمره ٠٠ الشباب الذى يبحث عن فرصة عمل ولا يجدها ومن يرغب منهم في الخـروج الى الصحراء توضع أمامه كل العراقيل ٠٠٠ الشباب الذى يقضى شبابه في انتظار وظيفة يتسول منها رزقه !

انشاء الله ، بكره ، معلش
« جهاز التعطيل المصرى »

وتدخلت فى الحديث بعد استئذان كل الاخوة والزملاء بالحديث عن موضوع نظرى وبعد تجربة مريرة لى فى مصر ·· أنه من أخطر الموضوعات التى تعوق التنمية ، وتحبط العزيمة ، وتفقد الأمل ·· وهى البيروقراطية الادارية أو ما يعرف بالروتين فلا انتاج ، ولا تقدم، ولا أمل فى شىء دون مواجهة حادة ، وهزة عميقة للجهاز الادارى الذى وصلنا معه وبه الى طريق مسدود ··· لقد استطعنا تأجيل سداد ديوننا ، ونجحنا فى تخفيض سعر الفائدة لبعض القروض ، واعتبرنا ذلك شهادة من صندوق النقد الدولى بسلامة اقتصادنا ·· ولكن ماذا سنفعل خلال سنوات السماح ، كى نستطيع الوفاء بالتزاماتنا عندما يحل أجل السداد ، والأيام تمضى بسرعة البرق ؟ هل أننا سنكتفى بهذا النجاح الذى حققناه بالتأجيل وهللت له بعض الأقلام؟ هل انتهت مسئوليتنا عند هذا الحد ، وعلى الجيل القادم أن يواجه مسئولياته بتسديد هذه الديون التى نجحنا فى تأجيلها له ؟! لن أطيل عليكم وسأكتفى فقط بأن أقص عليكم احدى الحكايات التى واجهتنى من هذا الروتين البيروقراطى ـ والتى أزعم انها تستحق ثورة حقيقية ، بأن نجعلها من اليوم هى المشروع القومى الذى يلتف حوله كل الناس لتحطيم هذا الخطر الذى يهدد مستقبل مصر ·

هـذه البيروقراطيـة ، وهـذا النظام الادارى المتعفن ، برائحته الكريهة التي تزكم الأنوف الذى أصبح فى خطورته كمرض السرطان ، أو الايدز الذى احتار فيه الأطباء ... انظروا ماذا فعلت أوروبا ، وأمريكا أمام هذا المرض الخطير .. فبعد أن عجز الاطباء عن التوصل الى علاج لهذا المرض الذى يجعل المصاب به يفقد المناعة الطبيعيـة ، وبالتـالى محكوم عليه بالموت .. على الفور تصـدت أوروبا وأمريكا بكل أجهزتها من وسائل الاعلام المختلفة ، والأقلام المقروءة والمؤثرة ، الدعاية ، والاعلان ، وفى المدارس والجامعـات والكنائس ودور العبادة .. واستطاعوا فى وقت قصير جدا أن يجمعوا حولهم الرأى العام ، والتف النـاس كل النـاس حول الحكومة ــ وتفهم الجميع خطورة المرض ، وبدأ الرد يلتزم بما تنادى به الحكومة ووزارة الصحة لأجل محاربة هذا المرض ، ووقف انتشاره ، الجميع هناك حكومة ومعارضة ، يمينا ، ويسارا .. الجميع دون استثناء تركوا كل خلافاتهم جانبا وتفرغ الجميع للمواجهة .. أكرر هنـا أننا نواجه مرضا لا يقل خطورة عن هذه الأمراض .. وكل يوم يمر يستشرى ، ويكسب أرضا جديدة ... وبهذا المرض نقف محلك سر ، بل بدأنا فى التراجع .. قضية مصر اليــوم باختصـار ليست فلسـطين ، ولا اسرائيـل ولا الحــرب ، ولا الانفتاح .. وانما هى « البيروقراطيـة » التعقيـدات الادارية ، النظام الادارى المتعفن .. موظفـو الحــكومة والقطاع العام .. الكاتب المصرى الفرعون ... هنا يوميا خطورة ما وصـل اليه الجهـاز الادارى المصرى .. وكيف أصبح من المستحيل على الفرد أن ينجز عملا .. وكيف أن الشعب المصرى أصبح يقضى معظم يومه فى انهاء ورقة .. وأحيانا يقضى شهره ، فعامه .. وهناك من الأوراق الادارية ما يجعل الفرد يفنى عمره أو حياته من أجـل انهائهـا .. الشهادات .. الموافقات .. الأختـام .. الامضـاءات .. التصاريح .. الأذون .. الاكراميات .. الرشوة .. كنت فى الماضى تحتاج الى كارت من ملازم أو أحد المسئولين لانهاء

مصالحك .. اليوم الكارت أصبح لا قيمة له أيا كانت رتبته .. اليوم أصبح كل شيء بثمنه .. ولابد أن تدفع .. واذا شكوت الموظف لرئيسه في العمل فلم يفعل شيئا ، ولن تنتهي مصالحك ، سوف يجد البيه الموظف ثغرة في القانون .. أو امضاءا ناقصا .. أم على الأقل فوت علينا بعد أسبوع ! فقط لأنه مالوش مزاج ! واحنا في بلد ديمقراطية اشتكى لرئيس الجمهورية ولا يهمني ! هذا هو الرد الذى تسمعه اليوم من البعض هذه هي الديمقراطية ... انشاء الله ... بكره ... معلهش جهاز التعطيل المصرى .I.B.M هذا ما قاله لي أحد الفرنسيين العاملين بمصر . كلنا حكومة وشعبا نعرف جيدا كل هذه الموضوعات .. ولا الحكومة .. ولا الشعب يرغب في مواجهة المرض .. كل واحد منا دون استثناء واجه مشكلة أو بمعنى أصح يواجه يوميا مشكلة مع البيروقراطية والتعقيدات الادارية .. ولكنى سأقص عليكم قصة قصيرة تؤكد رأيي في أننا لن نخطو خطوة واحدة الى الامام ولن نتقدم الا بتحطيم هذه التعقيدات ، والقضاء على هذا المرض اللعين .

بدأت القصة في احدى زيارتي لقريتي التي أتردد عليها بانتظام .. هذه القرية التي أقامت بجهودها الذاتية مشروعات مختلفة ، ولم يبخل أحد من أبنائها في التبرع لأى مشروع يقام فيها .. ومجموعة من الرجال المخلصين لهذه القرية ، والقائمين بشئون الجمعية الخيرية يخبروني بأن هناك منحة أمريكية لبناء مدرسة للتعليم الأساسى نظام التسع سنوات على الطريقة الامريكية من معامل وورش ، وملاعب .. ويشترط على أهالى القرية الراغبة تقديم مساحة ألفين متر مربع أى نصف فدان تقريبا بالاضافة الى ١٥ ألف جنيه .. على أن يكون ذلك قبل ١٩٨٧/٦/٣١ وكنا في شهر ابريل ..

فتبرعت بقطعة الأرض .. وجمعنا ٨آلاف جنيه .. وتوجهت الى الدكتور / يحيى حسن محافظ المنوفية وللانصاف أقول باعتراف أهالى المحافظة أنه من أنشط المحافظين ..

ويستحق التحية والتقدير لكل أعماله واذا بالرجل يشكرني على التبرع ويوافق فورا على تكملة المبلغ بأن يدفع صندوق الخدمات ٧ آلاف جنيه •• وطلب مني فقط عقد هبه مسجل لصالح التربية والتعليم ••• وبدأت أمراض البيروقراطية تظهر من كبار صغار الموظفين •• توجهت الى مديرية التربية والتعليم بشبين الكوم لتسليمهم عقد الهبة المسجل بالشهر العقارى كي يقبلوا التبرع ••• ودخلنا من موظف الى موظف وفي النهاية المدير قال السيد المدير بعصبية : « هو المحافظ بيفرق علشان الانتخابات •• على كل حال أنا عندى طلبات كثيرة من المحافظ موافق عليها •• لكن مافيش عندنا ميزانية •• واتفضل اكتب أمامى عقد هبه جديد لصالح التربية والتعليم •• حاضر وكتبت ووقعت أمام الشئون القانونية بعد ذلك طلبت من سيادة المدير لجنة لاستلام الأرض وكنا قبل رمضان بأسبوع •• سيادته قال : انشاء الله بعد العيد ••• يا فندم أنا مقيم بالخارج ومسافر بعد أسبوع •• اتفضل اعمل توكيل لأخوك وهوه بعد كده ييجى بعد العيد انشاء الله ! يا فندم مش معقول أخويا هيبقى ييجى يقف على الباب •• والموعد قبل ٦/٣١ والا المنحه الأمريكية تبقى ضاعت علينا السنه دى •

أنا قلت لك كده وخلاص ••• اتصرف مع الموظفين فوق ، وبالفعل اتصرفنا مع الموظفين •• ومع مجلس المدينة •• وباقى الهيئات المشتركة فى اللجنة وعلى الفور تمت المعاينة وأقرت بصلاحية الموقع • ولكن تقبل المديرية التبرع بشروط :

يكلف السيد / المتبرع باحضار الآتى الى مديرية التربية والتعليم وفورا :

١ ـ عدد ٥ خرائط مساحية •

٢ ـ نقل الحدايد اللازمة •

٣ ـ نقل الملكية •

٤ ـ قرار من وزير الزراعة بالبناء على أرض فضاء .

٥ ـ موافقة الوحدة المحلية بالقرية .

٦ ـ موافقة الرى ، والصرف ، والطرق ، والكبارى ، والكهرباء .

٧ ـ رسم هندسى للمبنى الذى ستقيمه أمريكا .

ـ ضحكت آسفا ... وانتهزت فرصة وجود الأستاذ / كمال الشاذلى معنا ، وبعد اللقاء مع بعض أعضـاء الجالية المصرية بفرنسـا ، حضره بعض رجال السـلك الدبلوماسى بباريس . وسطته لانهـاء الموضـوع بصفته نائب الدائرة وكنت قد سبق ووسطت آخرين .. والحقيقة أن الرجل له بصمات واضحة فى خدمة الدائرة وأبنائها ... وكان الله فى عون أمريكا !

غزو الصحراء

وبعد أن انتهيت من قصتي القصيرة عن البيروقراطية ... تنهد زميل كانت أول مرة له يحضر هذه المناقشات .. فهو مغترب منذ خمسة عشر عاما وعمره الآن يقترب من الأربعين ، وبعد هذه السنوات التى قضاها بين الدول العربية والأوروبية ، وأصبحت ثروته بصراحة كما ذكر مائة ألف دولار ... قرر العودة للحياة بمصر واختيار شريكة حياته، على أمل اقامة مشروع يتكسب منه.. وبمجرد عودته استثمر من مدخراته عشرون ألف دولار لدى احدى شركات توظيف الأموال بعائد يزيد عن ٢٠٪ .

وكان قد سبق له أن دفع عشرة آلاف جنيه مقدم تمليك شقة فى احدى الشركات المعروفة والتى كانت تعلن عن نفسها باستمرار فى كل الصحف المصرية .. والحمد لله ضاع العشرة آلاف والخمس سنوات وعرف طريق المحاكم ... وفى هذه المرة اضطر أن يدفع ثلاثون ألف جنيه ثمنا لشقة صغيرة مفضلا استلام المفتاح فى الحال .

وبعد عامين من البحث ، والمصروفات ، وتخليص اجراءات ، وأوراق .. ونصيحة من بعض الأقارب الذين يعيشون فى الوادى أراد الدخول فى تجربة استصلاح وزراعة عشرين فدانا فى الصحراء .. ونظرا لخبرته فى مجال تصدير الخضر والفواكه مع الدول العربية قبل حضوره الى أوروبا ــ ونظرا لأنه ولد فى الوادى ووسط الفلاحين ويعشق

الطبيعة والأرض ·· فبدأت البحث عن العشرين فدانا وبدأ بزيارة الى مديرية التحــريـر ·· وكانت أول زيارة له ·· فقط كنا نسمع عنهــا مرتبطة باسم مجدى حسنين ضــابط الثورة الذى كان مسـئولا عنهــا فى ذلك الوقت ومع بعض الأقارب توجهنا الى مديرية التحــرير ومعنــا أحــد الاخوة الفلسطينيين حيث يعرف كثيرا من اخوانه المقيمين فى المديرية والبعض هنــاك يرغب فى بيع أرضه ·· وبعــد القنــاطر الخيرية ·· والطريق الى المــديرية ظهــرت ترعة ناصر ·· وكان باديا أنها لم تطهر والطريق لم يعاد رصفه منذ وقت طويل جدا الاهمال واضح ·· الطرق لا يصح أن نســميها طرقا ·· فليس بها مطبات ، وانما شــقوق يصــل عرضها أحيانا الى متر ونصف ·· الســيارة وكل الســيارات تمشى بجوار الطريق هذا ·· السيارة عجلاتها تغوص فى الرمال والتراب ·· ننتظر جرارا زراعيا يقف وحــده لمساعدتنا وكأنه قد تعود على مثل هذه الحالات ألف مرة فى اليوم كمــا يقول سائقه ·· نصل الى قرية العبــور ·· ثم بدر ·· ثم الأمل ·· وفى الطريق اليها كنا نمر بمساحات واســعة من الأرض الجــدباء ·· محــاطة فقط بأشــجار الــكافور ·· ويافطة ملك فلان · ملك الحاج علان ·· مزرعة فلان للأمن الغذائى ·· فقط سور من أشجار الكافور حول أرض فضاء ليست مزروعة

المهم وصلنا وكان الجو حار جدا والساعة قاربت الثانية ظهرا ، لأننا قبل ذلك كنــا قد اضــطررنا لانتظار احــدى المعديات ، وهى مركب صغير تســع لثــلاث ســيارات حيث لا يوجد كوبرى لربط مديرية التحــرير بالجهــة الأخــرى للمنوفية فى هذه المنطقة ··

وكان فى انتظارنا مجموعة من الشباب الذين لا يتجاوزون الأربعين من عمرهم ·· جالســون فى أحضــان الطبيعة ، وأمامهم براد كبير للشاى ، والمعسل طبعا ·· والأرض من حولهم نصف جدباء وصمموا على وجبة الغداء ووافقنا ···

وفوجئت بأحدهم يخرج نقـودا ويعطيها لابنـه لشراء كيلو طماطم ! وهو مهندس زراعي يملك ثلاثون فدانا ، مستفيدا بذلك من قانون السادات والصادر في سنة ٧٧ لمن يرغب من المهندسين الزراعيين أن يترك الوظيفة ، ويستصلح أرضا ـ وثمن الفدان مائتان وخمسون جنيها بالبنية الأسـاسية ٠٠ وبالتقسيط ٠٠ حسب ما ذكروا لنا ٠٠ (كنت أتعجب فى نفسى ، ولا أفصح عما يجول بخاطرى) ٠

ـ وبعد زيارة للأرض المعروضـة للبيع ومسـاحتها لا تتجاوز خمسة عشر فدانا ٠٠ طلب صـاحبها ثلاثة آلاف وخمسـمائة جنيه للفدان الواحـد ، وكانت مزروعة فولا سودانيا !

ـ وفى زيارة لقطعة أخرى كانت مزروعة بالبرسـيم الحجازى وبنفس السعر ٠٠ فهمت على الفور أسباب زراعة هذه المحاصيل السهلة جدا فى الزراعة ٠٠ فهى لا تحتاج الى مجهود كبير أو عناية مثل الخضر والفواكه ٠٠

ـ فهمت وحدى ماذا فعل هؤلاء الشباب ؟

فالقليل منهم استصلح الأرض وحولها الى جنة خضراء ـ ولكن الغالبية لم يفعلوا شـيئا ، سـوى أنهم قاموا بزراعة الأرض مرة أو مرتين بالفـول السـودانى أو البرسـيم الحجازى ٠٠ انتظارا للمضاربة بالأسعار فمن مائتين وخمسون جنيها الى ثلاثة آلاف وخمسمائة اليوم ! بعد ذلك توجه الى منطقة الاسـماعيلية ، وبالذات منطقـة الصـالحية ، ومن الواضح أنها تحظى بعناية كبيرة جـدا بالمقـارنة بمديرية التحرير ٠٠ ربما لوجود المهندس / عثمان وامكانياته ٠٠ أو ربما لنشاط محافظها الشاب ٠٠ وربما بجهد الجميع معا ٠٠ فقد استطاعوا حقيقة أن يغيروا خريطة مصر فى هـذه المحافظة التى مازالت تحتفظ بنظافتها ، وجمالها ، وروعتها ٠٠ وهى المدينة الوحيدة فى مصر والتى تصلح للحياة فيها بالذات لمن عاشوا مدة طويلة بالخارج !

وهناك كان له صديق قد اشترى بالفعل مساحة عشرين فدانا بوضع اليد أى غير مسجل واستزرعها بعد استصلاحها، ولكن المشكلة انه ليحصل على قرض لابد من عقد ملكية مسجل وبعد آن يذل جهدا كبيرا ولم يفلح بعد أن أفلح أرضه ٠٠ نصحوه بالتوجه الى أحد الفلسطينيين المقيمين بالمنطقة ويملك مزرعة كبرى ، وبالفعل وبعد أن تدفع المطلوب ٠٠ تتم عملية التسجيل بواسطته ٠

وكان الحاضرون جميعا ينصتون الى حديث الزميل وعلامات التعجب والأسى والغضب تكسو ملامحهم ٠٠٠ عدا بكرى كان الوحيد الذى يبتسم ابتسامته العريضة وكأنه يرغب أن يقول للحاضرين ما سبق أن ردده فى كل جلسة « مافيش فايدة » ، ولكنه ربما لم يجد الجو مناسبا ، فقد كتم ذلك ، وأشعل سيجارة ضاربا كفا بكف وكان كريم قد سبق بكرى باشعال سيجارة ٠٠ وأخرج الأستاذ / يوسف غليونه وأشعل فيه النار وامتلأ الجو بالدخان !

وهنا تدخل خالد بصوت حازم قائلا : ولماذا يطالبون اليوم ببيع القطاع العام ؟ أنظروا ماذا يفعلون بالقطاع الخاص ! مصرى ٠٠ على أرض مصر ٠٠ بأمواله التى جمعها ودفع ضريبة الغربة فيها ٠٠ يفلح الصحراء ٠٠ وآخر هو القادر على التسجيل !! ثم استأذن هلال بأدب وكنا نعلم أن والده أحد المسئولين الكبار فى الحكومة الى وقت قريب ـ وفى أكثر من مناسبة وضح لنا أنه عليم ببواطن الأمور التى تخفى علينا كشعب وبعد استئذانه للحاضرين ، وبثقة فى النفس تجعله دائما لا يسمح لأحد بمقاطعته قال :

● الحكومة يجب أن تواجه بعض المسائل التى استفحلت قبل أن يفلت الزمام ، كالجماعات المتطرفة والتى انتشرت بشكل أصبح يمثل خطرا كبيرا على النظام وعلى الدولة ٠

● من الثابت الآن أن الحكومة كلما حشرت نفسها فى

عمل أفسدته ، وبالتالى فعليها أن تضع فقط السياسات العامة ، والخطوط العريضة ، وتأخذ بنظام اللامركزية ، على أن يختار مسئولو المحليات جميعا بالانتخاب وليس بالتعيين ٠

● لقد حان الوقت لكى يتحمل كل انسان مشكلته ، بمعنى أن كل مواطن يجب أن يشارك ، وكى يشارك يجب أن يعى أنه مسئول عن نفسه وعن مشاكله ٠٠ وكفى تعويدا للمواطنين على أن الحكومة مسئولة عن الأكل والشرب والخدمات والتعيين وعن كل كبيرة وصغيرة فى حياته ٠

● يجب محاسبة كل مخطىء بقسوة وبعدل أيا كان موقعه ، وأيا كان خطأه ، طالما أن هذا الخطأ قد مس أو يمس المصلحة العامة ٠ فمبدأ الثواب والعقاب لابد من تطبيقه ٠

● يجب أن نختار ونحسم الخيار للأبد ، لأنه يمس مستقبلنا جميعا ٠٠ اذا كنا نختار الطريق الديمقراطى كحل لقضايا ومشاكل مصر فعلينا جميعا حكومة ، ومعارضة وشعبا أن نعمق هذا الطريق ، وعلى الحكومة أن تزيل كل الصعوبات والحواجز ــ على أن تعطى الفرصة كاملة وغير منقوصة للمعارضة أو للأفراد ٠

● ثم ان هناك بعض الموضوعات التى أوجه فيها اللوم للحكومة وهى :

ــ قضية العلاقة بين المالك والمستأجر ولماذا لا يبت فيها٠

لماذا لا يترك حسنى مبارك رئاسة الحزب الوطنى ، ويظل رئيسا لكل المصريين ، وهو فى الحقيقة يحوز على رضاء كافة التيارات ، بعد أن خلص مصر من التناحرات ، والصراع الذى ساد المجتمع فى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات ٠

ــ اعادة بناء الانسان المصرى كان هدفا أساسيا للاصلاح ولكنه ضاع فى زحام المشاكل الأخرى ٠

وأود أن أضيف الكثير ولكنى لابد أن أترك الفرصة لبقية الزملاء وخاصة أننى أرى أن الأخ / كريم يرغب فى التعليق .

وفعلا علق كريم على النقطة الأخيرة .. فى أن الوصول الى اعادة بناء الانسان المصرى ، يلزمنا أن نعيد بناء كتاب القرية ، والمعلم ، والمدرسة ، والتليفزيون ـ مع برنامج سريع حقيقى وجاد لمحو الأمية .. وخاصة أننا أخترنا الطريق الديمقراطى كسبيل لحل قضايانا ـ أيضا خطيب الجامع ، ورجال الدين عليهم دور كبير فى قضية تنظيم النسل وتعديل المفاهيم الخاطئة .

ولكن اذا كنا نطلب من الحكومة أن ترفع يدها ، وتخرج أنفها ، وتترك الناس وشأنهم فانه يتعين على كل مواطن منا أن يشارك ، وعليه مسئوليات وواجبات ، لا يجوز التهرب منها .. فاذا كنا نتحدث عن مصر .. ومستقبل مصر .. فاننا نتحدث عن أنفسنا .. ومستقبلنا جميعا .. واذا تركنا كل شيء على الحكومة ونحن ندير ظهورنا وننتقد فقط كل شيء .. فلن تنجز الحكومة شيئا ، والحكومات تتغير ، وتتبدل ، ولكننا نظل دائما نتحمل النتائج سلبية كانت أم ايجابية .

اذن لابد من الصحوة ، واليقظة ، والمشاركة .. وعلينا ألا نتجاهل أو ننسى دور القوى الخارجية وحرصها على أن نظل ندور فى حلقة مفرغة .. لنظل نستورد ٦٠٪ من خبزنا .. يجب أن نعى جيدا أن هناك بعض القوى الخارجية تسعى وتحاول جاهدة باستمرار لانهيار اقتصادنا .. لنظل دائما غارقين فى تفاصيل حياتنا اليومية نبحث عن رغيف ، أو ننهى مصلحة ..

وهنا لن نرفع الشعارات التى مللنا منها ، أو نعلق كل أخطائنا على شماعة الامبريالية ، والصهيونية ـ أو الشيوعية .. ولكن فقط قصدت التحذير ، والتنبيه .

وتدخل بكرى فى الحديث معلقا : كل هذا الكلام جميل ومنطقى ، ومضبوط ١٠٠٪ ، لكن فيه جزء كبير نظرى ، وحتى يصبح عمليا ق وواقعيا ٠٠ أرجو أن أعرف من منكم بوسعه أن يجيبنى على هذا السؤال : لماذا لا نستفيد بالخبرة الاسرائيلية فى غزو الصحراء ، واستصلاح الأراضى ؟!!

وكلنا يعلم أنهم وصلوا الى مراحل متقدمة جدا ، ولهم خبرة طويلة تسبقنا في زراعة الصحراء ٠٠ وقد رأيت بنفسي في الولايات المتحدة الأمريكية معظم أجهزة ومعدات نظم الرى الحديث ، مستوردة من اسرائيل ٠٠ طبعا أرجو ألا يفقد أحدكم أعصابه ، ويخرج عن شعوره ، لمجرد أن أناقش هذه المسائل ٠٠ (وأنا شايف خالد مقدما هيقوم يمزق قميصى) ـ لماذا لا نستفيد من هذه الخبرات وندعوا شركات الاستصلاح عندهم ، ونتعلم فى نفس الوقت ، وبعد ذلك ، وحينما نصل الى مرحلة تعلم فيها عمالنا ومهندسونا ، نستغنى عنهم ، وتحل محلهم ٠٠ لماذا نظل نتحدث أحاديث نظرية ، ونتبارى فى القاء الخطب ، والمواعظ ، ونخفى رأسنا فى رمال الصحراء الشاسعة ؟

لنا سفارة باسرائيل ، ولهم سفارة بالقاهرة ، بالأمس كان الوفد الفلسطينى لمنظمة التحرير مجتمعا مع وفد اسرائيلى فى تشيكوسلوفاكيا ، والاتصالات مستمرة بينهم وبين كل البلاد العربية دون استثناء سرا ٠٠ اذن لماذا نغمض عيوننا ، ونصم آذاننا وهذا ما يدفعنى دائما وفى كل جلسة أن أقول لكم « مافيش فايدة » لأننا لسنا بعمليين نحن العرب نتمسك دائما بالشكليات ، المظاهر هى التى تعنينا ، أما لغات العالم من حيث كثرة المعانى ، والألفاظ ، والتورية ، والبلاغة ، والتأثير ٠٠ تغرينا دائما باللعب بالألفاظ ٠٠ اننى اتهم لغتنا الجميلة بأنها السبب فى كل مصائبنا ٠٠ !
وهاج بعض الجالسين ، وبصوت عال ومسموع ، وعصبية واضحة اتهم خالد بكرى بأنه خائن ٠٠٠ وأن أفكاره قد

تلوثت ، وتأثرت بالدعاية الصهيونية ، والغربيـة والاعلام المتعاطف مع اليهود ·· وتساءل أين الكرامة ؟ يا للعار !

وكالعادة وبلغة عربية فصيحة ، وبعد أن أشعل غليونه ، والابتسامة تملأ وجهه ، قاصدا توجيه المناقشة الى اتجـاه آخر قال الأستاذ / يوسف ـ نحن سبق أن اتفقنا على الابتعاد عن أية استفزازات ، أو اتهامات ، واتفقنا أيضـا عـلى أن نحاول التجرد ونكون أكثر موضوعية ، وأن نرى فقط أمامنا مصر بلدنا ·

وأولا : انني أحييكم على هذه الجلسة والمناقشة الممتعة، وأفكاركم تمتاز بالجـرأة والصراحة ، والواقعيـة ، وأنتم الشباب وهذا مستقبلكم ، ثم أهنئكم على ثقافتكم ووطنيتكم وهذا من أعظم ما فعله حسنى مبارك ، فنحن اليوم فعلا في طريقنا الى الديمقراطية ·· فكل منا يعبر عن رأيه بمنتهى الصراحة ، والحرية ومعنا الآن مسئولون ، وأبناء مسـئولين ·· وبفضل الديمقراطية بدأنا نتعود على الجرأة والموضوعية ·

ـ انتزعنا أنفسنا بصـعوبة من سعمعة المناقشـات ، وانتهينا الى البيتزا التى كانت ماتزال سـاخنة ، ويجب أن تؤكل ·· قال الجميع : الله ··· بيتزا ممتازة !

فانتهزها بكرى فرصة طيبة وقال :

لقد اشدتم بالبيتزا ، ونسيتم أن الذى أعـدها هـو « مصرى » ، ويجب أن ألفت نظركم جميعا ، أن المصريين قد تفوقوا على الايطاليين فى صناعة البيتزا ، رغم انها وجبـة ايطالية الأصل ·

التقط خالد طرف الحديث وقال متهكما ، ولكن بصوت ينم عن الاعتذار :

يبدو أن « أبو الأبكار » قد غير وجهة نظره ، وسـوف لا نسمع بعد اليوم عبارته « الشهيرة » « مافيش فايدة » ··

وربما لن يطالبنا بعد اليوم بالتعامل مع اسرائيل ، والاسرائيليين !

ـ وأضاف خالد : المصرى لو غيرت النظام المحيط به ، وأعطيته الفرصة ، وشعر بأنه يحصل على حقه ·· فهو أحسن انسان فى العالم ·· فقط مطلوب تغيير النظام والتعقيدات والمناخ ·· نفس المصرى الناجح فى الخارج ، اذا عاد الى مصر ، وفى نفس المناخ والبيروقراطية الحالية فلن ينتج ، وسوف يتحول الى انسان كسول ، متواكل ، لا يعنيه وقت أو مسئولية كباقى اخوانه ·· وأقبل علينا شابا مصريا مازال أسمر اللون يحمل براداً من الشاى كان قد سواه على نار هادئة ، جعلنا نتذكر بامتنان قريتنا ، والمصطبة ، والشاى ، وأمسيات الصيف ، وسهراته الممتدة حتى الصباح !!

ومع الشاى أشعل المدخنون النار فى سجائرهم ، وأعاد الأستاذ / يوسف غليونه مشتعلا ·· وكان هناك فريقا قد امتنع عن التدخين ، وتخلص من هذه العادة ، بعد أن أثبتت الأبحاث العلمية هنا مدى الخطورة والضرر ، وكيف أن الانسان بامتناعة عن التدخين ، يبتعد بنفسه عن احتمال الاصابة بأمراض كثيرة كالسرطان بنسبة ٦٠٪ مما دفع معظم الأمريكيين والأوروبيين الى الامتناع تماما أو التقليل جدا من التدخين وأصبحت ترى مطاعم ، وأتوبيسات ، ونوادى يمتنع فيها التدخين ·· وأصبحت السجائر كالسكر ، والملح ، والدهون ممنوع الاقتراب منها ، والا بكميات قليلة جدا ·

أرادت أن أعيد الحاضرين الى المناقشة الممتعة فالساعة قاربت الحادية عشرة وهناك ما أثارنى فى حديث الأخ / هلال ابن المسئول الكبير فهو يرى عن قرب مالا نراه ووجهت سؤالى اليه ماذا تقصد من أننا اذا كنا نختار الطريق الديمقراطى كحل لقضايانا فعلينا أن نعمق التجربة ، وما هى مسئولية المواطن ؟

وهنا ابتسم هلال ووضع ساقا فوق الأخرى على الطريقة المصرية وتنهد ثم حاول الابتعاد عن دخان السجائر والذى أصبح يكرهه بعد علبتين مالبورو يوميا ! قال : القضية باختصار كما سبق أن عرضت ملخصا لها :

أننا وصلنا الى طريق مسدود ، والى مرحلة فيها كل انسان يعتمد على الحكومة فى كل شيء - وحتى لا أدخل فى متاهات مع خالد - وابتسم - لن اتحدث عن مرحلة ماقبل ٧٣ وما بعد ٧٣ ٠

النتيجة أننا بعد تجاربنا كلها من يسار الى يمين ، ومن شرق الى غرب ، ومن انغلاق تام الى انفتاح غير منظم ٠٠ أصبح هناك اليوم تواكل وعدم احساس بالمسئولية ٢٧ دقيقة عمل فى اليوم ٠٠ مفيش انتاج ٠٠ الرغيف بقرشين صاغ ولابد أن يظل ٠٠ مطلوب مدارس ، ومستشفيات ، وكهرباء ، وباختصار عاوزين ناكل ونشرب ونمضى الوقت أمام التليفزيون والمسلسلات العبيطة والتى تؤدى الى التخلف العقلى ٠٠ ولا عمل ٠٠ ولاانتاج ٠٠ سوى الانجاب ٠٠

وعلى الفور وكعادته منفعلا ومقاطعا قال خالد : ان الحكومة هى السبب فالمرتبات ضعيفة جدا ، وقضايا السلب والنهب لم نسمع فيها أو عنها أى نتائج ٠٠ مبدأ العقاب والثواب يطبق شقه الأول لمن لا حول له ولا قوة ، أما الشق الثانى فهو مخصص لأصحاب النفوذ والسلطان ٠

فاستأذنه هلال مشيرا بأنه لا يسمح بمقاطعته ، وعليه أن ينتظر دوره فى الحديث ٠ فهو لا يقاطع أحدا ٠

وعاد هلال الى الحديث ثانية باديا عليه الانفعال من مقاطعة خالد له ٠٠ وبدأ الحديث بأننا لابد أن نتفق أولا على أن المخرج الوحيد لنا هو الديمقراطية الحقيقية ، ولابد فى المعاناة للوصول اليها ٠٠ فالحرية لا تعطى ولا توهب ولا يهمنا فى قضية الديمقراطية ونظرا لحداثة التجربة ، والانغلاق ، والديكتاتورية لمدة طويلة حدثت وتحدث

وستحدث تجاوزات ، وأخطاء ·· فالبعض يفهم الديمقراطية على أنها تعطيه فقط كل الحقوق بلا حدود ، ودون مسئوليات ·· وفريق آخر يرى فيها الفرصة لتصفية الحسابات ·· أو التنفيس عن الكبت والمشاكل النفسية ، وكأن الحرية هى أن تشتم الآخرين ، بل وتتهمهم فى شرفهم أو ذممهم ·· ثم الفريق الآخر الذى يرى أن الشرعية ·· والوطنية هى معارضة الحكومة أيا كانت ، وعلى خط مستقيم ، المهم أنه يعارض وينتقد دون أدنى موضوعية ·

ــ وعلى كل حال فى تصورى أن كل ذلك سوف ينتهى يوما ، بعد أن تستقر المسائل وتؤصل نفسها من جديد ، وتتضح الأمور ، وبعد أن ينتهى كل مغرض من أغراضه ·· وحتى نصل بالتجربة الى بر الأمان وفى وقت سريع فالمعارضة قبل الحكومة ، نرى أن المعارضة عليها واجبات ومسئوليات ينتظرها الشارع المصرى ، والفرصة أمام المعارضة سانحة اليوم فعليهم اعادة النظر فيما يرتكبوه من أخطاء ، وأحيانا حماقات ·· وبالمناسبة أذكركم أن والدى خرج من السلطة ، ولا أدافع هنا عن الحكومة ، فقط أعبر عن وجهة نظرى كمواطن مصرى ولا يهمنى فى الحديث سوى ما اتفقنا عليه من أن « مصر » هى التى تعنينى ·

فحسنى مبارك وباتفاق الجميع على هذه الجزئية ــ رغم أنه من العسكريين ــ فهو مؤمن تماما بأن الديمقراطية هى طريقنا ومخرجنا الوحيد ، والدليل على ذلك أن الفرصة كانت متاحة بعد أحداث الأمن المركزى وكلنا يعلم ذلك ··

وهنا قاطعه خالد ثانية بأن التزوير فى الانتخابات الأخيرة كان جهرا وعلنا ·· فعن أى ديمقراطية تتحدث ·· ولم يعره هلال أى اهتمام واستمر فى حديثه عن المعارضة ليقول عليها أن تتوقف عن المهاترات ، والهيافات ، وأن تكون موضوعية ، كما عليها أن تتوقف عن تصفية الحسابات الشخصية وعبد الناصر ، والسادات ·

ـ وأن يكون لها برامج واضـحة معلنة ، على أن تتفق مواقفها مع برامجها ٠٠ ثم عليها أن تتفق مع الحكومة على الحد الأدنى والذى يحكمه الصالح العام ٠٠ كما يفعل أحزاب المعارضة فى الدول المتقدمة أمام القضايا الكبرى التى تمس بلادهم ٠

وأفـاق جيمس ، واعتدل فى كرسـيه وبعد أن طلب فنجانا من القهوة الايطالية الخفيفة ورفع يده من على خده ٠٠ همس قائلا :

هل المسئولين والحكومة لا يعلمون ذلك ؟ هل فيما قلناه جديد ؟

وأجابه الأستاذ / يوسف بهدوء يجب أن تتذكر دائما أنه لا يضيع حق وراءه مطالب ٠٠ ثم ان الحوار الموضوعى ، الهادف يفيد البعض منا فى تأكيد ، أو نفى معلومة ٠٠ أو اعادة صياغة لبعض أفكاره ، أو وجهة نظره فى قضية معينة ،

ـ وليس مطلوبا على الاطلاق أن نخرج فى نهاية الجلسة بكل الحلول

وهنا تدخل كريم فى الحديث ، وبأدبه المعهود ، وذكائه الحاد طـرح قضية جعلت الحاضرين جميعـا دون اسـتثناء ينتبهون !

ما رأيكم فى حسنى مبارك ؟ ٠٠ ونظر بسرعة الى هلال ربما ليقرأ تعبيرات وجهه ، ولا أدرى لماذا وكان أول المتحدثين الأستاذ / يوسف بعد ابتسامة ، واعتدال قال : هذه القضية تستحق غليونا ،وفنجانا من القهوة أكبر من الفنجان السابق اذا أمكن ـ وبعد ذلك أرجو الا يسجل هذا الكلام أو ينشر !

وأنصتنا جميعا لهذا الحكيم :

الحقيقة أن الحديث عن حسنى مبارك ، واليوم قد مضت ٦ سنوات تقريبا على رئاسته يفتح الباب لمنـاقشة الكثير من

الموضوعات ، لأننا نعتقد أن من حق الرئيس علينا ومن حقنا على الرئيس أن نستمع وأن يستمع الى مختلف الآراء ، لأنه من العناصر الهامة والمؤثرة في الحكم هى درجة البعد أو القرب بين الحاكم والمحكومين ..

ـ فكلما كانت القنوات متصلة .. كان ذلك أفضل وأصلح وأفيد للصالح العام .. وبحكم أننى عاصرت تجربة ما قبل الثورة ، وما بعدها فهذا يحتم على أن أعطى نبذة تاريخية سريعة عن الديمقراطية ، والتي تميز بها عصر مبارك :

نعلم أنه خلال الثلاثين عاما الماضية صارت مصر فى اتجاهات مختلفة ، وخطت خطوات فى طريق الديمقراطية ، ولكن فى كثير من الأحيان قيدت حرية الناس ـ وفى كل مواجهة بين الحاكم وجماعة سياسية كانت تنتهى دائما بتراجع على طريق الديمقراطية ـ ومن هنا فقد شعر حسنى مبارك بأن المجتمع المصرى فى حاجة الى فترة من الاستقرار، وتضميد الجراح .. لأن العملية ليست صراعا أو تناحرا بين الفئات الاجتماعية والجماعات السياسية ، وانما القضية الأهم هى أن تصل الى اتفاق وطنى على مشروع قومى معين نعمل جميعا على تحقيقه ، والذى سيؤدى بالضرورة الى زيادة الانتاج القومى ، بمعنى أن زيادة الانتاج هى هدف ، ونقطة مركزية ينطلق منها التفكير الوطنى اذن من مميزات عهد مبارك :

أولا : الايمان العميق بالديمقراطية ، والتى هى حق وليست منحة .. فكل مصرى له الحق فى المشاركة فى صياغة حاضره ومستقبله ، وهنا يجب على كل فرد أن يأخذ المبادرة ، وألا يترك كل شىء للحكومة كما قلنا ، وهنا تأتى أهمية دور الجامعات، والأحزاب، ودورالبحث، والنقابات، ووسائل الاعلام ، اذ يجب عليها جميعا المشاركة الفعلية الحقيقية فى التصدى لمشاكل المجتمع ، وأن تهتم بالواقع

الاجتماعى الذى نعيش فيه ، وألا يغلب عليها القالب النظرى .

ويجب علينا ألا ننسى التركة المثقلة التى ورثها فى الديون ، والارتباطات الخارجية المتعددة .. الوضع الاقتصادى المتردى .. لقد ورث مجتمعا تعود أن ينفق أكثر مما ينتج .

ثانيا : والحقيقة وانصافا للرجل أنه يتميز برؤيته الواضحة للوطنية المصرية ، وتتميز هذه الرؤية بالاحساس المرهف للوطنية ، والهوية المصرية من منظور عام واسع ومتطور .. وطبعا هذا ينبع من فهم قوى للوطنية المصرية والتاريخ المصرى ، والشخصية المصرية .

وتدخل خالد وبثقة ، ولكن ببعض الانفعال ليقول :

اننى متفق تماما مع هذا الكلام .. ولكنى للأسف أرى أن حسنى مبارك وهو رئيس مصر ، أكبر قوة فى العالم الثالث أو على الأقل فى الشرق الأوسط والعالم العربى ، رضينا أم أبينا تنقصه السرعة فى اتخاذ القرار .. أو بمعنى آخر يتميز عصره بالبطء الشديد فى اتخاذ القرارات .. والمسائل يتفاحل خطرها ، ولا نرى جديدا ..

وهنا تدخل الأستاذ / يوسف بحزم شديد ليقول :

يجب الا ننسى أن حسنى مبارك طيار ، وهناك قاعدة يؤمن بها الطيار الناجح من وقت التحاقه بكلية الطيران وهى « ببطء ولكن أكيد » وهذه القاعدة صحيحة ١٠٠٪ .

ولكن للأسف أننا تعودنا على سياسة الصدمات ، وقبلها سياسة الانفعالات وربما أن هذه السياسات تعطى نتائج باهرة وبسرعة ، ولكنها تتلاشى مع الوقت دون أن تترك أثرا عميقا ..

ومن مصلحتنا اليوم أن تكون هناك سياسة واضحة وأكيدة فمشاكلنا تفاقمت ، وتشابكت الى درجة لابد من مواجهتها ، ولا يكفي الاسبرين ، والمسكنات لعلاجها ، لابد من تجديد مرافقنا التى انتهى عمرها الافتراضى منذ ستين عاما مثلا ٠

فقط أعود لأطمئن خالد بأن حسنى مبارك طيار حذر يرفض أن يستعمل طائرته الا اذا أجرى فحصا شاملا عليها، وقاس كمية الوقود ، وعرف نوعية وكمية الأسلحة التى يحملها بالضبط ٠

ـ ولهذا قد يبدو للبعض أنه بطيء في اتخاذ القرارات٠

وهنا تدخل الأستاذ فهيم وهو رجل تعدى الستين بتسع سنوات بالضبط ، وقد حضر باريس للعلاج ولمدة أسبوعين ٠٠ ولكن الأستاذ / فهيم دائم الصمت كباقى أعضاء حزب الصامتين ، وهو الحزب الذى اقترحنا نحن المهاجرين والمغتربين انشاءه ، كأحد الحلول بعد أن فشل الحزب الوطنى في تواجده بالشارع المصرى وبين الجماهير ، وبعد أن حولت المعارضة الشعب الذى كان يرى فيها آماله وطموحاته ٠٠

ـ على أن يجمع هذا الحزب ، أصحاب الحق فى بطاقة انتخابية ، ولهم صوت انتخابى ، ولكنهم لا يستخدمون هذا الحق لسبب أو لآخر ٠٠ على أن يكون العضو لم يسبق له المشاركة فى أى حزب آخر من قبل ٠٠ !!

وبعد أن أشعل الأستاذ / فهيم سيجارة من النوع البنى الطويل ، بعد أن أدخلها فى مبسم قال :

الحقيقة أننى فخور بكم أيها الشباب ، فخور بالغيرة على وطنكم ، انكم تذكرونى بشبابى ونحن نخرج في مظاهرات، وهنافات فى الجامعة ضد الملك ٠٠

وبعد أن زفر دخان سيجارته فى عنف وكأنه يحاول أن يهرب بنفسه داخل الدخان ٠

ـ لا تسألوني عن رأيي في أى شيء ·· فقد قررت أن اضيف لصمتي الاعتزال عن كل ما يجرى في بلدى ·· وأن أعيش مصريا بلا رأى ··

ـ وقالكريم مشفقا :

كأنك تقذف بنفسك في هوة اليأس ·

وقال الأستاذ / فهيم كأنه يتحسر على نفسه : لست في حاجة الى أن أقذف بنفسى الى اليأس ، فاليأس أصبح الأرض التى نعيش عليها هناك ·

ـ وتدخل خالد معترضا ، ان اليأس هـو الأرض التى يعيش عليها العواجيز ، وكبار السن أمثالك ، « بعـد اذن حضرتك» ·· أما الأجيال التى لا تزال تحتفظ بحيوية عمرها فهى لا تزال تعيش على أرض الأمل هناك أيضـا ، وتجـد الحياة زاخرة بما يدفعها الى تحقيق هذا الأمل فاذا كنت أنت تعيش اليأس ، فانى أعيش الأمل بكل خلجاتى ·· علمـا بأننى قد عدت الى مصر منذ خمس سنوات بعد غربة طويلة ·· ولكنى أتردد على باريس ولندن من وقت لآخـر ! وقال الأستاذ / فهيم أو العجوز كما أسماه خالد وكان ساخرا :

ما هـو الفـرق بينى وبينك حتى تختلف الأرض التى يعيش عليها كل منا بين اليأس والأمل وهنا تدخل في الحديث شابا ، كان يصطحب الأسـتاذ / فهيم أو العجـوز فى رحلة علاجه بلندن وباريس ليقول فى حدة :

انه الفارق الطبيعى بين الجيل القديم والجيل الجديد ·· فالجيل القديم عاش تجاربه وانتهى منها الى اليأس ·· أما الجيل الجديد فهو يعيش تجارب جديدة يدفعه اليها الأمل ونقطة ضعف الجيل القديم ·· هى انهم يعيشون الحياة التى مرت بهم ، ولا يستطيعون أن ينتقلوا بهـا الى الحيـاة التى يعيشها الجيل الجديد ·· وقال العجوز وهو يتنهد كأنه يرثى نفسه :

ان مسئولية أى جيل سواء كان قديما أو جديدا تنحصر في تحقيق أهدافه الوطنية ‥ ولا يستطيع أن يتنحى عن هذه المسئولية الا اذا حقق أهدافه ‥ ونحن الجيل القديم لم نحقق أهدافا لذلك لا نستطيع أن نفقد احساسنا بمسئولياتنا ‥

وتدخل كريم مقاطعا :

ـ ان الأهداف السياسية أو الاقتصادية أو حتى الاجتماعية ‥ تفرض جهادا كأنه دخول فى معارك حربية ‥ والحروب تتطور وسائلها من جيل الى جيل ‥ تتطور في الأسلوب السياسى ، وفى أسلوب التخطيط ‥ وفى أنواع الأسلحة و ‥ و ‥ أى أن الحروب التى كانت قائمة منذ ثلاثين عاما تختلف اختلافا مطلقا عن الحروب التى تدور اليوم ‥ وبالتالى فان من كان يحارب منذ ثلاثين عاما لا يصلح ليحارب اليوم ‥ ان أى حرب فى حاجةالى محاربين جدد ومن الجيل الجديد ، عاشوا هذا التطور ، واستوعبوا واكتسبوا القدرة على مواجهته ‥

ـ وأضعف نواحى الضعف فى السياسة المصرية هو أن كثيرا من العواجيز أو كبار السن لا يزالون يحملون أنفسهم مسئولية سياسية ، ويخوضون حروبا بنفس الأسلوب القديم البالى ‥ الذى لم يعد يحقق انتصارات ‥ أنظروا الى وزارة الهجرة المسئولة عن الشباب !

ـ هل تدرى لماذا عجزت الديمقراطية الكاملة عن اثبات كيانها فى مصر حتى اليوم ‥ لقد عجزت لأن كل قادة الأحزاب المعارضة من العواجيز ‥ أى من الجيل القديم ‥ الذى لم يستوعب ، ولا يعيش بعقليته تطور الحروب السياسية التى أصبح يعيشها الجيل الجديد ‥

ـ وقاطع الأستاذ / فهيم ، وكأنه يتعمد السخرية من كريم :

ولعلك تعتبر حسنى مبارك من الجيل الجديد ‥ فقال كريم فى تأكيد :

فعلا ‥ انه يمثل الجيل السياسى الجديد ‥ لا لمجرد السن ‥ بل لأن عقليته لم تتكون وهى محصورة فى المشاكل التى واجهت ثورة ٢٣ يوليو بل اتسعت لتستوعب مشاكل الثورة نفسها ‥ وقد حاول من سبقوه من قادة الجيل الثورى القديم أن يتطوروا بالثورة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا أى تطور لأنهم كانوا يعيشون بالثورة لا لها ‥ أما حسنى مبارك فقد استطاع أن يتطور بالثورة ، لأنه وجد نفسه فيها ، وأحس بكل ما ينقصه منها كواحد من أفراد الشعب فعاش لها ‥ وتدخل خالد ساخرا : أى أن كل ما يقنعك به حسنى مبارك هو أنه تولى الحكم كممثل لجيل جديد ‥

واستمر كريم دون أن يأبه بمحاولة خالد اثارته :

ان أى حاكم لا يمكن أن يصل الى اقناع الناس بمجرد توليه الحكم ‥ حتى لو كان قادرا على اثارة الأمل فانه يبقى أملا معلقا فى ميزان حساس الى أن تتساوى كفتاه وكفة الأمل لاتزال معلقة فى الهواء دون أن تتساوى مع كفة الأثقال الوطنية أو تتفوق عليها فى الثقل ‥ ولكنى مقتنع بدقة الميزان نفسه ‥ وبأمانة اليد التى تمسك به وبالجهد الذى يبذل لترجيح كفة الأمل ‥

وهنا تدخل الأستاذ / يوسف مشعلا غليونه ، وبسمة تملأ الوجه العريض ، ليقول اننى أرغب فى الرجوع الى حديثى الفائت ببعض التفصيل ‥ وسأقول لكم بعض ما قرأته عن تحليل للشخصية السياسية التى يتميز بها حسنى مبارك ‥

– ان ما يميز حسنى مبارك ٠ هو أنه كان متخصصا كقائد طيار ‥ وقائد الطائرة مفروض عليه أن يحدد الهدف الذى يتجه اليه تحديدا قاطعا قبل أن يتحرك بالطائرة

.. ومفروض عليه أن يطير فى خط مرسوم ثابت نحو هــذا الهــدف ، ولا يجرؤ ، ولا يقبــل أن يحيد عنه .. ثم وهــو يقــود الطائــرة تظل عينــاه معلقتين بعشرات العــدادات ، والمؤشرات الدقيقة المثبتــة أمام مركز القيــادة يحتويهـــا كلهــا بعينيه دون أن يضــيع عنــه أى واحــد منهـــا .. وبحــكم تأشيرات هــذه العداوات قد يرتفع القائد بالطائرة الى أعلى ، وقد يهبط بها منخفضا .. وقد يقلل من سرعتها أو يزيد منها .. وقد يجتاز مطبا هوائيا يهز الطائرة فلا يأبه باهتزازها .. ويستمر فى طريقــه نحــو الهــدف .. وقد يضطر الى الهبــوط فى مطار يمر به ليتزود بالــوقود .. ثم يعود طائرا و .. و .. وهو دائما فى طريق مستقيم نحــو الهدف .. وحسنى مبارك بعد أن تحمل مسئولية الحكم يقود الدولة بعقلية قائد الطائرة .. قيادة بدأت بتحديد الهدف ثم تحديد الطريق ثم مراقبة كل المؤثرات التى تحيط بالدولة أو تنطلق من داخلها .. حريصا على سلامتها .. وهنا تدخل أحد الحاضرين فى هدوء :

اننى مقتنع بهذا التحليل والتفسير للشخصية السياسية التى يتميز بها الرئيس حسنى مبارك الشخصية التى وصلت الى قمة القدرة على التحــكم فى قيادة الطائرة ، والاحتفاظ بسلامتها ولكن هناك فرقا بين قائد الطائرة ، وقائد الدولة ... ان قائد الطائرة يتحمل المسئولية وحده مع من يحيط به من مساعدين .. ويغلق الباب بينه وبين ركاب الطائرة .. وكل العدادات التى تســجل كل المــؤثرات التى تحيط بالطائرة مجتمعة أمامه وحده .. ويتابعها وحده .. ولا يرى الركاب منها شيئا .. بل لا يخطر على بال أى منهم ان يتابع تأشيرات هذه العدادات .. ويجلسون بعيدا فى مقاعدهم فى هدوء ... مفترضين أن شركة الطيران قد اختارت أفضــل الطيارين ، والأكفأ منهم ، وذوى الخبرة فى مجــال الطيران للمحافظة على سلامة الركاب ، والطائرة أيضا .. وحفاظا

على سمعة الشركة ٠٠ وبالتالى فالركاب يجلسون دائما فى هدوء وطمأنينة مستسلمين استسلاما كاملا لقائد الطائرة ٠

ولكن قائد الدولة لا يستطيع أن يستكمل القدرة على القيادة الا معتمدا على اشراك كل الركاب فى المسئولية ٠٠ ركاب الدولة ٠٠ ولن يستطيع هؤلاء الركاب حمل هذه المسئولية الا اذا استطاعوا أن يتابعوا ، ويفهموا ما تصل اليه المؤثرات التى تحيط بهم ٠٠ ولكن الباب لا يزال مغلقا بينهم وبين قائد الدولة ، ولا يرون شيئا مما تؤشر به العدادات المجمعة أمامه ٠٠٠ حتى أن بعض الركاب قام كل منهم بوضع عدادات خاصة به يحاول أن يستعين بها على تقدير الوضع الذى تعيشه الدولة ٠٠ وهذا التقدير فى حاجة الى عشرات أو مئات العدادات ٠

ـ ولأنها عدادات خاصة تقوم داخل عقليات متعارضة ، فان الخلاف يقع بين ماتشير اليه ، وما تشير اليه عدادات الرئاسة ٠

وأريد أن أقول هنا : ان مايدفع القيادة الى الأمل فى الوصول الى الهدف ٠٠ ومايدفع الناس الى اليأس هو أن القيادة لاتحمل الناس مسئولية كاملة بأن تصارحهم بكل تفاصيل الواقع ٠٠ حتى يعيشوا معها على الطريق ٠٠ مازلنا فى حاجة الى مزيد من المصارحة حتى نصل الى آن يعيش الشعب قضية وطنية تصل به الى قوة احتمال متاعب الطريق ٠٠ وتحميه من الانهيار نحو اليأس ٠٠ وهو اليأس الذى وصل الى حد الغش الجماعى ٠٠ والطلبة آخذو يفرضون لأنفسهم حق الغش فى الامتحانات ٠٠ وآباؤهم يزودونهم بالقدرة على الغش ، مستخدمين كل الوسائل ، بما فيها ميكروفونات المساجد !!!

واختتم الأستاذ / يوسف حديثه ٠٠ بأن حسنى مبارك المفروض أنه يعى جيدا أن مصر في حاجة الى مشروع قومي

نلتف حوله جميعا كل يؤدى واجبه ·· ومسئوليته ·· لتنهض الدولة ··

ويبدو لنا أنه من غير المفيد أن نبحث عن هذا المشروع فى انتماءات مصر التاريخية أو الجغرافية ، كما يحاول البعض ··

فمصر العربية ، ومصر الاسلامية ، ومصر القبطية ، ومصر الفرعونية ، ومصر الافريقية ، ومصر البحر المتوسط ·· لا يمكن أن تكون مجرد مشروع قومى ··

وانما هى حقيقة أو حقائق ثابتة أبقى من أى مشروع·

المشروع القومى هو بالضرورة أمر مؤقت ·· لابد أن ينتهى اما بانجازه ·· أو الفشل النهائى فى تحقيقه ·

وعلى سبيل المثال كان الجلاء هو المشروع القومى طوال فترة الاحتلال البريطانى لمصر ··

وانتهى هذا المشروع بانجازه بعد نحو ثمانين عاما من الكفاح الوطنى ··

ثم أصبحت ازالة آثار العدوان أو محو الهزيمة فى ١٩٦٧ هى المشروع القومى الجديد ·· وهو ما انتهى أيضا بانجازه بعد كفاح مرير ··

فالمشروع القومى هو بالضرورة من المتغيرات ، لا من الثوابت ·· فهو يواجه ظروفا متغيرة ، ولكن هناك ظروفا خطيرة تؤثر فى كيان الدولة ، والحياة اليومية للمواطنين·· ويخشى اذا تركت دون مواجهة أن تصبح فى حكم الثوابت··

ـ الظروف الخطيرة التى تعيشها مصر الآن ·· والتى يعرفها ويعيشها كل مصرى اليوم ، تتلخص فى عبارة واحدة هى :

الفقر الشديد الناتج عن الاختلال المتزايد بين الموارد الاقتصادية المحدودة ٠٠ والانفجار السكاني الرهيب ٠

ومعيار الفقر أو الغنى هو العلاقة بين الموارد والسكان، وفي ضوء هذا المعيار يجب أن نعترف أننا دولة فقيرة جدا ٠٠ فدخلنا القومي لا يزيد عن عشرين مليار دولار في السنة ٠٠ يعادل أربعة في المائة (٤٪) من الدخل القومي لفرنسا وهي دولة تماثلنا في عدد السكان (٥٤ مليون نسمة) ٠٠ ويعادل خمسة في المائة (٥٪) من دخل ولاية كاليفورنيا الأمريكية والتي لا يزيد عدد سكانها عن ١٨ مليون نسمة ٠٠ ويعادل واحد في المائة (١٪) من الدخل القومي لليابان والتي يبلغ تعدادها حوالي ١٢٠ مليون نسمة أي ضعف عدد سكان مصر فقط !!!

ونحن نقارن بين مصر ، وهذه المجتمعات الغنية لسببين :

أولهما : أن هذه المجتمعات رغم ثرائها تعاني من مشاكل اقتصادية ، ولا توفر لمواطنيها الرفاهية والرخاء دون حساب ٠٠ ففي فرنسا يوجد حوالي ٣ ثلاثة مليون عاطل (٢ر٦ مليون) وفي اليابان يدفع المواطن ثمرة كفاح عمره كله ثمنا لشقة ٠

أما نحن فاننا نتصرف على جميع المستويات على أننا دولة عظمى ، غنية ، بل ان البعض دون استحياء رفع شعار دولة الرفاهية ، بدلا من شعار العرق ٠٠ والعمل ٠٠ والانتاج ٠٠ أما السبب الثاني فهو أن هذه الدول الغنية لا يتزايد عدد سكانها رغم تزايد ثرائها (عدد سكان فرنسا عام ١٩٠٠ كان خمسين مليونا ــ اليوم ٥٤ مليون) !

أما نحن فنجتهد ونعمل على زيادة السكان ٠٠ كما لو كانت الرفاهية في انتظارهم ٠٠ فالدولة في مرحلة تاريخية سابقة قايضت المواطنين على حقوقهم السياسية مقابل التزامات مالية ٠٠ وأصبحت الدولة مقابل هذه الالتزامات

تتبنى المواليد ، فاندفع الجميع الى الانجاب ، وهم يضمنون لأولادهم نصيبا فى ادارة القوى العاملة أو ادارة تعطيل قوى الانتاج فى المجتمع !!

والنتيجة أننا أصبحنا نتضاعف مرة كل ثلاثة وعشرين عاما (طفل كل ٢٤ ثانية) .. وبهذا المعدل سيكون لدينا عدد سكان اليابان بعد ربع قرن .. وعدد سكان الخمسين ولاية أمريكية بعد نصف قرن .. وعدد سكان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى مجتمعين بعد ٧٥ سنة .. وعدد سكان الصين (ألف مليون مواطن) بعد قرن واحد !!

والخطير ليس هو هذه الاعداد الرهيبة ، وانما هو الطريق اليها الملىء بالمجاعات، والأوبئة والصراعات الأهلية .

ان ما يهددنا ليس هذه الأعداد ذاتها .. وانما هو الطريق اليها الذى لا ينبغى أن نترك أنفسنا ننزلق اليه دون مبالاة ..

فلنسلك الطريق القويم الذى يفرضه المنطق والعقل السليم ، ولا نترك الأمور تتردى عسى أن تحل المشاكل ذاتها بذاتها ..

فلنرفع شعار دولة المعاناة بدلا من شعار دولة الرفاهية .. فلنرفع شعار العرق والانتاج .. بدلا من الوعود الزائفة .. والآمال الكاذبة التى لا يمكن الوفاء بها فلتتصرف جميع الأجهزة الرسمية .. وجميع المواطنين كما ينبغى أن يتصرف الفقراء الشرفاء .. فلتسقط الدولة كل التزام على عاتقها يؤدى الى زيادة السكان .. وزيادة التناقض بين الموارد المحدودة .. والانفجار السكانى الخطير ..

فلتفتح الأبواب على مصراعيها لكل راغب فى الجد والاجتهاد .. لكل منتج مخلص شريف وحتى ينجح المشروع

القومي للعرق والانتاج ·· لابد أن يقره الشعب بعد مناقشة حرة ·· يشترك فيها الجميع ·· وتعلن فيها كل الحقائق ·· بحيث يكون القرار النهائي هو قرار الشعب · وليس قرارا مفروضا عليه من أى جهة أخرى ·

وحتى ينجح المشروع القومي للعرق ، والانتاج ·· لابد أن تتم صياغته فى نص واضح يجرى التصويت عليه كنص دستورى ·

والصياغة التى نقترحها لنص المشروع القومى كما يلى :

« مصر دولة فقيرة ، لا هدف لديها يعلو على تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق التوازن بين الموارد والسكان » ·

وقد يعترض البعض على اقتراح النص على المشروع القومى فى الدستور ··

ونحن نقول :

ان مستقبل مصر لا ينبغى أن يكون موضوعا للمزايدات الحزبية أو المقايضات السياسية واذا نجحنا فى هذا المشروع، فسوف نحتاج الى ثلاثين سنة على الأقل ·· نستطيع بعدها أن نعدله ·

ـ ان الكثير من خطط الاصلاح اصطدمت بنصوص دستورية أسىء تفسيرها فأسىء فهمها ··

ـ والمشروع القومى ليس مجرد صحوة ·· أو يقظة ·· وانما هو انقاذ ، وتعديل كامل وشامل للمسار ·· ومستقبل أبنائنا ، وأحفادنا ·· فلا أقل من أن يستند الى نص دستورى ·· ولن يكون هذا النص بدعة بين نصوص الدساتير فى العالم ·· بل على العكس سيصبح نموذجا

دستوريا تقتدى به كل دول العالم الثالث فى دساتيرها ..
والدول الفقيرة أحوج الى مثل هذا النص فى دساتيرها من الولايات المتحدة الامريكية التى يطالب رئيسها بادخال نص في دستورها يقضى بضرورة موازنة الميزانية العامة للحكومة الاتحادية للخمسين ولاية . والدول الفقيرة ومنها مصر تحتاج ليس فقط الى موازنة ميزانيتها . بل الى موازنة كل أساليب الحياة المختلة فيها .

ومهما بدا نص المشروع القومى قاسيا فى ألفاظه ، مؤلما فى تطبيقاته ، فهو أهون بكثير وأرحم بكثير من أن نترك الأمور تجرى حسب الظروف والأهواء .. وأن ندع المشاكل تحل ذاتها بذاتها .

وكانت الساعة قد قاربت على الثالثة صباحا ..
واتفقنا جميعا على أن نلتقى مرة أخرى ..

كما اتفقنا جميعا على أن :

مصر فى حاجة الى ثورة !

ثورة على النظام !!

النظام الادارى الذى تعفن .. وأصبح يعوق حركة التنمية .. تنمية المجتمع ..

وبدون هذه الثورة على النظام الادارى .. فسيظل حالنا كمن (ينفخ فى قربة مقطوعة) !!

فهرس

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٨٢ / ١٩٩٠

ISBN ٩٧٧ _ ٠١ _ ٢٤٢٢ _ ٢



لم يحترف محمود عمارة الكتابة ، لذا فهو لا يعرف فذلكاتها ، ولا يتصنع اساليبها .. أنه يحكى رحلته ببساطة آسرة وصدق واضح .. ويعبر عن افكاره وعن افكارنا ايضا بصراحة وأمانة .. بل وبشجاعة ، وهو مالم نتعوده من كثير من كتابنا المحترفين ، الذين يلفون ويدورون ليشيروا الى حقيقة بسيطة نعرفها جميعا ..

محمود عمارة لا يحترف الكتابة ، لكنه يحترف الصدق الذى نفتقده ، ويهوى حب مصر بلا ادعاء لذا فهجرته التى يتحدث عنها هجرة سطحية .. نكتشف مع كل صفحة من صفحات هذا الكتاب أنه كلما ابتعد فى المسافة عن مصر كلما ازداد دخوله فيها ، وكلما تعرف على مشاكل الآخرين فكر فى حل مشاكلنا ، وأنه يأخذ من هناك ليعطى هنا ، وأن هذا الكتاب أقرب دليل على ذلك .. لذا فنحن نعيش معه بينما لا نذكر آلافا من المهاجرين المصريين فى مشارق الأرض ومغاربها ..

خرج محمود عمارة من مصر بعشرين جنيهاً فقط ، وبعض الاحلام البسيطة ، وعاد اليها رجل أعمال ناجح يملك مطاعم وشركات فى أوروبا وأمريكا .. وما بين الخروج والعودة رحلة كفاح واصرار وحب لمصر يهديها لكل شاب : من يريد الخروج ، ومن يريد البقاء ..

092
9

٣١٠ قروش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب